عبدالله الماي

السماء الوسطى

رواية

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

عيسى أبو يوسف اللموشي

السماء الوسطى

عبدالله الماي

السماء الوسطى

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

السماء الوسطى

عبدالله الماي

الطبعة الأولى : 2020 م

رقم الإيداع المحلي: 195/2020

رقم الإيداع الدولي: 9789959-921-444

دار الكتب الوطنية بنغازي - ليبيا

هاتف: 7165022.21821+ - بريد مصور 4843580-21821+

ص.ب: 75454 - طرابلس Email: almosgb@yahoo.com

مهداة

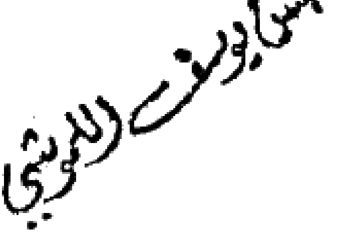
إلى الارواح البريئة

التي خانها العطش

والجوع ..

1

في الطريق إلى الجريد



1 في الطريق إلى الجريد

عند السفر في الصحراء، والتي كما تبدو أنها اشتقت اسمها من الصبر او على الاقل مرادف له وهي دالة شقاء أبدي، حيث يحتويك الصمتُ ويلفك الهدؤ، وتبقى وحدها رفيقك الأخرس الذي لا تعرف بالضبط أيريد رفقتك ام يرفضها؟، اي يحسنها أم يسيئها، وقد تتنكر لك نهائياً في أية لحظة طارئة، الصمت وسأم السفر يُشْعِرَانِكَ بطول الطريق ولا يخففها الا شوق الوصول المصاحب، فالأمل زاد آخر نحتاجه في ترحالنا، لا تثق في الصحراء ولكن يجب التعرّف عليها بعمق فقد تدفع بك الاقدار اليها مرغماً يوماً ما، أو ترتمي بين أحضانها هارباً من الأسوأ، مثلما نحن الآن في رحلة البحث عن الحياة، فاما ان نموت في الصحراء او نموت جوعاً لا خيارات بديلة واضحة يمكن التعلق بها، فها هي جموع الاهالي تشد الرحال وتنشد البقاء على قيد الحياة، في مغامرة نزوح جماعي ومغادرة الواحة التي حوّلها الجوع إلى مقبرة كبيرة، وتتوجه قاصدة واحات "فزان" ومنها إلى ما بعد نطاق الموت في العمق الافريقي البعيد، أو في تغريبة تَعِدُ بالكثير من الأمل إلى " شط الجريد " الذي نسمع عنه فقط ولا نعرف عنه الا القليل وتصفه لنا الأخبار المتواترة المغرية التي تجعل منها منطقة جذب، بأنه جنة على الأرض تاجها النخيل (الدقلة) المسماة لدينا بخبز الصحراء، وهو جزء من حزام التمور الممتد من واحات مراكش في الغرب إلى أرض العراق شرقاً، واذا كان الغزاة في الماضي قد ابادوا نصف الليبيين فان بلاد الجريد قد أحيتّ نصفه الباقي وحالت دونهم ودون الفناء.

البعض سافر والبعض الآخر يتحضر للرحيل في شبه انسحاب متعجل، وكل قافلة تنشد أن تكون من أول الواصلين، حيت تنتهي المجاعة ويتوقف الموت الدنيء، الذي داهم التراب الطرابلسي خلال النصف الأول من القرن العشرين على غير توقع، بدأتْ رحلةُ البحث عن النجاة، وهذا أمر لابد منه، علينا ان نخاطر بأرواحنا كي لا نموت جوعاً، مادام لا يدري بنا أحد فلن يلتفت الينا أحد، السفر مخيف والبقاء هنا أخوف بكثير، فالجوع كافر أتى على الناس جميعا يفتكُ بهم ويشردهم هنا وهناك دون رحمة إلا ما نذر، واحياناً اذا تفرّق أفراد الأسرة الواحدة لا يتم اللقاء مجدداً بينهم إلى الأبد.

كنا نحارب الجوع في هذه المناطق شبه الصحراوية بكل ما أوتينا من مطرٍ، واليوم ها نحن في العام الرابع ولم تسقط قطرة مطر واحدة، عندما تبكي السماء تضحك الأرض ونسعد بذلك كثيرا، وهي أسوأ جائحة معروفة تتعرض لها المنطقة حتى ألآن، حيث بدأ التصحّر واضحاً وأخذ الحزن يتقوّس فوق الواحة، ويشدد من قبضته عليها منذ أول يوم ظهر فيه الجوع سافراً بشكل علني على أهلها، فالصحارى أكثر عرضة لموجات الجفاف المتكررة التي يعقبها عادة مجاعة، نحس بأن حركاتنا مقيدة ويطوقنا الموت من جميع الجهات.

في البداية استحى الناس ولم يصرّح أي منهم علانية بنفاذ ما لديه من مخزون المؤن خشية الملامة في مكابرة عقيمة، ولكن لاجدوى من ذلك، قال جدهم الأول قولته الشهيرة التي حافظوا عليها في ديوانهم إلى اليوم (تتذكر الموت ينساك، تنسى الموت أو تستخف به يتذكرك ويباغتك).

فمزارع النخيل المانحة للحياة في شط الجريد لاحصر لها ولا يحدها بصرُ فهي تلوّن الأفق بالأخضر المُشمّع الدائم الذي يشبه

في اخضراره اخضرار ورق شجر الزيتون يا لغرابة التشابه الذي نحس به، على خلاف بقية الأشجار الأخرى، وكل من يصل هناك حياً لايموت جوعاً بعد ذلك، إذ يتحصل على ما يكفيه من مؤون دون شقاء كبير، بدأت معاناتهم الحقيقية من أسوأ مخاوفهم حيث فكرتْ بعض العائلات :

مادام الموت هنا فأي مكان آخر قد يكون أفضل، ووطنك هو البلاد التي تحب والكرة الأرضية كلها وطن الأنسان، والحياة أينما تنبت السنبلة أو تبسق النخلة. بينما العوائل التي لم تستطع مواصلة الرحلة وبلوغ شط الجريد خمنتْ ـ يظهر لنا أننا سنموت قبل أن تصل الرحلة إلى نهاياتها، ما نفع الرحيل اذا كان الإنسان سيموت هنا أم في الطريق قبل الوصول؟

فآثر البقاء في مكانه ويوفر على نفسه ما سيلاقيه من التعب والشقاء والقسوة، ويئست هذه الأسر من البحث عما تأكل وأصبحوا يعيشون وفق مقتضى الحال، حيث أقدموا على تناول جلود الحيوانات ولحوم الجيف بعد شَيّها، وأصبح أكثرهم ينتظر الموت الداهم وليس شيئاً آخر، وللتخلص من شظف العيش والعوز الذي يلاقونه أضطروا إلى طمر أنفسهم أحياء في كهوفٍ وغِيرانٍ محفورة على سفوح المرتفعات وخواصر الجبال منذ عصور غابرة، فيضعون بذلك حداً لآلامهم ومعاناتهم، إنها مدافن جماعية لأحياء لم تفارقهم أرواحهم بعد، حتى لايدفعهم الجوع للتسوّل وإذلال مد اليد لتعود فارغة، فيحافظوا على ماء وجوههم، حيث لا أحد لديه بما يجود به على الآخرين، وخشية ألا يجدوا من يقبرهم ويسترهم اذا ما ماتوا وتبقى جثتهم تتفسخ في العراء غذاءً للضواري والكواسر التي تجول دونما توقف بحثاً عن طعام، هي الأخرى أشد جوعاً وأحوج

ما تكون إلى قضمة واحدة قد تطفيء بها بعضاً من جوعها، بل وتهاجم دون تهيّب بشراسة كل من يلاقيها، وأصبح من المألوف أن تجد أشلاء جثث عشرات الضحايا قد قطعتها الضواري وهياكل عظمية مجردة او جثامين منتفخة أو مبقورة ومتحللة منتشرة في كل مكان، تبدد الرياح روائحها الكريهة إلى جميع الجهات لتستدعي بها الجوارح، لم يقوَ اي منهم على دفن الموتى بطريقة لائقة، خشية الإصابة بالامراض، فتبقى أغلب الجثث ملقاة في العراء حتى تتحلل وتتعفن، وجسم الإنسان الذي بلغ منه الجوع والعطش تتحول بشرته بفعل الجفاف الحاد إلى اللون الأسود وكأنها محنطة أو مقددة، وتكون أبعد عن التفسخ من غير الجافة، وأينما رأيت طائراً يحوم في أعالي السماء، فمعنى ذلك أن هناك جثة أو مجموعة أجثاث تحته، والمنطقة برمتها أصبحت أرض وبِيئَة والموت في كل مكان وفي كل إتجاه ولا أحد يستطيع تجاهله. أحزان الناس متشابهة، وخوفهم واحد فالموت إما أن يؤلف بين قلوبهم ويوحدهم أو يشتتهم جماعات وفرادى تائهة ضائعة، الكل لايزال يذكر ذلك الرجل القلق المضطرب الذي خرج عليهم في ساحة السوق ذات يوم في بادرة غير مألوفة منه وغير معروف عنه ذلك، وهو ينادي على نفسه دون حياء بعد ان غالب نفسه وكبرياءها كي يتجاهل جميع الحضور وكأنه لايعرف أحداً أو انه ليس منهم : —

"أيها الناس ! أيها الناس ! من يشتريني بنصف ثمني كي أطعم أطفالي الجياع؟ " وما ان كررها حتى هب أحد السامعين تدفعه النخوة والشهامة وأعطاه حفنة من تمرالنخيل، ربما ليس لديه سواها، وحبات الثمر القليلة هذه بالنسبة لجائع معدم مثله وفي هذا الزمن الشحيح تعني الكثير والكثير، وتُعَدُّ حياةً بأكملها قد منحت

له، فهي لا تشبع جوعه لكنه سيكتفي بها الآن على أقل تقدير — فالأعمار أصبحت تحسب بالساعات والدقائق والزمن الذي يمر نحسُ به هرماً — والى ذلك الحين عندما يجوع ثانية لها مفرج كريم، وكما تبدو للحضور أكثر من فعل شيء جيد أو تقديم حسنة، إنه الإيثار النادر في الزمن العصيب، رغم أنه قال ايضاً بعظمة لسانه : —

لكن مع ذلك فاللقمة التي توهب لي مُـرّةٌ على لساني وحلوة المعنى بالنسبة للمانح الجواد، إذ هو من يشعر بالسعادة لفعله الشيء الصحيح في وقته. سئموا الحياة وتعطلت حواسهم لكن مع ذلك علمهم العيش في الصحراء كيف يتعامل الواحد منهم مع الظروف القاسية، والتكيف دون عناء كبير، فيدعم بنصف قوة إضافية تمنحه القدرة على الإحتمال والصبر والتعوّد على مقاومة العطش والجوع، انتشرت جموع الناس في أرجـاء المنطقة بحثا عن أي شـيء يسد الرمق أو العثور عما يسرقونه ولوعنوة فكل مجاعة تفرز صعاليكاً جدداً لايعرفون الخوف ولا يهابون الموت، إذ كثرتْ عمليات السطو والسلب والنهب في كل بقعة بالأخص في الأطراف القصية الموحشة الخالية من البشرالتي تمنحهم الفرصة لذلك، في مثل هذه الحالة من المجاعات يصبح الناس شركاء في الطعام والماء، وأغلب الجياع تحولوا إلى قطّاع طرق طارئين غصباً عنهم يخيفون الناس وينشرون الرعب في كل مكان كي يوفروا لأسرهم شيئاً من طعام يقتاتون به، فلا يتردد الواحد منهم في قتل أيّ كان يصادفه في طريقه ويرمي به حظه العاثر بين يديه ليلقى حتفه لا محالة، خاصة الأثرياء والميسورين، إذا ما حس بأن لدى الواحد منهم ما يأكله أو بحوزته مال يشتري به شيئاً يسد به رمقه، لم يكن يعيش ليسلب بل يسلب ليعيش، خاصة إذا ما رفض ألإستجابة إلى أوامـره والإدعـان لمطالبه حيث تزداد

الشكوك حوله والإشتباه ـ في انه يمتلك شيئاً ما يؤكل ويخفيه عن البقية. الشخص منهم يقوّمونه من لون بشرة وجهه وطراوة جلده ويتكهنون حالته، فاذا كان ريّان طريّ ومحمرّ، فهذا دليل على أنه يمتلك ما يأكل حتى هذا اليوم والا لما بقي حياً إلى هذا الوقت وعلى هذه الحالة البادخة من النضارة، وربما لايزال لديه مخزون إضافي سرّي، الا انه بطبيعة الحال يخفيه عن أعين الناس ـ في أمكنة مجهولة لايعرفها أحد الا هو فقط، ومن المؤكد انه يتسلل اليها ـ في لحظات معينة يقتنصها بحذر ويقظة لايراه فيها أحد ولا يعلمها سواه، فيأخذ منها أدنى كمية ليقتصد الباقي لقادم الأيام الأسوأ، ويعود محترساً من رؤية أحدهم له وإنكشاف أمره، إذ سيعقبونه عليه فيما بعد، ويأخذونه كاملا، بعضهم لا يخفي كل زاده ـ في مكان واحد بل يوزعه على امكنة عديدة ومتباعدة حتى لايضيع كله مرة واحدة اذا ما تم العثور عليه من قبل الآخرين، ومع ذلك يراقبونه بشدة ويضيقون عليه لمعرفة أمكنة تخزينه، على الرغم من ان الأمر لديهم مجرد شك وليس يقيناً، ويستمر صراع وتطاحن الفأر والقط . اما اذا كان لون وجه الشخص شاحباً أصفراً، وقد نال منه الجفاف والجوع فهو حالة مكررة منهم لايختلف عنهم فلا جدوى تُرتقب منه، ولا يهتمون لأمره. أحيانا يعرف الناس الإسم ألأول فقط للواحد من هؤلاء اللصوص وليس كاملاً وغالباً ما قد يكون مستعاراً، والذي ينتشر بسرعة بين سكان الواحات ويُشتهرُ به، ولم يتمكن أحد من التعرف عليه شخصيا بعد، أو رؤية ملامح وجهه، لقد أنزلوا الرعب ـ في قلوب الأهالي بعمليات السطو والنهب المتكررة التي يقدمون على تنفيذها دون تردد .. فاللص مندس، شخص شبحي متنقلا من مكان إلى آخر ـ في المشارف والتخوم البعيدة، وقد يكون بيننا الآن ويتحدث

الينا بأريحية وود وكأنه ملاك، وبعد لحظات ينتقل في خفة البرق ليقابلك متعمداً في مكان آخر، فيسطو عليك بلا مماطلة ودون رادع أخلاقي ولا يرى في ذلك عيباً أو خزياً وكأنه شيطان، إنه عدو غير مرئي يختفي بسرعة دون ان تدري به ويظهر فجأة في لحظة غير متوقعة بلا انذار سابق، غامض ومجهول فاقد للشهامة والنبالة، لايهدأ في مكان، وآخرمن ينام ليلاً وأول من يصحى صباحاً من نومه في المنطقة، فيصعب القبض عليه فهو دائماً يقظ في شك من أمره لا يطمئن إلى شيء البته، حتى الحائط أو الشجر يخشى أن تتآمر عليه، يأخذ احتياطات عاليه لاتخطر على البال وأحيانا يشتكي منه ضحيته اليه دون أن يدري انه هو، يحترز من أي شك ولا يأمن أحد، يخشى ان يُغْدَر به أو يغتاله عدو ممن تعرض لهم في السابق انتقاماً منه، إذ لربما التقطوا أمارة من أماراته أو تعرفوا على علامة فارقة فيه قد غفل إخفاءها تساعد على الإهتداء اليه، فعندما ينفذ عملية سطو يخفي وجهه وراء عمامة أحكم شدها على رأسه، يتكلم بحذر شديد وبطريقة مموهة لاتميزه، حريص على إخفاء صوته وتغيير نبرته بِلَيِّ لسانه، أو يخرج الكلمات من أسفل حلقه ويزأر بها وفق الحاجة، حتى لايسهل تحديد شخصيته، وأحيانا يلتجيء إلى لغة الإشارة اذا كان على مقربة من صيده، لذلك لم يتمكن أحد من التوصل إلى معرفة أي منهم حتى ألآن، حيث كل الأرض أصبحت ديار الله مجازة ومباحة للجميع بلا حدود ودونما قيود، بعدما كان الناس متمسكين بالبقاء على هذه الرقعة المحدودة من الصحراء، ويرون فيها مقامهم الدائم، ولم يكن احد يخطط للهجرة أوحتى يفكر في ترك وطن الأسلاف مهما بخلت عليهم الطبيعة وجدبت الأرض، فهل يعني هذا إستسلاما للبطون كما نفّرهم الأجداد من ذلك ؟ انه

اختيار صعب، وعلى حد قول الشباب الجدد :ـ

(وطن لا يلاحقك في المهجر ويضيّق عليك هناك لا يستحق أن تعود اليه)، فعندما نموت نعود إلى أوطاننا الحقيقية. هذا العام الرابع على التوالي لحلول الجفاف على المنطقة التي أصبحت عديمة الحياة، وقد نفد مالديهم من مخزون الغذاء بعد أن صابروا كثيراً وطويلاً، ففرغت زكائب التمور وكذلك أهراء تخزين الحبوب، وخلت مطامير الحبوب بأنواعها وبقيت مرتعا لليرابيع والجرذان، كأن السماء لم تمطر البته والأرض لم تستقبل ماء أبداً، هكذا هي الصحراء سرعان ما تتحول إلى وجه صارم عابس لا يقبل بالتساهل ولا يعترف بالمرونة، اقتلعهم الجفاف من جذورهم ليطوح بهم هناك إلى أمكنة أخرى بعيدة ومتباعدة بحيث لا يمكنهم التواصل أو يتعرف بعضهم على بعض من جديد، وأصبح انسانها محكوماً بالشقاء منذ الآن .

2 في الطريق إلى الجريد

عما قريب ستتوقف الحياة وينتهي كل شيء، ماذا ينتظر الأهالي بعد أن ضاقت عليهم بما رحبت ؟ لذلك يخاطر الناس بأرواحهم ويبادروا في سبيل إنقاذها من الهلاك نحن كالهاربين تماماً أمام الجوع الذي يتقفانا ويطاردنا ليطوّح بنا بعيداً ويبقى وحده سيد المكان، ولم نكن نعرف إلى أين سنصل، لكن لابد من بر(الجريد) يموت من يموت ويصل من يصل، وإن تحققت أحلامنا في الوصول فذلك هو الفوز المأمول، فهل سيعقب حلم الهجرة اليوم حلم عودة في الغذ ولو بعد حين؟ تساورنا ظنون كثيرة بعضها نستسيغه ونرتاح له وبعضها الآخر يحيّرنا وينغّص علينا وبالتالي يشقينا، هناك طرقات ومسارب عديدة ومختلفة تؤدي إلى (شط الجريد) لكن أيسرها أطولها وأوعرها أقصرها ومن يخبر الصحراء جيداً يختار أفضل معاجيل الطرق ويسلكها، ولك أن تختارما يناسب وضعك منها، إلا أن البعيدة حيث الأرض معراة مكشوفة وواضحة وخالية من كمائن ومصائد اللصوص ومصائبهم لذلك فهي آمنة أكثر من غيرها ويفضلها البعض لهذا السبب، وتتقارب هذه المسالك حيناً وتتباعد أحياناً وتختفي في بطون مجاري السيول والأنهار الجافة أو تظهر على السهوب السهلة أو الوعسة وقد تشق الأوعار والعراقيب الجبلية الضيقة الشديدة ألإنحدار، حيث تكون على وشك السقوط في أية لحظة قد تخطيء القدمُ فيها موضعَها، وكأنك تمشي على حبل معلق، زلقة لدرجة أنها تؤدي بحياة الكثير من الناس، وألإبل الحراقيف إذا ما وقعت

خاصة عندما تكون واهنة مثل إبلنا الآن، فتتدحرج إلى أسفل السفح، والجمل أو الناقة اذا انكسر ساقها لايجبر عظمه ولا أمل في شفائه الا اذا عُلق كاملاً على شبكة في الهواء لمدة تصل إلى الشهروتبقى الساق المكسورة مدلاة من الشبكة، وهذا الاجراء لا يمكن لقافلة مسافرة تستعجل أمرها، لهذا وحتى يستفاد من لحمه قبل أن ينفق يُنحر في نفس اللحظة وفي ذات المكان، وتكثر الكمائن في هذه الفجاج من فرق اللصوص وقطّاع الطرق الجياع الذين خلقوا الفةً وطيدةً مع هذه الجبال الشهباء، تعودوها وخبروها ويتربصون بكل عابر بها فلا يهدأون طيلة اليوم باحثين عن مغانم وأسلاب قد تصادفهم، فلا يهادنون ولايساومون وهو الخطر الآخر الذي يهدد القوافل المهاجرة أو المسافرة للتجارة في الطرقات الوعرة هذه، خلاف التي تسلك السهول المنبسطة الواضحة المعالم، ومهما تكن شدة الاحتراس وأخذ الحيطة، فالكثير من هذه القوافل الجافلة التي تنشد الوصول إلى بر الأمان وعلى وجه السرعة تقع في قبضة قطاع الطرق هؤلاء، ويصبح أفرادها رهائناً تحت رحمتهم، فهي لا تعرف الأمان ولا تتنعم به حتى تصل إلى مقاصدها. فبينما القافلة تكابد الأوعار والإنحدارات الحادة صعوداً وهبوط، والمكان خالياً يحدث وجيبا في القلب، ويصّدى بأصوات حجارة السفح وهي تتدحرج من تحث الأقدام الدامية، واغلب الرجال منشغلين بمراقبة حركة قوائم النوق والجمال وهي تسير ببطء، ويزيل الأحجار الخطرة من طريقها، حتى يباغثهم صوتُ قاطع الطريق منبعثا من عمق مكان ما غير مرئي آمن له يكون قد تمترس فيه انتظاراً على قلق لأول ضحية يأتي بها قدرها، وتمر على مقربة منه، إلى ان إنطلق صوتٌ مجلجلٌ بلهجة آمرة :—

أتركوا الإبل وتنحوا جانباً .. وإلا طارت رؤوسكم جميعاً.

— كل واحد منكم يلقي بسلاحه أرضاً، ثم إرفعوا أياديكم عالياً وإبقوا واقفين ثابتين. ومن يأتي بأية حركة مصيره معروف .

— هيّكم، إمتثلوا للأوامر ونفذوا بسرعة ما قلناه لكم، ولا تسمحوا للشك بالتطرق إلى نفوسنا. قال صوت آخر معقباً .

واذا ما عريدوا ورفضوا ألإنصياع، أو حاول أي منهم مخادعتهم التماساً للمماطلة والتأخير، طمعاً في النجاة أو أي ردة فعل أخرى مشبوهة لاتعجبه، لايتردد في إمطارهم بوابل من رصاصه ليرديهم قتلى غير آبه بما يترتب على هذا فيما بعد من نتائج. وعندما إستبطأ إستجابتهم خاف على نفسه وعلى من معه فكرر تحذيره اليهم بأكثر قلق وصرامة هذه المرة.

— قلتُ لكم اتركوا الإبل حالاً وتنحّوا جانبا لقد عيل صبري، هذا إندار أخير وليس لدينا وقتٌ نضيعه في المهاترات معكم، لقد تم تمشيط المنطقة، ولا أمل لكم في النجدة من أحد ولا النجاة من قبضتنا. وعندما يلتفت أصحاب القافلة وهم مشدودي الأعصاب هلعين ليجدوا عددا من فوهات البنادق مصوبة تجاههم ولايظهر من أصحابها شيئا سوى ذؤابات رؤوس بعضهم.

أصبح الموت مؤكدا وليس لدى أصحاب القافلة الذين ما كان لهم أية فرصة للرد إلا الإدعان للأوامر والرضوخ للتهديد، ورفع أيديهم عاليا والبقاء واقفين ينتظرون الخطوة التالية، فيتقدم منهم مجموعة قطّاع طريق ملثمين مخفين وجوههم تماما وراء طيات لثمهم لاتظهر منها الا أعينهم، ليفتشونهم تفتيشاً دقيقاً ويجردونهم من السلاح الذي بحوزتهم ويكبلوا أياديهم برباط قوي واحداً بعد ألآخر.. وأحياناً يقتلونهم جميعا دون شفقة ثم يصادرون الإبل وماتحمل، اقتل أو تكون مقتولاً، هذه شريعة زمن المجاعة، فقاطع الطريق هو الآخر لديه

أسرة وأطفال جياع ينتظرون عودته بفارغ الصبر غانماً بما يطعمهم. وأحيانا تحدث مواجهات ساخنة بين الطرفين يلعب فيها الرصاص وعنصر المباغتة أو المراوغة فقط دور الحكم ليحسم الموقف وعلى وجه السرعة لأحد الطرفين، الإبل هي كل ما تبقىّ لديهم لأنها أكثر إحتمالاً للجوع والعطش من غيرها من الأنعام، لكنها الآن ضعيفة عجاف تبرز أضلعها من تحت جلودها ضلعة ضلعة ولا تقوى على حمل شيء، بالكاد تصل سالمة دون حمولة .. والبدوي يصعب عليه التنازل عن أملاكه بسهولة بالأخص في هذا الوقت الحرج وفي أحيان كثيرة يقاوم حتى الموت كي لايعود لأهله أو قبيلته فارغ اليدين مسلوباً مهزوما، فهذا عار ما بعده عار، ويحب نوقه بدرجة كبيرة فإذا ما مرضت ناقته يسهر على علاجها بكل ما أوتي من حيلة ويقضي ليلته ساهرا بجوارها تماما، ولا يتركها وحيدة وكأنها أحد أبنائه، ويتدبر الدواء الذي يوصف لها لتطبيبها بكل الوسائل.

قال احدهم مخاطباً بقية رفاقه :—

ان كان هذا آخر يوم لنا، نريد أن تكون لحياتنا نهاية مشرفة، تجب علينا ملاحقتهم. على عجل إنطلق اللصوص هاربين يسوقون الإبل أمامهم بأحمالها ويستحثونها على المضي إلى وجهتهم، حتى يفروا بها قبل أن تدركهم عصابة أخرى تكون أقوى منهم أو أحدٌ أوسع حيلةً ويفتكها منهم ثم يَفْتكُ بهم واحداً بعد الآخر، وما إن إبتعدوا عن العوائل المسلوبين تاركينهم، وهم يعجلون الخطى بمسافة آمنة لاتسمح بالأدية، حتى حدث أمر مفاجيء وغير متوقع البته يصعب تصديقه، إذ أرتفع من هناك صوتٌ آخر غاضب متهدج ماخطر ببال أحد من اللصوص ولا تحسّبوه، محذراً : ـ

أيها السرّاق إرفعوا أرجلكم أو قِفوا على رؤوسكم وإلا طارتْ،

تعلمون الآن أنه لامفر لكم على الإطلاق. أيقن اللصوص أنهم في ورطة حقيقية وعرفوا أن كيدهم ارتد عليهم وأن الإرتباك والتهور وعدم ضبط النفس ظاهر من كلمات التهديد التي سمعوها بوضوح، والتي صدرت من عسس القافلة الذين إنتظروا لتحيّن التوقيت والمكان المثالين لرد الهجوم واستعادة الأسلاب بنجاح آمن، تساءل أحدُ اللصوص متفاجئاً بهمس : —

من أين هبطوا هؤلاء الشياطين ؟ .

فهم أكثر من صوت. أجابه الآخر: —

وراء كل شيطانٍ، شيطانٌ رجيمٌ ! لقد فعلوا فوق ما فعلنا ! وفكروا ما بعد تفكيرنا !

— حاذرٌ إن أصابعهم على أزندة بنادقهم الآن، وأعصابهم متوترة كما تسمعهم، وفي أية لحظة قد يفقد أي منهم السيطرة على نفسه ويضغط على الزناد خاصة وانهم مغتاضون منّا ومتحاملون علينا، فلا تشاكسهم، ولا تطل معهم النقاشَ نفذْ بأكثر مما يطلبون، فنحن مهدورو الدم .

— رغم أني سمعت كل كلمة قالها لكنني لم أفهم شيئاً، لأنني أحس بارتباك شديد. جردوا اللصوص من أسلحتهم وخلعوا أحذيتهم وابقوهم حفاة وقيدوهم من أياديهم فقط واحداً بعد الآخر، وجردوهم من أسلحتهم وتركوهم مقيدين، حتى لايتمكنوا من اللحاق بهم ثانية، وتمد القافلة من جديد وقد إسترد حراسُها إبلهم من قبضة اللصوص دون نقصان، في بداية المحاولة كاد الحراسُ أن يطلقوا على اللصوص الرصاص بينما هم يحتجزون الرهائن ويوثقونهم، إلا أن خشيتهم على رفاقهم الذين كانوا قريبين منهم وحرصهم على سلامتهم جعلهم يتريثون أكثر، فصبروا حتى سنحت الفرصة عندما إبتعدوا جانباً

وهم يخبون، لكن الأخطار لا تنتهي على هذا الطريق انهم أسرى الجوع الذي يقتادهم وهم في حكم الموتى حتى يصلوا وجهتهم. حراسة القافلة مهمة تناوبية بين أعضائها، ففي كل يوم يؤدي الحراسة أربعة أو خمسة أشخاص يكونون في حالة تأهب مستمر ويسيرون على مسافة توفر لهم السلامة وتمنح القافلة الأمان ويراقبونها من البعيد في حالة يقظة قصوى وانتباه شديد. الرياح عندما تهب قوية في مواجهتنا وتعاكسنا في بعض الأيام فتعيق تقدمنا وتردنا فتسبب في تأخيرنا وهذه نتشاءم منها كثيراً، واذا ما كانت لا تواجهنا وفي نفس اتجاهنا تساعدنا نحن وإبلنا معاً على المشي بسرعة وتدفعنا في ذات الإتجاه (لهذا السبب نطلق عليها العون) وتجدهم منذ الصباح قبل الانطلاق يستعلمون عن اتجاه الرياح هل هي في عونهم أم لا، ومن الحالات الطارئة السّارة التي تصادفنا في الطريق وجود سحابة كبيرة وكثيفة ثابتة وأحياناً متحركة فنستظل بظلها الذي يلطف من درجة الحرارة لمدة تصل إلى نصف ساعة وأكثر حسب كبر السحابة ووجهتها هل هي معنا أم ضدنا حتى نتمكن من استرجاع راحتنا، ويفرح بها المسافر كثيراً ولايتمنى ان تزول حتى انهم يسمون ظلالها بالمطر الجافة. عندما ارتفعتْ عقيرة سالم من هنا بالحداء (سود المناسم عندها انتابوا) أجابه أخوه عبدالقادر من هناك في مقدمة القافلة (هم يبوا يشيلوها وهلها ما بوا)* وعندما يغني الواحد منهم يمتلىء جرأة ويزداد حماسة بشكل ملفت، ويحظى الجمل بحب كبير لديهم حتى ان عبدالقادر يقترب برأسه من راس ناقته كثيراً وكأنه يريد تقبيلها وعيناه تكاد أن تدمع تعاطفاً معها على ما تكابده من أهوال وتلاقيه من مصاعب ويناديها قائلا لها بكل ود (يا أميمة .. يا أميمة) وقد أعجبته وهي تحمل الجوع وتصارع النفوق ويعاملها

وكأنها تفهم ما يقول فيزداد أنفة وكبرياء، وهو رحيم بها فيمشي على قدميّه وتكون النوق غير محملة ولاشيء علي ظهورها، وكلما فكر في إمتطائها يشعر بالخجل من الناقة ومن نفسه معاً، ويبقى يمشي راجلا مهما شعر بالتعب فما بالك عندما تكون محملة وعلى ظهورها اثقال؟، لا يريد أن يلقي عليها بثقله ولا يطيق ان يراها متعبة به وتئن بحمله، كان لا يعترف بسواه في حسن معاملة الإبل والرفق بها، ورغم انهم رفاق في قافلة واحدة، الا ان الواحد منهم احيانا لا يلتقي بصاحبه الا في المساء عندما يجمعهم توقف المسير والركون للراحة والمبيت، ففي بقية النهار يكون كل واحد منهم منشغل بحاله ومنصرف كلية إلى ما أسند اليه من مهام، ويكون بعضهم في بداية القافلة والبعض في الوسط والبعض الآخر في نهايتها، فيصعب عليهم الإلتقاء وإضاعة الوقت فيما لايفيدهم، وقبل ان يدركهم الليلُ وكي لا تضيع منهم الطريق في الظلمة يتوقفون وينتشروا في الأنحاء ولا يبقون ململمين كي يصعب الإلتفاف عليهم، ويتعذر السطو أيضاً، ويكونوا على أبعاد مناسبة من بعضهم البعض ليوفروا الحراسة الكافية والأمان اللازم لجميع الرفاق من شيوخ ونساء وأطفال ويراقبون أبعرتهم التي يطلقونها كي تكلأ بعض الأعشاب التي أيبستها حرارة الشمس وشدة الجفاف، عمي (سليمان) أبْصَرُ انسان في الواحة بأسرها لذلك كلفوه بهذه المهمة وتنسيق واختيار كل مجموعة، اذ يستطيع رؤية أجسام وأفراد قافلة قادمة نحوهم قبل أن يراها الآخرون قاطبة من رفاقه الا بعد زمن طويل حيث تقترب أكثر منهم وتتضح، ويساعده على ذلك نصوع الصحراء وجلائها خاصة في ذروة التوهج عند الظهيرة، في البداية لم يصدق رفاقه قوة حدة بصره الخارقة هذه، وهم الذين لايتمكنون بعد محاولات عديدة من رؤية اي شيء، ويندفعون إلى

تكذيبه علانية، فيرد عليهم بهدوء ـ إنتظروا المزيد من الوقت وسوف تتأكدون بأنفسكم عندما ترونها قادمة نحونا بأعينكم مثلما أراها وأصفها لكم أنا الآن، إلى ان تأكدوا أخيراً بفعل تكرار التجربة من انه أبصر منهم جميعاً بالفعل، واعترفوا له بهذه الهبة النادرة، وعمي (سليمان) هذا لا تحس يوماً بانه ينام، فهو دائماً يقظاً، أو ينام وهو يمشي كما لاحظه بعضهم عليه وربما يكتفي بساعة او ساعتين فقط من النوم، ويكون بعدها في أشد حالات نشاطه.

3 في الطريق إلى الجريد

بعد أن تركوا الجوع وراءهـم أصبح العطش أمامهم ينتظرهم بتهديده، خاصة وإنهم لا يخبرون بدرجة كافية أماكن المناهل وآبار المياه السرية منها والمعروف، وما يوقعه هذا في نفوسهم من بلبال وخوف رغم أن الصحراء ـ وحتى لا تحل بهم لعنتها وهي العطش ـ علمتهم حكمتها الذهبية في واحدة من مهارات البقاء، وهي ألا يسكب الواحد منهم ماءَه ولو كان يقف على فوهة البئر ويرى الماء بأم عينه في قعره أو تظهر له صورة وجهه على سطح الماء، إذ قد يحول حائل غير متوقع دون بلوغه كأن لا يجد حبلاً أو دلواً ولايتمكن من الوصول اليه وعندها يموت ظامئاً أو يشربَه الماءُ تحت الرمال العطشى كأي غريق. أغلى شيء حقاً في الحياة بلا ثمن هما :—

الهواء ثم الماء، وليس ما بين الأكسجين والماء من حيت الأهمية الا ساعات محدودة، وأنفس شيء باطلاً هو الذي لا يحتاج اليه الكائن الحي في الحياة! وقد لا يراه الإنسان بعينه طيلة عمره ألا وهو الجواهر والمعادن الثمينة، هنا الحقيقة مقلوبة في أبسط معانيها ومظاهرها، الماء أطيب الطيبات جميعاً خاصة عندما يشربه المرء بعد العطش مباشرة رغم انه لا لون له ولا طعم ولا رائحة، الإرتواء ألذ من الشبع بكثير. عادة ما يتوه بعضهم ولو على مسافة قصيرة بين واحتين لا يفصل بينهما سوى عشرين كيلومتر ليموت وحيداً ظمآناً، وذلك بسبب شدة العطش التي تفقد الإنسان التركيز، امام الظمآن تتسع الصحراء وتختلط السبل وتضيق النفس بالصبر، فيقتفي

أثره من يأتي بعده باحثاً عنه ويعثر عليه ميتاً، فيباشر في تفسير بعض تصرفاته التي توحي بها الآثار وأقدم عليها بينما هو في الرمق الأخير قبل أن يموت وتحليلها خطوة خطوة، ويستنتجون كيف فكر وكيف تصرف وماذا حاول أن يفعل لإنقاذ نفسه من الموت أثناء هذه اللحظات الحرجة، خاصة إن بقيت آثاره مرسومة على الرمال ولم تمحها الرياح، ثم في النهاية يتعرفون على كيفية إستسلامه للموت ! أحياناً يموت وهو على مقربة من مورد ماء يعرفه جيداً في السابق لكنه الآن بعد ان اصبح مشتت الدهن مرتبكاً قد نسي مكانه وتاه عنه، حيث تستدرجهم الصحراء للإختلاء بهم والإستحواذ عليهم في ربوع العطش. فتجاربهم المؤسفة مع العطش وما فعله فيهم وفي أسلافهم في السابق لا تفارق تفكيرهم أبداً لذلك يتناقلونها جيل عن جيل كدروس مستفادة ويتحذرون منه ونادرا ما يقعون في إغواء الفضاء والرحابة. وعلى الإنسان تعلّم الإحتمال والتجلّد أولاً وقبل بدء السفر في الصحراء وهذه إحدى فوائد الصوم الذي لا ينقطعون عنه طويلاً فالصّوّام لا يموت سريعاً من الساعات الأولى لعطشه كالبقية التي لا تصوم، وبعض الآباء يعودون أبناءهم على الصبر منذ الصغر لمواجهة الطواريء التي يتوقعون حدوثها. الطريق تتمدد وتطول بشكل واضح أمامنا، ويلاحظونه جميعا ويحسون به، إذ المسافة أطول مما تبدو وأكثر مما ساروا، ومهما قطعوا من مسافات تبقى ثابتة وكأنهم يراوحون في أمكنتهم أو هكذا تسوّل لهم أنفسهم المحبطة المتشائمة، يشعرون بالراحة عندما يهبطون مع منحدر ويجدون فيه العون والسند بينما العكس اذا كانوا يصعدون هذا المنحدر، بعضهم يحدو القافلة بحُداء مفاده (كلما رسمتْ عيناي خطَ أفقٍ محته قدماي) وخطوط الأفق هذه لا تنتهي، أو يفاخر بنفسه : — نحن أسياد الرمل

والمسافات ! لرفع معنويات الرفاق، أغلب أفراد القافلة كانوا حفاة لا ينتعلون أحذية، بل ان بعضهم يرتدي فردة حذاء واحدة وقدمه الأخرى حافية، واحيانا يُعِير بعضهم البعض مداسه اذا كان هذا الأخير أحوجَ اليها من صاحبها ويعاني من آلام الحفاء فأغلب الأحذية كانت مداسات بسيطة الصنع من جلود الإبل المتينة، وهم شبه عراة يلبسون أسمالاً بائدة لا تقي من حر ولا من برد لكنها تسترهم فقط وهذا المهم لإنسان الصحراء، انهم يعولون كثيراً على الايثار ولولاه ما يستطيعوا التغلب على عبور الصحراء على ظهر الجفاف والكفاف. فالإنسان هنا في هذه الوضعية أقرب ما يكون إلى الطبيعة الحقيقية. والوصول أمر غامض وبعيد المنال، ويلمسون ذلك بضعف الأرواح حتى أضحى يقينا يرفض التشكيك، فكل شيء يسير بما لاتشتهي الأنفس، والمسافات أطول مما تبدو فهل نحن نطوي الأرض أم أن الأرض ستطوينا قبل أن نصل؟ هذا السؤال الذي يتردد بين جنباتهم جميعاً ما إمتد الطريق وإستمرت الرحلة. في أعقاب النهار وقبل ان يداهمهم الليل يحددون مكان مبيتهم يختارونه بانتباه وحرص بعد التشاور، وليس أي مكان فيجب ان يتوفر فيه الأمن والراحة، حيث يلقون بأحمال إبلهم البسيطة والخفيفة ثم يطلقونها حرة لتسرح وتستريح، ويهيئون مراقدهم ومطارح استلقائهم، ويرقبون الشمس في النهار وهي تمشي وتجيء في رحلتها الأبدية المتكررة كبندول الدهر، وفي الختام ترتكز فوق كتف الجبل بالضبط وتستعد للإنزلاق وراء ظهره لتحوّل الأفق إلى فرن ضخم يتوهج بنيران صفراء حمراء لكنها تفلق فجراً جديداً في مكان آخر على وجه الأرض فالشمس في اللحظة التي تموت فيها هنا تُبعث من جديد في اشراقة أخرى بمكان آخر مقابل، يكون ناسه أكثر تفاؤلاً وإقبالاً على نهارهم الجديد،

قائلة لكل واحد منهم ـ صباح الخير يا أخي إنهض وكن مشتعلاً مثلي، وبعد ان اختفت تماما من السماء وإنّهَارَ الظل واصلت سَحّبَ ذيلها الأحمر الارجواني من افق المساء رويدا رويدا، ويختفي معه ما تبقى من ضؤ النهار إلى ان يزول تماماً إذ تنهمر الظلمة فجأة دون أن يحسون بها إلى أن يجدوا الليل قد غمر المكان بأسره وتهبط معه درجة الحرارة، ويباتون طوال الليل يفسّرون الظلمة إذ يساورهم شعور بالخوف من المجهول، فلا يعرف تحديداً من اين يأتي الخطر، كل الجهات محتملة، اعتادوا غريزياً بحكم الظروف التي يعيشونها على إستعمال حاستي السمع والبصر بشكل دائم حتى أضحتا عفوياً قويتين وأشد حساسية من غيرها من بقية الحواس وفي مثل هذه الحالات يستحيل على الأذن غير المدربة سماع ما يقع ولا العين غير المرنة رؤية ما يحدث، فما أن يحدث صوت خفيض في الليل حتى تلتقطه آذانهم أو يتحرك في الأفق القريب أي شيء حتى يقع نظرهم عليه دون جهد يذكر في وقت اسرع رغم الظلمة الحالكة .. فمنذ ذلك اليوم الذي هددهم فيه اللصوص لم يهنأوا في نومهم ولم يغفلوا في يقظتهم، الرجال الحقيقيون لا ينامون الرجال يرتاحون فقط، هكذا تقول الحكمة الموروثة فالنوم فاكهة الكسالى هذا ما إعتادوا معرفته عن آبائهم وأجدادهم، ويبقون دائماً على حذر وتوقع، لاتتخلى عن حذرك مهما شعرت بالأمان فهو أمان خادع وإلا ستندم لاحقاً. تبدأ نوبة الليل بالنسبة للعسس ويأسرهم الليل في ظلمته المطبقة ويحد من خطوهم ويركنون إلى مكان آمن ويبقون يتدبرون أمرهم في انتظار الصباح حيث يفرج عنهم ويسمح لهم بمواصلة الرحيل، الليل سجن جدرانه الظلمة، الكثير من الرفاق نساء ورجال ينصرفون لمداواة أقدامهم الحافية التي كثرت بها الجروح المتورمة والمتقيحة نتيجة

اصطدامها بحجارة الطريق أثناء المسير أو تنغرز احياناً فيها الأعواد الجافة الصلبة، حيث يطببونها بدهانات عصارة بعض الأعشاب البرية التي لازالت محتفظة باخضرارها مثل الرمث والرتم والشيح فتساعد على جفاف الجروح وبالتالي يسرّع من برئها، وأيضاً جمع ما يتحصلون عليه من حطب لإشعال النار حتى لو لم يكن لديهم ما يطهون من طعام، فايقاد النار عادة يحاول من خلالها المسافر أن يفتعل فرحاً غير مكتمل، حيث تسنو ألسنة لهبها وتنتصب أعمدة الأدخنة من مواقد النيران المتعدده لتطاول السماء، عندما يكون الجو هادئاً ولا توجد رياح تشتتها لتكوّن سحابة واحده تتلاشى ببطء، أمر صعب ان تشعل النار من الحطب الاخضر او المبلل، النساء المرضعات يُولونهن بالمزيد من الطعام عن بقية النساء، واحيانا بعض الرجال يمنح زوجته أو اخته ويقاسمها نصيبه من الأكل ان كانت مرضعاً ويبقى جائعاً معتبرها أحوج اليه منه حتى تتمكن من مقاومة انهيار صحتها، يتكففون القوت إلى الحدود الدنيا فالغذاء الرئيسي حبات قليلة من ثمر النخيل ولا تتأتى للجميع اذ قد يمر يوم كامل ولا يتناول فيه الشخص الا الماء واحيانا يجمعون القليل من الدقيق غير المنخول حتى لا ينقص منه شيئاً ليصنعوا ارغفة صغيرة وسريعة من الخبز الحاف وتكون خبزة الملة اذا كان المكان رملي والتي عادة ما يعلق بها الرماد وبقايا فتات الفحم، واذا ارادوا خبزة نظيفة يصنعوا أفراناً بالحجارة اللوحية الصلده يتم البحث عنها واختيارها من المكان وتثبت عمودياً في حفرة اسطوانية ويحدث هذا في الأسبوع الواحد مرة واحدة أو مرتين على الأكثر، وبعد عجن العجين تقوم النسوة بلصق أقراص العجين غير المختمر بصفائح الحجارة الساخنة بعد احماء الفرن بايقاد النار فيه بواسطة الحطب، وعندما تنضج بلمسة بسيطة

يسقط الرغيف الساخن منفصلاً عن اللوح في اليد، والذي تفوح رائحته مباشرة وتملأ المكان وتجذب الناس الجوعى ويتقاسمونها بدقة متناهية ورائحة الخبز بالنسبة للجائع كأنه تناولها!، وتكون شقفة الخبز الصغيرة هذه أول لقمة تدخل جوف الواحد منهم في اليوم، وشقفة الخبز هذه أو حبة التمر تمشّي آكلها نصف نهار.. نسوا أشياء ليست ضرورية بعد أن يئسوا من الحصول عليها وما عادوا يحفلون بتناولها ولا يفكرون فيها بتاتاً لعدم توفرها وعدم اهميتها كشرب الشاى مثلاً. من سيحررنا من الظلام، فالظلام رفيق النوم وجالب له، الليل في الصحارى كالموت تماماً لا تسمع فيه لاغية سوى صرير اسنان الإبل البوارك المنتشرة في الجوار، وهي تمضغ ما تجتره، وعندما تسترق السمع للتأكد من وجود اصوات أخرى فلا تسمع شيئاً الا طقطقة النيران وهي تلتهم الحطب، فالجفاف أبقى الحطب جاهزاً للجمع والإيقاد في كل الأوقات، يختبيء أكثر الرفاق بحثاً عما يملأ فمه بين بعض الشجيرات الباقية على إخضرار أو وراء الصخور في بطون الأودية والشعاب بعد تفقد المكان والتأكد من خلوه من المخاطر كالعقارب والأفاعي العالية السميّة، في انتظار خروج بعض المخلوقات الليلية الصغيرة الغافلة مثل الأرانب واليرابيع وغيرها من مكامنها النهارية في رحلة البحث عن غذائها ويبقى الشخص لابدأ في سكون دون حراك على انتظار، إلى ان تقترب منه وتصبح في متناول يديه وهي تستشعر الأشياء في حذر فينقض عليها ويصطادها بيسر، الانسان ينصبُ نفسه ويتحوّل إلى مصيدة، ومنهم من يعد وينصب لها فخاخه منذ المساء، ويتفقدها فجراً قبل متابعة التحرك ليرى ما اذا علق بها صيد أم لا.

العم سليمان يتابع خطوات عمل أحد الرفاق الذي انتهز الفرصة

الآن حيث لا يمكنه ذلك أثناء النهار لضيق الوقت وإنشغاله بأمور أهم وهو يجلس على مقربة من النار ويقوّم عصاه الجديدة التي لازالت خضراء طرية لم تجف بعد بتسخينها على حرارة النار التي تشتعل وتتوهج امامه الآن واحيانا يلوي طرفها الغليظ بحجم الكف ليصنع منها عكازا، حتى تجف وتأخذ وضعها المطلوب وإستقامة الجزء الباقي ويغلي الماء بداخلها ويصدر صوت طشيش كطشيش التقلية مفرزاً رغوة بيضاء على طرفيها عند مكان القص، كان يلقم النار بالحطب كلما لاحظ أنها تخبو لترتفع السنة النيران من جديد وتضيء المكان أكثر، وتحاول أن تتسلق عالياً للحاق بدخانها المتصاعد إلى السماء، رفيقٌ آخر يجلس متطرفاً فبعد أن رقّع حذاءه يحاول انتزاع شوكة من أشواك الطريق من قدمه بواسطة ملقط والتي كانت تؤلمه طوال ما هو يمشي على إمتداد النهار وثالث يعالج فقاعة قد نشأت في باطن قدمه بفعل الحفاء، جلهم يبقوا يقظين ليمدوا الأطفال والنساء بالأمان كي يناموا جيداً في الليل دون أن يفزعوا. والبقية جالسين يقضّون مضجع الليل ويقشّرونه لحظة بلحظة منتظرين بزوغ الفجر وقبل ان يولد الفجر بقليل ينهض البقية من النوم لإستقبال يوم سفر جديد يكون مليئاً بالمفاجآت والوقائع السارة منها والمحزنه، من الرفاق من وافته المنية بعد معاناة قبل الوصول يُجهز له قبر ويقومون بدفنه فالبقاء للأصح والأسلم، ويستأنفوا المسير دون إبطاء أو تراخٍ وذلك كسباً للوقت وكي يستفيدوا من ساعات الصباح المنعشة، الرجل ابن الحياة يستيقظ قبل شروق الشمس فإن طلعت الشمس وهو نائم فالموت أفضل له. والعيش الحُر في هذه المفازات عزلة تامة ومنفى إختياري وعن رضا كامل لدى البعض من الناس لأنهم يجدون فيه متعة الإختلاء النادرة مع النفس ومحاورتها بنقاء وتفاهم ويلاقون الشعور

التام بالحرية، فإذا ما تُركتْ الصحراء وهجرها ألإنسان الذي كان يعمّرها وتملأها أنفاسه وخطاه، ستتحين ألأقوام الخفية الشفافة التي لا نراها من الجان الفرصة وتستوطنها بدلاً منه مثلها مثل البيوت والمنازل غير المأهولة التي هي الأخرى إذا ما هُجِرَتْ وتركها أهلها يحتلها الجان فتُسمع فيها بوضوح أصوات وحركات مجهولة حتى ليكاد الواحد منهم عندما يتضايق من وجودك أثناء زيارتها أن يدفعك بيديه دون ان تراه لإخراجك قسراً ويطردك من مستعمرته إن كنت لم تفهم بعد ولم تُجْدِ معك الطرق السلمية، وبالتالي ستدود عنها بكل حيلة إذا ما حاول أي منّا نحن ألأنسيين إرتيادها ومحاولة العودة اليها مجدداً من بعده، فهم أحد أمرين إما لا يعرفون الخوف إطلاقاً أو يدركون أن الأنسي يرتعب ويتحاشى الإقتراب منهم ويستغلون هذه الخاصية في ترويعه. حتى وإن لم نلاحظ وجودهم ولا يظهرون مباشرة لنا إلا عندما يرغبون في الظهور لغرض ما يهمهم، أننا نشعر بأنها محتلة من قبل أقوام أخرى يتطاولون بين ربوعها، فقدنا ثقتنا بالصحراء فهي مسرح المتاهة قد تغرر بك وتستدرجك اليها إلى ان تجد نفسك محاصراً بالموت من كل الجهات، وهي التي يُعتقد في الوقت الحاضر أنها مهد الإنسان الأول فهل تتكرتْ لخلفه الآن ؟.. وبينما بعض العسس يتسلون بسرد حكايات بعضهم إلى بعض لتمضية الليل الطويل روى لهم العم سليمان حادثة وقعت له فيما مضى، والعم سليمان يفاخر امام الجميع بأنه لا يخشى الغيلان على الاطلاق، لأنه أصلاً لا يؤمن بوجودها ويصر على ذلك ولم يسبق له ان صدق بالحكايا التي يعيدها بعضهم من التقائهم بالسعليات ومغامراتهم معها فهو يرى ان هذه الخيالات يصنعها الخوف وحده عندما يداهم الانسان في كل الاوقات ولا يتم هذا الا اذا كان وحيداً

لهذا لا يتخيلها الا الجبناء فقط، قلنا ان العم سليمان يحب التحدث كثيراً، ولا يتوقف عن الكلام فما دمت برفقته لاينتابك الضجر اطلاقاً وانت تستمع لحكاياته، ما ان ينتهي من واحدة حتى يشرع في سرد أخرى دون كلل، وتكون افضل من الاولى وأشوق، اكثرها من صميم تجاربه الشخصية وقد عايشها بنفسه فعلاً لحظة بلحظة، والبعض منها نقلها عن ابيه الذي كان حريصاً على تلقينه خلاصة تجاربه في حياته كي يعتبر منها، وهي تجارب واسعة وغنية وخاصة فيما يتعلق بالأسفار وما لاقاه فيها من مشقة ومعاناة، يحدثهم وهو يستمتع بما يروي لهم ربما أكثر من إستمتاع سامعيه انفسهم، من النادر ان يكرر الحكاية الواحدة ولا يحبذ ذلك، له مخزون هائل من الحكايا، وكلما قال قائل : ها قد أكمل اليوم عمي سليمان قصصه، فمن أين له بعده بالمزيد؟ نجده قد فاجأ الجميع بباقة من القصص الجديدة غير المعروفة لهم، انه بحق الذاكرة الحية للواحة، لا ينضب ولا يمل التحدث ولا يتعب له لسان، وبالأخص المثمر والمفيد فقال لهم :-

ذات مرة طالت غيبتي في البراري وحيداً في مهمة البحث عن قطيع إبلي الهميل، ولم أرى أنسيّاً على إمتداد شهر كامل - وفي مثل هذه الحالات من العزلة المطلقة يتحول الإنسان إلى كائن آخر يعتاد الهجران والتوحّد ويقل إهتمامه باستعمال اللغة فلا يتكلم كثيراً ويعيش في صمته حتى ليكاد ينسى الكلام، والإنسان عندما يقل كلامه إلى الحدود الدنيا من النطق ينشط عقله، ويكاد يتحول إلى قديس تنهال عليه الأفكار والرؤى دونما توقف، وكأنه في حالة تعبّد مستديمه، وعندما تنصت بإنتباه فالصحراء المكان الوحيد الذي تشعر فيه بأن للصمت الذي ينمو حولك صدىً كالطنين المنخفض المتواصل، هناك من يفسره عند القيلولة حيت يعلو ويصبح واضحاً .

بأنه صوت تمدد الصخور وتفتتها بفعل الحرارة الشديدة، وأنا من ذلك النوع من الناس الذي يفضل ان يقضي أوقات حياته في هذا المنفى الإختياري ويجد فيه سلواه - وبينما كنتُ جالساً في وجوم بقفرٍ على إحدى الكثبان وسط بحر مغلق من الرمال النقح المترامية، وقد رسمت الرياح عجاريز على صفحات هذه الكثبان وكأنها حُمر وحشية باركة، وبجانبي موقد النار أحضّر كوبًا من الشاى — الذي أستمتع كثيراً باعداده وتناول أكوابه الثلاثة على السواء، حتى لطم خدي كفٌ لم أره تلفّت حولي في فزع باحثاً في كل إتجاه عمن تسلل دون ان أراه وتجرأ بهذه الوقاحة على هذه الفعلة المهينة، فلم أجد أي مخلوق بجواري قد أتخانق معه، ولم أعثر له على أي أثر فهل أنا في توهم حسيّ، هذا ما وقع لي بالضبط، ولكن لا صدى بلا صوت، وبينما أنا على هذه الحالة من الذهول نهضتّ في ذاكرتي ذكرى حادثة مشابهة كتداعي مع الموقف قد وقعت لي في الماضي نبهتني إلى حقيقة ما حدث لي منذ لحظة، حينها إذ بينما أنا نائم وحدي في البيت أثناء الساعات الأولى من الليل وفي سكون تام حتى أحسست بباب الغرفة ينفرج وسمعت صريراً بطيئاً له بوضوح نهضتُ من مكاني لأتأكد مما حدث وكيف وقع هذا فلم أعثر على شيء ولا وجود لتيار هواء قد يكون دفع الباب، وعدت أدراجي إلى مرقدي وفي شيء من الشك وعند اللحظة التي كاد أن يأخذني فيها النوم ثانيةً حتى فُتح الباب من جديد بنفس الطريقة السابقة، إذن الأمر وراءه فاعل حقيقي وليس أمراً طبيعياً، من يكون ياترى؟ فإستيقظتُ فزعاً هذه المرة أكثر من سابقتها، وقفلت الباب للمرة الثالثة وتكرر نفس الموقف عندها أيقنت أن نفراً من الجان عرفتّ انني وحيداً ولشعورها بالملل تريد ان تشاكسني وأن تتلاعب معي وتلهو بي هذه الليلة وربما

هم الآن يتفرجون عليّ ويضحكون مني ويتندرون بحالتي، تركت لهم البابَ مفتوحاً لتفعل به ما تشاء وعدت إلى مرقدي وعم السكون وعلى ما يبدو أنهم فضلوا الإنسحاب وتركوني وشأني.

أدركتُ وأنا على كثيب الرمل أن أحد الجان أراد أن يحذرني أو ينبهني إلى خطأ قد وقع مني دون قصد، أو ربما يمازحني وهم من عادتهم ذلك كما يُحكىَ عن وقائع مشابهة لهذا الموقف قد حدثت لآخرين، فالوحدة حياة أخرى نعيشها مع أقوام مجهولة.. فقد أكون أوقدت ناري هذه التي عليها براد الشاي يغلي الآن بجانبي، في إحدى منازل الجان أو ملاعبهم أو طرقهم، وقد أكون آذيت أحدهم أو أحد أبنائهم، فهم أقوام سريعو الإنتقام وردات فعلهم تأتي مباشرة دون إبطاء، وفي الغالب حمقاء، اشعر بأنها اذا ما غضبتْ مني سأدفع ثمناً باهضاً من أجل كوبٍ من الشاي، فآثرتُ السلام ومهادنتهم وما كان مني إلا أن حملتُ عدة الشاي وإنتقلت مبتعداً إلى مكان آخر أكثر أماناً، وضعت قبضة من العيدان الرقيقة المكسرة فوق الجمرات التي نقلتها إلى المكان الجديد بمبعد عن الموقد الأول، لغرض اشعال نار أخرى، ثم انكفأت عليها وبدأت انفخ بتواصل حتى شبت النار في العيدان، ثم وضعت عليها المزيد من الحطب إلى أن تحولت إلى جحيم، بعد إخماد النار الأولى باهالة الرمل فوقها، اننا نفضل عدم الإحتكاك بالجان او إغضابهم قدر المستطاع حتى نتقى انتقامهم، وأكملتُ إعداد الشاى دون خوف، لأفعل الآن ما يطيب لي ما دمتُ في مأمن، من يدري بي في هذا الخلاء لو وقع لي مكروه؟، وأخذتُ أرقص أنا والملائكة على الرمل، أقفز في الهواء وأدور عالياً حول نفسي أتهادى يمنة ويسرة دون تبصّر، وخطر لي أن أبسط ذراعيّ جانباً كالجناحين مقلداً الطيور الجارحة في عنان السماء، وأحجل

على قدم واحدة ثم أترنح وأفقد توازني وإن وقعتُ تستلمني الرمال الناعمة الرحيمة بكل رفق ودون ضرر مستمتعاً باثارة حنق وإغاظة أولئك الجان الذين حاولوا مشاكستي وربما التنغيص عليّ بعد أن إبتعدت عنهم وتركت لهم حرماتهم. ضحك العسس، بينما تساءل مسعود متعجباً بعد ان أكمل ضحكته :ـ

من اين تأتيك هذه الرغبة الشديدة في الكلام يا عمي سليمان ؟ انت تختصر لنا جزءً كبيراً من المسافة بحكاياتك هذه عندما نكون على الطريق!

السماء الوسطى

4 في الطريق إلى الجريد

(4) إحدى النساء المرضعات فقدت السيطرة على نفسها وخارت قواها من شدة الجوع والقلق معاً على رضيعها، فقد علا شفتيها بياض الجفاف والعطش، وثقل حمله عليها، شعرتْ بصعوبة في الحفاظ على معدل سرعتها التي بدأت تتناقص شيئا فشيئاً بشكل ملحوظ حتى أضحتْ أبطأ من سلحفاة ضريرة، وتتخلف من حين لآخر عن مجاراة الإيقاع السريع بالنسبة لسير القافلة، خطواتها مشتته، فقد بلغ منها التعب والإجهاد مبلغاً، وأخدت قواها تخور وتتردى فالجوع والتعب متلازمين، مما حفزها على المزيد من الإحتمال عندما رأت البعض منهم يغالب ضعفه ويتنافس مع غيره للحفاظ على بقايا الحماسة المتلاشية، خاصة وأنها تحمل طفلها الرضيع بين ذراعيها تارة وتضمه إلى صدرها أو تعلقه على ظهرها كحقائب المتجولين في قلق بعد أن لفّته بالأقمطة التي تحفظه من السقوط تارة أخرى .. هي تغيّر حمله من وضع لآخر وتبدله من ذراع إلى ذراع كي تتحايل على قدرتها على التحمل، لكن الجوع أودى بقواها وأوهنها ولم تجد ما ترضع به طفلها فقد جف ثدياها تماما من الحليب ولم يتبقى لديها ما تأكله حتى تدر من جديد ولو جرعات قليلة. الجوع يقرص أمعاء الوليد الصغير الذي يصرخ بلوعة دون توقف وصراخ الرضيع بدوره يقرص قلب الأم المسكينة مما ضاعف من قلقها وفشلها وبث الوهن والهزال في أوصالها، وبالتالي خضعت لحالة نفسية متردية من اليأس والإحباط بسبب شبح الموت الذي يلوح على مقربة منها،

الطفل بدأ يتهالك ويفقد الكثير من حيويته بشكل ملحوظ وفجائي، وهي العاجزة التي ما بيدها حيلة تقدمها لإنقاذه من الجفاف الذي يهدده بعد ان إستشرى في جسده حتى تراخى جلده وإصفرّ لونه بوضوح وعلته تجاعيد صغيرة واذا امسكته بين السبابة والابهام ثم تركته لا يعود مثلما كان بل يبقى ناتئا، وبدأ يداهمه فقدان الوعي المتقطع والمريب، وأصبحت تخشى على الطفل من الموت الذي نلمس إقترابه بيقين، كان الموقف محبطاً للغاية وأخذت تتنازعها ارادتان، أو قل هي مساومات مرّه ونذلة تبدو فيها أمام نفسها أنها الطرف الأضعف والمحبط، إما أن تتخلى عن طفلها الذي أصبح يثقل كاهلها ولا تقوى على حمله المزيد من المسافة، خاصة وأن مسألة بقائه حياً شبه مستحيلة وبذلك تنقذ نفسها المهددة بالموت أيضا، وإما تتمسك به وتبقى إلى جواره ويموت الاثنان معاً، وهي لا تعرف في نهاية المطاف أي الشعورين يكون أقوى ويتغلب على الآخر؟...أو قد تحدث معجزه لا تخطر على البال ولاتعرف مداها لتخلصها مما هي فيه من اوحال، لكن الاحتمال الارجح والمسيطرعلى ذهنها - إذا ما تخلت عنه - هو أن تلتهمه الضواري الجائعة النهمة التي تجوب المنطقة وتهاجم القوافل دون خوف أو تردد، لقد وقعت تحت امتحان صعب ومساومة قاسية، وأخذت تستبد بها الهواجس وتتقاسمها الاختيارات المحيَرة وغير المضمونة وتذهب بها بعيداً وتقترب، ومع ذلك لازالت تأمل في مواصلة السير والمكابدة رغم تخلفها عن الركب ما بين الفينة والأخرى، وليس في وسع القافلة التوقف وإنتظارها حتى تستعيد قواها أو قد تنقسم القافلة أو تتقطع إلى جزئين، جزء ينتظر والآخر يواصل المسير لكن هذا لايوفر الحماية والأمن اللازمين، وفي مثل هذه الظروف لا قيمة لشيء وقد تنتهي القافلة كاملة ويقضي عليها

الموت، فجأة التفتَ زوجها الذي لاتطول غفلته ولا ينقطع تفكيره باحثاً عنها بعد أن أحس غريزياً بافتقادها، فلم يجد لها أثراً فعاد مسرعا إلى الوراء ويتفقد الأمكنة ليعثر عليها جالسة فوق صخرة بعد أن بلغت أعلى درجات الصبر والتجلد وهي تبكي وتخادع الرضيع الجائع كي يلهو ويكف عن الصراخ الذي يتحول إلى أنين واهن فيؤلم قلبها كثيراً ولم تعد تحتمل سماعه، ولامشاهدة وليدها وهو يتضوّر جوعا ويتلاشى ما بين ذراعيها ولايسعها فعل شيء يفيده. أضحى الطفل خفيفاً ولمست ذلك بوضوح، بادرها الزوج بالقول مباشرة :ـ

إستجمعي قواك وأنهضي، أجابته :ـ لا قوىً لدي أصلاً حتى أستجمعها. أجبرت نفسها على القيام، إذ أعانها الزوج من جديد حيث بذل قصارى جهده من أجل دعمها على القيام فأسندها كي تقف طالبا منها أن تغالب نفسها وتتجلد أكثر لمواصلة السير واللحاق بالقافلة التي تباعدت عنهم لمسافة طويلة، فالأمر ليس هيناً إذ المخاطر تهدد جميع أفراد القافلة من فقد قواه ومن لايزال يحتفظ ببعض منها وهم الذين ترافقوا كي يساعد بعضهم بعضا ما أمكنه ذلك، حتى يتجاوزوا المحنة في هذه التغريبة الشاقة والمضنية، أوضاعهم الصحية متقاربة في السؤ، جميعهم ليس لديهم طعام يكفي، وعليهم أن يقتصدوا إلى أدنى الحدود حتى يوفروا للأيام الشاقة الباقية ما يسد الرمق ويسعفهم حتى الوصول قبل أن ينفد كل مالديهم، ماهي الا خطوات قليلة حتى تعثرت من جديد والتوت ساقاها لتسقط ارضاً كالسمكة العطشى نهضت من السقطة الأولى ولكن عند السقطة الثانية وجدت ان النهوض مستحيلاً فاستكانت للجلوس وبقيت على حالها تمد ساقيها الهزيلين، وعاود الزوج دعمها وأنهضها من جديد ليخفف عنها، حاثا إياها على المقاومة والتجلد

شارحا لها في توسل وإدعان أن الوقت لايسمح بالتباطؤ والمزيد من التراخي، وانهم مقبلون في القريب على ظروف أصعب وأشد مما هم فيه الآن، فقالت له حكمتها التي إهتدت اليها في التو: —

(الصبر لا يكون فوق القدرة)، شعر بشيء من المرارة والحنق وهو يشفق عليهما ويعيش أيضاً لحظات اليأس القاتمة هذه حتى تكاد أن توقف قلبه عن النبض، ويقف عاجزاً أمامها دون القدرة على ابداء أي عون أو مساعدة لانقاذ زوجته وإبنه، فهل يبقى جالساً مع زوجته وطفله ينتظر النهاية ويستعجل الموت، وفي الحقيقة هي أول من يحس بذلك ويدركه لكن ما باليد حيلة فلا قدرة لها على فعل شيء، أخذها من ذراعها ليعينها على النهوض مرة أخرى والوقوف ويسندها كي تمشي فوجد انه لا فائدة من ذلك، حركتها واهنة وبطيئة وسرعان ما تتهالك من جديد، وأصبح مرتبكا ماذا عليه أن يفعل ؟

القافلة لا يمكنها أن تنتظر شخصاً واحداً وتضحي بحياة البقية، وقفتْ تترنح وقد خطرت ببالها مقولة كثيراً ماسمعتها من أناس محنكين أهلُ محك وتجربة مفادها : —

إن تحايلت على أقدامك الحافية وأوهمتَ نفسك بأنك ممدس ستصل إلى مكانك ولومع الكثير من التعب والعناء، أما إذا حاولت التحايل على معدتك وأوهمتها بأنك شبعان وفي حقيقة الحال أنت جائع، لن تصل فالجوع غير الحفاء، كل ما يمكن فعله انتظار الموت، أو يأكل الثراب، ولكن أيأكل الإنسان لحم أمه ؟

وبدأت تبديل خطواتها بعد أن حمل عنها الطفل واستمرت في المسير وهو يجلد بطات ساقيها بأغصان شجرة رتم رقيقة جلدات خفيفة محاولاً أن يجدد نشاطها ويشعرها بالحماس، لعلها تتقاوى وتشحذ همتها ويدب اليسير من الحيوية في أطرافها لتخف رجليها

ولتواصل المسير، فالقليل من الألم يصحصح الإنسان أحيانا، القلق يتزايد والصبر ينفد والعزم يلين، وبعد أن بلغ منها الوهن ونال منها التعب خشيت لو استمر هذا التناقص في قواها أن يؤدي بها إلى العجز التام حتى عن حمل نفسها وتضاربت الخيارات لديها ووصلت إلى طريق مسدود، ورأت أنها ستضيع لا محالة هي ورضيعها معاً اذا ما بقيت على هذا التردد، لقد وصلت إلى اللحظة الفارقة التي لابد منها، اللحظة التي تملكها فيها اليأس تماماً وأدعنت له، وعيونها شاخصة إلى السماء حسمت أمرها بأن قمعت عاطفة الأمومة لديها رغماً عنها، وقررت التخلي عن طفلها حياً وتسلّم بمصيره وتستأنف الرحلة مع الرفاق إن تمكنت من ذلك، وربما هو ميت الآن حيث الجفاف بلغ درجة أفقدته وعيه في مرات كثيرة سابقة وتراخت اطرافه وعنقه واصبح رأسه يتدلى، وبدا لها وكأنه قد فارق الحياة، شقت له من لحافها قطعة قماش تكفي لتلفه بها ككفن، وتضرعت إلى الله طالبة :-

اللهم إجعل هذا اللحاف البسيط القصير كصندوق النبي موسى الذي حفظه من الغرق في الماء عندما كان رضيعاً وأودَعَته أمه في النهر، أن يحفظ ابني من العطش وبالتالي من الموت. في هذه اللحظة التي قررت فيها التخلي عنه للموت المحقق. وبينما هي تهم بتجهيزه، ومن ثم وضعه في المكان الذي تختاره خشية وأده، تذكرتْ كلمات تلك العرّافة التي زارتها في بيتها ذات صباح، والتي من عادتها توزيع أخبار الواحة التي تتحصل عليها في هذا الوقت على بيوت القرية، كل بنسخته التي ترى انها تروق لهم، وتكون زياراتها الصباحية هذه خاطفة حتى تتمكن لضيق الوقت من المرور على الجميع وتبليغهم بالجديد، ووجدتها تغزل بالمغزل في باحة المنزل منتهزة فرصة نومه،

وعندما خشتْ عليها إتجهتْ مباشرة إلى الغرفة التي ينام فيها الطفل وكأنها مبعوثة خصيصا له، وبعد أن تفرستْ في وجهه مليّا وهو مقمط وملقى في مهده، لتعود اليها على وجه السرعة بوجه متبذل وقد تملكتها الدهشة بمجرد أن ألقت عليه أول نظرة وكأنما رأت شيئاً غريباً في الغرفة أو لاحظت أمراً محيراً غير مألوف على الطفل النائم، فقالت بصوت متهدج من هول المفاجأة: —

مبروك .. مبروك على طفلك يا ودّادة!

— تساءلت الأم مبروك ! بماذا ؟

— إن إبنك هذا ! عندما يكبرسيكون له الشأن الكبير، سيغدو قائداً يقود الجيوش الجـرارة، وتأتمر بأمره الفيالق والجحافل، وسيكون حاكماً لمملكة لا حدود لها، انه وُلِدَ قائداً!.

وعندما سألتها وسط الغبطة بالخبر.

— كيف عرفتِ ذلك ؟

— أجابتها : —

عرفتُ ذلك من عينيه !

— فالطفل الذي ينام وتبقى عيناه مفتوحة على الدوام، دليل لايقبل الشك على أنه سيكون حاكماً عندما يكبر ويطلقون عليه الطفل المعجزة، وهذه نبؤة لا تكذب منذ زمن الأسـلاف الأوائـل وأضحت ناموساً. فما أن يلد لديهم المولود حتى يظلوا خلال الأيام الأولى من مولده يراقبونه باستمرارعند نومه لعلهم يلاحظوا هذه الهبة الغيبية لديه. ثم أردفتْ العرّافةُ : —

العظماء عادة ينبتون في ثرية الفقر!

ويعودون ثانيةً للحياة ولو في صورة أناس متشبهين بهم. لكنما العلماء يملأ اسم الواحد منهم الدنيا بأسرها وتبقى جيوبه فارغة.

قالت كلمتها الأخيرة وضحكتْ.

– هل لديكِ شيئاً آخر تقولينه، قد يضاعف من فرحتي؟

– تبدو عليه أمارات النجابة ايضاً، وسيشكل لك مصدر فخر في الغد وتسرين به كثيراً. وتذكرت أنها قد إستبشرتْ خيراً بهذه ألأخبار، وسَرّها جداً سماع ذلك عن إبنها البكر الذي له مكانة عظيمة لديها، فنهضت من فورها كي تكافئها وأحضرت لها من حجرتها بعضاً من المال مقابل بشارتها التي زفتها اليها، وعلقت هذه البشارة بذاكرتها منذ تلك الأصبوحة، وكلما ناغت طفلها أو لاعبته وهي ترقّصه وتؤرجحه بين يديها في الهواء قُبالة وجهها، تمتدحه وهي تغني له وتناغيه (تجبره) مزهوة به أغان تصفه بالقائد الشجاع المنتصر الذي ستزحف وراءه الجيوش بآلاف مؤلفة ويفتح المدن والأمصار مثل الإسكندر المقدوني، أو جنكيز خان، وتتباهى به أمام نفسها مفتخرة وكأنها تعيشه واقعاً، أو على وشك التحقيق.

ولكن أينها ألآن من ذلك كله، حيث بات من غير الممكن القيام بأي عمل ينقدها من هذا الموقف الحرج وقد بلغ بها اليأس مداه وهي تستعد للتخلى عنه مُكرهة في هذه الصحارى القاحلة حيت لا أمل في نجاته من الموت المحقق، فكل شيء قد إنهار في وقت قصير، والوعود التي سمعتها كلام فارغ لا قيمة له، والنتائج السيئه باتت في حكم المؤكد، ليت أنه بقي لها حياً حتى وإن كان من عامة الناس كراعي غنم أو حطّاب بائس، وليس بالضرورة قائداً فذاً تذعن له الأقوام. واختارتْ الأم المتعبة مكانا ملائما قد يحافظ عليه لأطول مدة على أمل غير محدد، بعد ان تحسست الجو لربما تهب نسمات ولو خفيفة تلطّفه لكنها وجدته ساكناً لا يرتجى منه ماينعش، مكان يوازي مسار الشمس ولا تطوله أشعتها فيه، إذ وضعته في ظلٍ صباحي لجرف

وادي على قارعة الطريق، وعندما إمتدت ذراعاها كي تلقي به في لحده تكاد تسمعه يتوسل اليها قائلاً: ـ

لا..لا..لاتفعليها يا اماه، ورغم انها وضعته فعلا على الأرض وحررت يديها وذراعيها من حمله بينهما، الا أنها لازالت تحس بوجود ثقله بين ذراعيها وكأنه لم يغادرهما، رفعت يديها عاليا لتتأكد من خلوهما منه لكن الإحساس ببقائه لايزال يلازم ذهنها ويثقل يديها، بكت بكاءاً مراً وهي ترغم نفسها على التخلي عنه وتمنتْ على الله أن يلاقيها به ثانية في الجنة، وأولته ظهرها دون أن تلتفتْ تركته لمصيره المحتوم وتابعت السير لتلحق بالركب بلا توقف وهي تقول في خاطرها :ـ

آه ياالهي .

ما فكرت يوماً انني سأعيش مثل هذه الموقف القاهر، ولا أظن أني سأنسى هذا اليوم في المستقبل، وهذه اللحظة بالذات، وهي تصارع نفسها، وتغالب عاطفتها القوية، أمرٌ مؤلمٌ بالتأكيد بالنسبة لأم إضطرت إلى التخلي عن بكرها للموت تحت هذه الظروف القاسية، هونتْ على نفسها بشيء واحد وهو أنها، وهي المغلوبة لا ضلع ولا ذنب لها فيما يحدث والمسألة مقدرة سلفاً من السماء، وهمتْ باللحاق بالقافلة التي توارت عن النظر. عندما لمحها زوجها هب مسرعاً لملاقاتها، وسألها مفجوعاً من فوره عندما وجدها لا تحمل شيئاً بين يديها، هل مات ؟

الدموعُ سبقت اللسانَ وقالت كل شيء، فأومأتْ برأسها بالإيجاب رغم أنها لم تتأكد من موته حقيقة ولكن حسب يقينها المحدود انه على أفضل حال لن يعيش طويلا لأكثر من ساعة أو ساعتين أخريين، فوضع كلتا يديه على وجهه ليخفيه عنها وشهق بالبكاء، ثم أشاح به

عنها متجهاً ناحية الإبل التي كان يحديها، وهو لايرى نهاية قريبة لهذه المأساة.

1

الأبيض أسود

1 الأبيض أسود

عندما شعر الحاج مختار بدنو أجله وقرب نهايته، وحتى لايغيب عن دنيانا وفي نفسه شيء من الحقيقة التي احتفظ بها محجوبة عن الناس سنيناً طوالاً، ولايموت ببعض أسراره ويأخذها معه إلى القبر لتموت أيضاً، والتي يجب عليه البوح بها واظهارها للعلن بعد أن حان وقتها، وذلك لتسوية بعض الأمور التي تترتب على ذلك وشرح ما يلزم لأبنائه واطلاعهم عليه، فجمعهم دون أن يتغيب أحد منهم ذكورا وإناثاً، موضحا لهم أمراً في غاية الخطورة والأهمية، بعد أن كان في غاية التكتم والسرية، لصعوبة إحتماله فيما مضى خاصة وأنهم صغار ولاطاقة لهم على سماعه، ولكن الآن بعد أن كبروا وإشتد عودهم وأصبحوا رجالاً راشدين ونساء راشدات على قد النبأ، وتتسع صدورهم لسماع الأخبار الثقيلة والمؤلمة .. اجلسهم قبالته حتى يتمكن كل واحد منهم من سماع ما يود قوله جيداً، وقد بدا عليه الارتباك واضحاً، مما حيرهم وجعلهم متلهفين وصامتين للانصات له وفي رأس كل واحد منهم يدور أكثر من سؤال بتكهنات عديدة، عن ما فحوى الخبر الذي سيعلنه علينا الآن.

ورأى الحاج مختار أن يمهد لخبره هذا بمقدمة هادئة لأن طمسه طيلة المدة الماضية يجعل خروجه عسيراً الآن، ويتوجب عليه أن ينتقي كلماته بعناية تفي بالغرض لتمتص وقع الخبر وتخفف من شدة وطأته على نفوس الجميع وخاصة عمران، ثم تنحنح كي يسهل خروج الكلام على لسانه بوضوح وسلاسة، زم شفتيه ومرر لسانه عليهما بعد ان

امتلك السيطرة على قواه ونظر يمنة ويسرة وكأنه مازال متردداً ﴿ قول هذه الحقيقة أو ربما متفقداً الحضور ليتأكد من اكتمالهم أمامه وخاطبهم :ـ

لديّ أمر هام وقد جمعتكم من أجل البوح به لكم ولا أحتمل المزيد من الصبر والسكوت عليه من جانبي أنا على الأقل، خاصة وأنه لايعلم به أحدٌ غيري سوى أمكم، وعليكم جميعاً أن تعلموه وتعوه جيداً، وهذا يحدث عادة ووقع لأناس عديدين قبلنا، فلا تهولوه وتعطونه حجماً أكبر من حجمه وليكن معلوماً لدى الجميع بأن عمران هذا الذي أمامكم ليس أخو دم بالنسبة لكم، ولكنه أخوكم بالتبني والرضاعة فقط، وهذا يترتب عليه إنه لايرثني شرعاً مثلكم ولا يتقاسم معكم التركة التي سأخلفها لكم من بعد وفاتي، وهنا رفع الإبن الأكبر رأسه وبالكاد تمتم :ـ

انشاء الله بعد عمر طويل، وأعاد نظره إلى حيث كان ينظر. وأضاف الحاج مختار :ـ

وقصة أخوّته لكم ووجوده بيننا كفرد من أفراد العائلة جاءت كالتالي :ـ

منذ أكثر من عشرين عاماً وبينما نحن نسير على الطريق أثناء تغريبتنا ـ التي إستمرت حتى هذه اللحظة ـ ونزوحنا إلى هنا فراراً من القحط الذي لحق بواحتنا في الصحراء الليبية، فقد عثرنا عليه صدفة ودون توقع ذات صباح وهو مقمط بقطعة قماش وملقى في ظل جرف أحد الأودية، وأول ما قادنا إليه أن أمكم قد إلتقطتْ صوته واهناً من البعيد وهو يصرخ صرخات متقطعة ومشروخه وتعقبه أصوات أنين مخنوقة من شدة العطش والجفاف الذي نال منه، في البداية لم تصدق أدنيها رغم أنها كانت تتمتع بحاسة سمع

قوية ومشهود لها بذلك من الجميع، تساءلت بينها وبين نفسها هل هو صوت حقيقي أم توهم سمعي وتهيؤات لهسيس الجان؟ التي يصنعونها عادة في كهوفهم بالصحراء للتحذير اذا ما أحسوا بدنو أنسيٍّ من حرماتهم كي يبعدونه عنها. ولكن عندما تكرر الصوت أصاخت السمع أكثر كي تتأكد منه بشكل قاطع قبل أن تعلمني بما سمعت، وحيت تم لها ذلك إتجهتْ نحوه لكنها ترددتْ حيت ساورها الخوف من ربما تكون إحدى السعالى التي نسمع بها منذ ان كنا أطفالا ولم نشاهدها حقيقة أو نلتقي بها وجهاً لوجه حتى الآن، وعندما لاحظتُ ترددها وإرتباكها بادرتُ بسؤالها عن السر فيما طرأ عليها، فأوضحتْ لي الأمر كما تهيأ لها، وانطلقتُ دون تهيّب على وجه السرعة إلى حيت أشارت عليّ، على اعتقاد مني بأنها قد تكون عائلة كاملة وهي تتبعني في توجس، وكانت المفاجأة مهولة عندما وجدتُ طفلاً رضيعاً وحيداً مقمطا يتحرك بوهن وارتخاء ويحتضر في الرمق الأخير ولازالت به بقية قليلة من حياة، فاختطفته على الفور وأنا أتساءل أيكون شبحاً ويمثّلُ علينا ؟ ولكن عندما أخذته بين ذراعيّ وجدتُ أنه انسان حقيقي وتأكدتُ من ذلك بملمسي والدليل أيضاً أن له كتلة وحجم رغم ان وزنه يساوي وزن قماطه أو يزيد قليلاً، وأني تمكنت من التقاطه، واتجهت به اليها آمراً إياها أن ترضعه في الحال قبل ان يلفظ آخر نفس، لأنني إكتشفتُ أن الطفلَ جائعٌ ويعاني من جفاف شديد ولا يحتمل المزيد من الوقت دون رضاعة، وتدبرتْ أمكم أمره وتكفلتْ بإرضاعه وقدمنا الرعاية اللازمة له والعناية به منذ تلك اللحظة إلى يومنا هذا دون مِنّةٍ، أدركنا أنه قد ترك من قافلة سابقة لنا. موجهاً كلامه إلى عمران وهو يهز سبابته نحوه :ـ

إنك الرضيع الذي قهر الصحراء بعظمتها وبقي حياً! . قمنا

بحضانة الطفل منذ تلك اللحظة واشرفناعلى تنشئته وتربيته ما استطعنا واحتسبناه كأي واحد منكم لا فرق وأصبح أخوكم من الرضاعة وكى لا نجرح شعوره الطري آنذاك ونحترم الطفولة فيه أحجمنا على قول الحقيقة له كما هي طيلة هذه المدة إلى أن يكبر ويعتمد على نفسه ويصبح رجلا قادراً على تحمل سماع الحقيقة بما فيها من قسوة، وربما كنا مخطئين وقتذاك بكتمان السر على صاحبه، وها قد حانت اللحظة التي إنتظرناها، واتخذته امكم تؤماً لأخيكم رمضان هذا الذي كان في مثل سنه وأرضعتهما معاً حتى الفطام، حاولنا حينذاك جاهدين اللحاق بالقافلة بغية تسليمه إلى أمه، ولكن لم نتمكن من ذلك اذ قد سبقتنا القافلة بكثيرأو سلكت اتجاهاً مغايراً لوجهتنا، وحمدنا الله على أن لم تسبقنا اليه قطعان الذئاب الجائعة المتوحشة من شدة الجوع التي تجوب المنطقة جهاراً نهاراً بحثاً عما تأكل، حالت مروءتنا دون التخلي عنك تواجه مصيراً مجهولاً ... لنقل مجهولاً في أفضل أحواله، نحن سعداء بتأديتنا للواجب الإنساني وانت ايضاً لا شك سعيد بأنك لازلت على قيد الحياة، وقد استبدل القدر والديك بوالدين لا يقلون كثيرا عنهما. ولكن يجب ألا ننسى الوصية الثمينة التي تهم عمران وتخصه وحده، ويجب أن تكون حاضرة في ذهنه على الدوام، وألا يتجاوزها أو يغفلها على الإطلاق مهما تقدم به العمر ألا وهي :-

انا أتكهن أشياء قد لا تدركها انت الآن والدنيا ضيقة جداً وعلى عمران ألا يتزوج من إمرأة ثيب، وجه اليه تحذيره وهو يهز سبابته مشدداً، عليك أن تتزوج من فتاة عذراء لم يمسسها بشر قبلك. الجميع يتابعون حركة شفتي أبيهم وهي تتحرك وتنطق بالكلام، وقد علتْ وجوههم الدهشةُ وأفواههم فاغرة دون وعي بها، حصل شيء

لم يكن في الحسبان، فالأب تخفف من عبء سر ثقيل ظل يحمله سنيناً وسنينا. وهو يفكر في طريقة يوصله بها إلى صاحب الشأن وكلما تقدم العمر بالوالد يصبح قول السر صعباً ويزداد تعقيداً، لكن عمران إستاء كثيراً من سماع هذا النبأ المؤسف غير المتوقع، في البداية لم يصدق ما يسمع ولم يصل مباشرة – من هول الصدمة – إلى منطقة اليقين لديه بعد، نظر إلى الأمر كمزحة أبويه له منها مأربٌ آخرٌ بعيد عن هذا المعنى المباشر، لكن الأب لم يسبق له أن مزح بمثل هكذا مزحة، أو ان الأب قد أصابه مس، أو جُنَّ، ما هذا الهراء الذي يقوله بكل ثقة، نظر الإخوة كل إلى الآخر في استفهام وتعجب، وأصبحت عينيّ عمران منذ هذه اللحظة ترى وجه الأب بمظهراً مغايرا وبتعابير وملامح مختلفة غريبة عنه تماماً وكأنه لم يره من قبل، وليس ذلك الوجه الأبوي المألوف، وكذلك عندما جال عمران ببصره إلى وجوه بقية الاخوة لاحظ انها قد نالها نفس التبدل الذي حدث مع الأب، حيث وقع انقلاب طاريء لعينيه وذاكرته، واصبح يراهم في صور أخرى ثابتة لا تتغير، اختفت ملامحهم جميعاً من ذاكرته واصبحت شخصياتهم مزدوجة وان قابلهم في مرة اخرى قد لا يمكنه التعرف عليهم وتمييزهم. رغم ان النبأ في البداية لم يقابل بالتصديق إلا انه لاقى شيئاً من القبول فيما بعد، فعمران الوحيد من بين إخوته ذكوراً وإناثاً يختلف شكله وبنية جسمه وحتى لون بشرته ونوع شعر رأسه عنهم تماماً، مما قرب فحوى النبأ من التصديق والقبول به، الجميع غلب عليهم الصمت والحيرة، فماذا بعد ؟ بقي عمران على صمته وقد صدمه ما قد سمع فلا يستطيع تصور حياة بلا أبوين، غير انه حاول إبتلاع مرارة الخبر الذي يعتبر نقطة تحوّل في حياته، فالكلام الذي يسمعه صادرعن أبيه لاغيره ولم يستطع أن

يعارض هذه الإرادة الأبوية، ونحن لسنا قادرين على تحمل الحقائق دائماً لكنما صوته الداخلي قال له : —

لا تنهار بسهولة وتمالك نفسك كالرجال، لقد أصبحوا في حل مني وأصبحتُ أنتمي إلى نفسي فقط انا الآن أعيش الحرية فيما أفكر وفيما أعمل.

الأبيض أسود 2

بداية إحتار عمران فيما سيفعل تجاه هكذا نبأ، وقد كان لهذا الحدث الصادم أثره العميق في نفسه وهي المرة الأولى التي يهزه فيها خبر بهذا العنف، وان جميع مشاهد اللقاء في هذه الليلة ستبقى محفورة في ذاكرته ما عاش، كلمة بكلمة وحركة بحركة، إذن النسيان طمأنينة حقاً كما كانت تلمّح له أمه بالتبني وهي تنصحه بكيفية التعامل مع بعض الوقائع التي قد يتصادف معها، أخذ يتملكه القلق وبقي طيلة الليل صاحياً مهموماً يفكر في أمره ولا يهدأ على حال، وقد أصبح من الميؤس منه العثور على أب وأم قد إختفيا لأكثر من عشرين عاماً مضت، يعيش حيرة شديدة ويتساءل ماذا فعلتُ من ذنب لأستحق هذا ياإلهي؟ فهل يعني هذا ان أبي قد تخلى عني نهائياً، وأنني قد رشدت وكبرت بما يكفي لأعتمد على نفسي ويجب أن أشق حياتي بما أوتيت من قدرات؟ وأنهم قد قاموا بواجبهم الإنساني حيالي على الوجه الأكمل ولم يتبقَ لديهم ما يقدمونه لي سوى هذا النبأ المفجع، وحان الأوان للتحرر من مسؤولياتهم تجاهي، وأعيش بقية عمري على حقيقة أن ليس لديّ لا أب ولا أم وكأنني في فطام جديد ومؤلم، لكن حياتي ستكون بلا معنى اذا لم أتدبر الأمر عاجلاً قبل ان يتسرب الخبر إلى خارج البيت، لحظات مليئة بالقلق والتهيّب والحاح يشط عليه بعنف لإتخاذ الخطوة الملائمة سريعاً، فالى اين يا ترى سيقوده كل هذا الوجع. وبعد تمحيص وتقليب في ردة فعل مناسبة يرضى عنها ويرتاح لها وكان قد فشل في التصالح

مع ماضيه، صمم على تحدي الواقع، وطرأت عليه فكرة هي وليدة الحدث وإستقر رأيه على قرار حاسم لا رجعة فيه، ألا وهو مغادرة الواحة نهائياً وإخفاء نفسه عن الأنظار، كيف حدث أن إهتدى وقرر بهذه السرعة إتخاذ هذا التدبير الصارم؟ إلا أنه شعر بمضاعفة شدة تفكيره ورأسه ينتفخ ويكبر ليحتوي كل الهموم والمشاغل وكأن وحياً سيهبط عليه، هذه أعراض لا تنتاب الجميع ولا حتى القليل من الناس، ويراه أمراً حتمياً ليتولى شأنه بنفسه ما دامت قوة الإنسان في عقله فليس لديه بعد الذي سمع من يستشيره في هذا الشأن أو يباذله الرأي ليقاسمه همه ويشاطره الحل، عزم في الليلة التاليه أن يكون موعده ليهجر القرية إلى الأبد ويقطع صلته بها نهائياً ولن يروا له وجهاً بعد اليوم مهما كانت الدواعي، بعد ان اصبح لا يرى لنفسه مستقبلاً في هذه الواحة، وظهر له التساؤل التالي : ـ من السهل أن يرحل لكن ماذا بعد ؟ ان يهيم على وجهه بين سخريات القدر ومتاهة المجهول وكيف سيعوض ما افتقده؟، إنه تغيّرٌ خطيرٌ في قناعاته، مغامرة لا تخلو من مخاطر جمة، أن ينأى بنفسه خجلا من مرأى الناس ومقابلة وجوه كل الذين يعرفونه من أهل واحته التي ترعرع فيها والذين سيعلمون بحقيقة ما حدث آجلاً أم عاجلاً، ويعلم هو مسبقاً ما سيقولونه عنه بعد أن يتسرب الخبر وينتشر رويدا رويدا بين الناس الذين سيتلقفونه ويضيفون اليه الكثير – ربما ما يسيء – من عندهم، وهذا ما ضاعف من نقمته ودفع به إلى النزوح النهائي، هربا من تبعات هذه الكارثة التي حلت به ويرى فيها معرّة، بعد أن أدرك تماما أنه أصبح نبتة شيطانية معزولة بلا جذور ولا منبت، نكرة لامعنى له بدون أب ولا أم معروفين لا أصل ولا فصل، ليبدأ من جديد ويبحث عن فرص أفضل للعيش فالحياة غير مقصورة على

هذا الجزء من الأرض التي أصبحت طاردة ولا يحتمل البقاء فيها المزيد من الوقت، رغم أن الدفء العائلي الذي كان يعيشه لا يمكن تعويضه في أي كنف آخر، فقد حُرِمَ من الحياة فرداً سوياً في أسرة هانئة، ولا له من يعتمد عليه في مكان آخر، ما أبأس الحياة بلا أهل. ولكن ما طيّب نفسه أن كل الأرض ديار الله، وأينما يرتاح المرء وتتوفر له أسباب البقاء والحياة الكريمة هو وطنه، ليس للإنسان وطن بعينه مكتوب على جبينه، وملزم بالبقاء فيه، والإرتباط بأهله، وطنك هو البلاد التي تحب.

لم يتمكن من النوم طيلة الليلة وبقي سهرانا ينتظر اللحظة التي يهدأ فيها الجميع ويستتب له السكون كي ينطلق دون تردد إلى العمق الصحراوي سالكا طريق "طريق التمور" وهو الطريق الذي يربط بين الواحات المليئة ببساتين النخيل بأعداد مهولة والتي تنتج أجود أنواع التمور في العالم بكميات تجارية، بحثا عن الواحة الملائمة لإقامته في الأقاليم المجاورة، إنها لحظة إستثنائية وهو يفكر في ملء الفراغ الذي تركه من بعده حتى لايشعر أحدٌ بافتقاده وبغيابه الذي سيفجر التساؤلات العديدة عنه ويثير شكوكاً كثيرة، على الاقل خلال الأيام الأولى من إختفائه المفاجيء هذا، وفي الصباح الباكر وربما في منتصف الليل الأخير – لايعلم بالضبط فرأسه مشوش ويضج بتكهنات تقاطرت عليه لا نهاية لها ولا تحتمل – تسلل خارجاً دون علم أحد فلا يريد لأي من أفراد العائلة أن يشعر به أو يراه حتى لايعترض طريقه ثم يوقفه ويوقظ بقية العائلة الذين لا يرتضون مغادرته لهم، فيثنونه عما عزم عليه، ويقفون حائلاً دون ذلك بغية الإبقاء عليه معهم كفرد من الأسرة مثلما كان واعتبار ما حدث أمراً عرضياً لا يستحق الاكتراث وما هو الا اظهار للحقيقة، أو لا يريد

لأحدٍ أن يعرف وجهته حتى لا يحدد أو يتكهن المكان الذي سيستقر به مستقبلا. لايتمنى بتاتاً أن يلحق به أي منهم باحثاً أو حتى يسأل عنه مجرد سؤال ولا تقصي أحواله وتتبع أخباره ومعرفة كيف تكون أوضاعه فيما بعد، يريد لنفسه أن ينسى كل شيء يمت بصلة إلى هذه الواحة الطاردة ويريد لهم أن ينسونه جميعاً بالمرة وكأنه قد مات وعفا عنه الزمن، ما حاجته بالواحة وما حاجة الواحة به بعد الذي حدث؟، لقد كانت لحظة تحوّل قاسية، قال محدثاً نفسه وهو يلقي نظرات الوداع الأخيرة على المكان متنقلاً في قلق ما بين غرفته وصحن البيت ثم يخرج إلى الشارع مستطلعاً :—

مقضياً عليّ أن أعيش وحيداً، لقد إختارتني الغربةُ منذ هذه اللحظة وطناً لها!.. تناول ما وقع تحت يديه من إحتياجاته الخاصة الضرورية ولملم ملابسه في صرة وحمل مدخراته في جيبه، ونفّذ ما عزم عليه، أصبح وحيداً مجدداً وجدوه منذ أكثر من عشرين عاماً على قارعة المكان فها هو اليوم على قارعة الزمان، لقد إبتدأت رحلة الإبتعاد والنأي، حمل عصا الترحال إلى أبعد ما يستطيع ولو في أقصى حدود العالم، إلى المصير الغامض إلى المجهول دون أن يقول كلمة وداع لأي كان، ملأ عينيه مجدداً بمرأى البيت وحجراته في صمت ثم اشاح بوجهه إلى الجهة الأخرى حيت طريق الرحيل واستسلم لها، وعند بلوغه مكان يبعد كثيراً عن ضواحي القرية أحس بوقع دبيب خلفه يلاحقه فالتفت في دعر مستطلعاً ليجد كلباً أبيضاً لاهثا يلاحقه في صمت، سرعان ما تعرّف عليه وسط الظلمة، فخاطبه مندهشاً في وجع :ـ

أهذا أنت ياسعيد ؟ ! ألازلتَ متعلقاً بي ؟

قد أنسيتني بصنيعك هذا جزءاً كبيراً من آلامي وخففت من

أحزاني، لانعمل لكلابنا رسن كي نشدها به الينا، إنها تشد نفسها بوفائها نحونا، يشدها الوفاء الذي تميزت به فتبحث عنا وتقتفينا حتى وإن تخلينا عنها وهربنا بلا رحمة، أنتَ عزائي الوحيد في هذه الدنيا بعد أن تنكر لي الجميع، تجاهلتك وغادرتُ، لكنك أبيت التخلي عني ولحقت بي في اصرار، ما أروعك!، لم أشأ أن أوقظك لحظة المغادرة وعندما غابتْ عنك رائحتي على ما أظن إفتقدتني وإستيقظت لوحدك متتبعاً خطاي ما أوفى منك!. انه كلبه الذي إعتاده وربّاه منذ أن كان جرواً صغيراً وكان يرافقه أينما ذهب في تجواله، وها هو الآن قد افتقده فإشتم رائحته وإقتفى أثره ليصحبه في هروبه ويكون رفيقه الوحيد الوفيّ في هذه الأزمة الخانقة، وكلما مرّا بقرية أو واحة تجاوزها إلى أخرى تكون أكثر بعداً وأماناً، على أمل الحصول على مكان أفضل يناسبه بعيداً عن مطال الجميع ويضمن إختفائهما التام عن معارفه، ويقطع صلته بأهله بالتبني ما دامت هذه الصدمة غير المتوقعة ترافقه، ولو إلى آخر العمر، فلم يرق له أن يتخلوا عنه بهذه البساطة وقد صدمه التصريح الأخير لأبيه بالتبني وجعله يحنق كثيراً على كل شيء، ولكن ما علينا مادامت الحقيقة تقول ذلك فلنقبل بها، لأنها الحقيقة كيفما تكون، ثم إنه قدري الذي يجب أن أرضى به ومواجهة هذا المصير وقهر هذا الحظ السيء، هذا ما حدّث به نفسه مواسياً. هام على وجهه يتنقل من واحة إلى أخرى صحبة كلبه إلى أقاصي الصحراء بحثاً عن ملاذ هادئ يعثر فيه على الطمأنينة المستبعدة، ويستكمل طوافه في الأرض بين الواحات البعيدة، لينتهي به التجوال إلى واحة قصَيّة رام المقام فيها، وأمنتْ له شيئا من الطمأنينة التي يحتاجها، وقرر أن يجعل منها مستقره الأخير، بعد أن ادرك أن لا يمكن للحياة أن تكون في افضل من هذا

المكان. وبقي على هذه الحالة يتوسد أوجاعه كل ليلة على سُهد يتأمل ويخطط وينام، شيء ما أصبح ينعش خياله وينمي مداركه، لقد تغيرت مفاهيمه الأولى وأسلوب حياته وأصبح يفكر بطريقة أخرى أكثر جدية وجدوى، في هذه الأثناء أخذت تتبلور في رأسه فكرة كبيرة طرأت عليه بشكل عابر وبدأ يتشكل لديه أمل عظيم ومختلف أوحتّ به حالتة كانسان مأزوم، حيث تبنى هذه الفكرة التي لم يتطرق اليها أحد من قبله إلا القادة الكبار بعد ان اصبح غير محدود الحيلة وزادت إرادته، شاء ان يصنع لنفسه إسماً في واحته الجديدة، بامكانه ان يكون غير ذلك الا انه صمم أن لا يرضى بما دون النجوم، فانقطع عن الواحة القديمة وانقطعت أخباره عنها منذ ذلك اليوم وسكن بأحد الكهوف الجاهلية المهجورة على تخوم الواحة الجديدة ليعتكف فيه مؤقتاً إلى أن يتدارس أوضاعها كافة ويرى إنّ كانت تصلح حقيقة لمقامه فيها وتناسب ما يفكر فيه أم لا، وأصبح يتمتع بسعة وسرعة استيعاب نادرين، وحده فقط لاحظ ما ظهر على نفسه من نبوغ مفاجيء وأشعره بالتفوق على غيره من الناس، ثم دفع به لينشد طموحات واطماع غير مألوفة ولا تتأتى للجميع، وأخذ يزور الواحة من وقت لآخر زيارات خاطفة لا يخالط فيها أحد في البداية مستطلعاً أحوالها ومتعرفاً على حياة ناسها بهدؤ وحذر متناه، وكي يؤمّن بعضاً من قوته وقوت كلبه، ويلتمس تقبَل الأهالي له وإيلاف عيونهم لوجوده الذي قد يستغرق وقتا طويلا، فقد يحدث يوماً أن يألف الناس وجوده ويتقبلونه ويصبح واحداً منهم، وهو الغريب الذي بقاءه غير مرغوب فيه، وعادة ما يُستهجن من قبل أغلب الأهالي، ويكون موضع ريبة ورفض وسينظرون اليه دوماً بأنه نزيل لا قيمة له من الأغراب مهما طال مكوثه معهم، لكنه تصنّع التأفف وسعى لإخفاء

خيبته ونأى بنفسه ما أمكن عن الإحتكاك المباشر بهم ومخالطتهم عن قرب ليُقصي الريبةَ عن نفسه ويبعد شكوكهم، وقرر أن يدخلها بوجه آخر جديد لم يتقنع به أحد منهم من قبل ولا يمكن ادراكه لأنه غير معروف لديهم، أصبح يفكر في اختطاف الواحة بأسرها بأيسر الطرق لتبقى في قبضته متحكماً بأهلها ما امكنه من الزمن، لازم من المغامرة بذكاء فإما نجاح باهر أو فشل دريع، رغم ان البدو لايميلون إلى المجازفة ولا يتقبلونها وأغلبهم يرون أن المغامرة مؤامرة، وبقي على حاله من التوجس إلى أن ألفه بعض الرعاة وأخذوا يمرون عليه ويزورونه كل صباح وهم في طريقهم إلى مراعيهم وهذا ما كان يتمناه وينتظره منهم بفارغ الصبر، فلا يريد مبادءتهم بالتودد والتقرب بل يريد اشعارهم بان كل شيء هو وليد الصدف المحضة وحدها دون تدخل من احد. لقد وُلِدَ من رحم صدمة عنيفة غير متوقعة كادت أن تؤدي به، وحده من يعرف أن أمه صدمة وميلاد جديد يحدث له الآن وها هو يعاني مخاضه الأليم، ونتيجة هذه الصدمة أحس بأن الدنيا برمتها قد تآمرت عليه فتحول إلى انسان ماكر وذكي واصبح يمتاز بسرعة التعلم والإستنتاج، وأنس في نفسه الكفاية للعب أدوار ما كانت تخطر لأحد على بال وهي أكبر من مستوى تفكيره السابق، وعليه تحدي هذه المؤامرة بعمل يشفي غليله ويخرجه من دوّامته، فنما لديه الإنتباه واليقظة وإزدادت حدة ذكائه الملفت حتى انه استخف بضحالة مستوى تفكير بقية الناس من حوله ورأى فيه سداجة مشجّعه له على الاقدام والمضي في تحقيق هدفه، فهو وحده أول من لاحظ ما طرأ عليه من تغيّر ذهني غير مألوف وأيقن أن المحن فعلاً هي المُعَلِّمُ الحقيقي للإنسان في الحياة، وفي وقت أسرع بكثير من دور التعلم ومرافق المعرفة، وما عدا ذلك يبقى سطحياً.

الأبيض أسود 3

لقد لفت وجود عمران الغريب المريب عن طريق الصدفة إنتباه راعي غنم منذ الأيام الأولى لنزوله، وهذا الراعي من أولئك الرعيان الذين تزدحم بهم هذه البيئة وكالعادة فالرعاة من طبيعتهم سرعة التنبه لأي تغيّر يطرأ او تبدل يقع في المنطقة والمحيط ويشعرون بالحساسية المفرطة منه، فيبقون عيونهم مفتوحة على الدوام، ويراقبونه طوال ما هو متواجد، فهم عيون الواحة التي ترى بها .. كانوا منزعجين من وجوده ولن يهدأوا ويطمئن لهم بال إلا بعد التأكد من سلامة نيته والوقوف على براءة مجيئه، ويعود ذلك لشدة حرصهم وخوفهم على سلامة وأمن واحتهم، وأيضاً استمدوا هذه الخاصية من طبيعة عملهم كرعاة فهم دائمو التيقظ لخشيتهم على أغنامهم من الذئاب والضواري الجائعة التي عادة ما تتربص بهم وتباغتهم بهجماتها المتكررة، كان يخرج هذا الراعي بأغنامه إلى المرعى كل صباح، ويعود إلى الواحة عند المساء، وهو أول من رآه وإكتشف وجوده، فالتزم الصمت في باديء الأمر وحافظ على هدوئه مؤقتاً إذ توقعه أن يكون عابر سبيل ظرفي عرضي لا داعي لإزعاجه، سيمكث على الأكثر يومين أو ثلاثة أيام ثم يغادر صوب وجهته ويستكمل رحيله كعادة العابرين الدين يتواترون على الواحة من وقت لآخر، والأمرلايتعدى أن يكون محطة رحّال لاتدوم، لكن شيئاً من هذا لم يقع، فبقي في نزلته هذه اكثر من اسبوع مما أثار تساؤلات وشكوك الراعي النبه التي أخذتّ تتزايد وتتضخم وتأخذ اشكالَ هواجسٍ عديدة وهو يشعر بالحماس الشديد للوقوف على سر بقائه

حتى هذا الوقت المتأخر، ودفعه أيضاً الفضول والإهتمام معاً إلى التقرّب منه ومبادرته بزيارة إستطلاع خاطفة اثناء عودته من المرعى في إحدى المساءات، على إفتراض انها زيارة عفوية وقعت بصدفة محضة بغية التعرف عليه والتقرب منه، والإستفسار منه بطريقته الفنية الحدقة التي تمتزج فيها البراءة بالأستجواب معاً عن سر مجيئه وسبب تواجده هنا في هذا الوقت، وعن وجهته المقبلة، وجَمْع ما يمكن الحصول عليه من معلومات تهمه وتهم أمن الواحة بأسرها كي يمحو شكوكه وتهدأ معه نفسه القلقة دون ان يتعرض له بالاساءة مثلما يحدث عادة في حالات مشابهة، فأي طارئ أو تغيير جديد يحدث في واحتهم لايمكنهم الصبرعليه طويلاً فيسارعوا جميعهم لمعرفته وإكتشاف سره على الفور، وابلاغ مشايخ وعمد الواحة به كي يتصرفوا حياله بما يناسب، وهذا يعكس تعاظم حسهم الأمني ودقته الذي يتميز به كل سكان الواحات المعزولة والقرى النائية على السواء دون غيرهم، ويعكس أيضاً حرصهم على سلامة واحتهم، فلا يتركوا شاردة أو واردة تمر ببساطة دون معرفتها والوقوف على كنهها، توخياً للحذر ولدرء المخاطر قبل وقوعها، حتى أن بعض العابرين يمرون بالواحة ليلاً خشية أن يعترضهم احدٌ من سكانها، وعندما يكتشفُ أهلُ الواحة آثار أقدامهم وأخفاف إبلهم في الصباح، يلاحقونهم فوراً على ظهور الخيل مقتفين آثارهم باحثين عنهم إلى أن يدركوهم، واذا ما أمسكوا بهم سيفتشونهم ويتأكدوا من أن مرورهم طبيعي وآمن، وليس لأجل غرض آخر ينطوي على مخاوف كانت محتملة. قام عدد من الرعاة بزيارة طارئة وعاجلة في أحد الأمسيات للزائر الغريب، وقدموا اليه أنفسهم وطلبَ منه أحدهم مقابل ذلك أن يتعرفوا أيضاً على شخصه، تفاجأوا عندما سألوه من أين أتيت والى أين ذاهب

والى أي مكان تنتمي، فأجابهم وهو يعتذرعن إجابته هذه ان كانت غير واضحة أو لا ترضيهم: —

لا أعلم من أين جئت ولا كيف وصلت ولا إلى أين أنا ذاهب !، نحن لا وطنَ محدد لنا نولد ونعيش لنصنع المعروف فقط ثم نموت وكفى، وكل شيء يتوقف على الأوامر العليا التي ستردني وتوجه أفعالي، هي من تحدد كل شيء وتسيّر خطواتي، بداية إحتاروا في تفسير هذا الرد العجيب وغير المتوقع وأخيراً بعد إجتهاد منهم أدركوا معناها، وفهموا قصده أنه من رجال الله الذين لا إنتماء لهم على الإطلاق، فأحسّوا بعدها بالذنب تجاهه وانهم ربما أساءوا الظن به بل وظلموه بشكوكهم، وتمنوا بينهم وبين أنفسهم أن يصفح عنهم ويسامحهم، وكفوا عن إعادة هذا السؤال المحرج عليه مرة اخرى نهائياً معتبرين زيارتهم هذه مصافحة أولى له، وليس بدافع الشك والتوجس، ولكن ربما نهاية الشك ايمان.

الأبيض أسود 4

إستمر عمران يفكر ويبحث بجد للتوصل إلى وسيلة من أجل الفات الإنتباه اليه، وطريقة محكمة وسريعة غير مباشرة ولا مفضوحة كي يقنع بها أهل الواحة به وبما يختمر في ذهنه ويبيّت عليه من نوايا هادئة، ويبعد عنهم الشكوك التي عادة ما تراودهم حول كل غريب طاريء يحل عليهم وما قد يحمله في سره من نوايا مضمرة ربما تنال من الواحة، كأن يقوم بأنشطة معادية أو يبيت على أعمال تخريبية كسرقة اشياء ثمينة أو ذات قيمة تاريخية، حدث عمران نفسه :

ـ فاذا ما كسبتُ ثقة هؤلاء الرعاة الذين كما يبدون يسهل الإيقاع بهم والتلاعب بعواطفهم لكشف الكثير من الغموض الذي لايزال يلف الواحة بالنسبة لي، وسأعدّهم دون ان يدروا ليلعبوا دورَ العرّاب ولأكوّن منهم الخلية الأم والتي ستنشط وستتكاثر حولها بالإستقطاب وبالإنقسام العديد من الخلايا الأخرى المتنوعة والفاعلة، إلى ان يصبح لي ظهيرٌ شعبيٌّ قويٌّ يمكن الإعتماد والتعويل عليه، عندها يشتد موقفي ويتماسك، ويقترب التوقيت المثالي لدخولي إلى الواحة وتحقيق الأماني المكبوتة والمخنوقة خطوة خطوة بعد ان أمستْ فكرة مهيمنة وملحّة، بذا أكون قد أنجزت الكثير. فهذه الوسيلة الممكنة الآن، وإن كان قد اهتدى إلى العديد من السبل البديلة لكنها غير متأتية ولن تكون عملية وناجحة في هذا الأوان تحديداً، والأمر لن يكون تقبله سهلاً منهم فهو يحتاج إلى تهيئة والتهيئة تحتاج إلى جهد ودهاء وصبر، المهم لديه الا يكتشفوا التناقض المضمر بين شخصيته

الباطنة والظاهرة وعليه ان يفصل منذ البداية بين المبادرة وخفة العقل. فكان يستيقظُ مبكراً عن عمد متخلياً عن لذّة النوم ودفء الصباح الجميل كي يستقبلهم عندما يعوجوا لزيارته التي تحولت إلى عادة يومية شبه مستديمة بالنسبة لهم، حتى أمسوا لا يقوون على التخلي عنها وتناسيها، وقد أوقد النيران وجهزها بعد أن جمع حطبها من الأمس ليتدفأوا بها ويطردوا صقيع الصباح القارس الذي جمّد أطرافهم، فليس لديه حيث يعيش حياة مزرية ما يقدمه من كرم ضيافة غير الدفء الذي هم أيضاً في حاجة مسيسة اليه في مثل هذه الصباحات الشتائية الباردة، في البداية كان يتمدد بكسل على فراشه قبل ان ينهض ولكن الآن بعد أن تعرّف عليهم نوى إستقطابهم بما يتأتى له، فما ان تحين ساعة ايقاد النار حتى يجد نفسه واقفا منتصباً كالوتد دون مجاهدة تذكر للتغلب على الكسل، فلمسوا كم هو جواد وخيّر مقبل على صنع المعروف بما يملك، ولم يبخل عليهم بما يستطيع ولم يتخلف أو يتأخر يوماً واحداً عن ايقاد النار وتقديم التدفئة لهم احتفاءاً بمقدمهم، وبعدما يغادرون يكمل جلسته وحده ليراجع جديد ما سمعه منهم، فليس لديه ما يعمل سوى أن يتدفأ على النار ويفللي بدنه من القمل والصئبان الذين كثرا في المكان حيث يسحقه بين ظفريّ إبهاميه فتلوثت أصابع يديه بالدماء، وعندما يمل هذه العادة يلقي بالقمل في النار التي أمامه محدثاً إنفجارات صغيرة يجد سلواه في سماعها، وكانت السنة النيران وهي تتراقص تثير فيه رغبة التفكير والتأمل ويتساءل عن هذا السر العظيم وعندما لا يصل إلى نتيجة يهز رأسه ويحوّل نظره عنها. تصادق مع الرعاة بسرعة غير متوقعة وتوطدت علاقاته ببعضهم بصورة مميزة، ولا مجال للخطأ في مثل هذه المواقف، فأي هفوة أو زلة لسان قد تبدر

منه بقصد أو بدونه سيأخذونها على مأخذ الجد ويمنحونها تأويلات متعددة وتفسيرات غير متوقعة وربما يضيفون اليها من استنتاجاتهم الكثير وتعود عليه بالضرر ويفتضح الأمر، وهو يوازن بينهم أيهم الأصلح ليقرّبه منه أكثر من الآخرين وليختاره لمهمته القادمة بعد أن يلمس فيه المقدرة على ذلك والتجاوب المُرضي، فيحمّل كل واحد منهم على حده برسالة يرى انه جدير بانجازها على الوجه الأكمل، ليتلقى منه النتائج بعد يومين أو ثلاثة أيام. ومن ضمن ما أوضحه لهم كي يعزز ثقتهم فيه طلب والده المدفون إلى جوارهم، إذ اوضح لهم قائلاً ـ إنه رجل متفانٍ في عبادة الله وحب خلقه ولقد لاحظتُ عليه في الآونة الأخيرة وفي مرات عديدة انه يتسقط أخبار قوم بعيدين عنّا لا نعرفهم ولم يقل لي عنهم شيئاً يمكنني من التعرّف عليهم.. الآن ادركت بعد ان غيبه الموت من يكونون وما كان يدور بخلده، انهم انتم وعرفتُ ان الغيبَ يحدوه اليكم، وأوصاني وهو على فراش الموت أن يُدفن جثمانُه في هذا المنفذ الذي يؤدي إلى الواحة ولا نأخذه إلى مكانٍ آخر حتى يبقى حارسا أميناً لها ولأهلها الطيبين من كيد العدى إلى الأبد، وكأنه على علم مسبق بموعد وفاته في هذه البقعة وفي ذات الوقت! رغم أنه لم يتم له التقرب منكم ولا التعرف عليكم او الإطلاع على أحوالكم ولكن طالما ان الموت قد أدركه هنا في هذه البقعة الطاهرة تحديداً إلا دليل دامغ على أنها تستحق واهلها معاً كل هذا التشريف والتبجيل الذي فيه من الخير والسؤدد الكثير، وحدوث موته هنا ليس محض صدفة أو واقعه عشوائية، بل كل شيء مقدّر سلفاً ومسيّرمن قبل قوى عليا خفيّة وقاهرة، وأنا بقيت إلى جوار قبره كل هذه الأيام لمواساة نفسي وسأودعه وأمضي لحالى.

كان عمران يحدثهم بلسانه فقط بينما يدور في ثنايا وتلافيف رأسه

الإستفسار الكبير التالي وكأن له قلبين في جوفه :-

(عن من تكون أمه الحقيقية وأبوه الحقيقي وهل هما على قيد الحياة أم لا؟، وهل له إخوة وأخوات مجهولين؟، وفي النهاية يتساءل بتشكك عن حقيقة مولده وأصوله والى من ينتمي ؟) اسلافهم لأن عددهم قليل قد اختاروا مكان واحتهم عند بناءها ان تكون محاطة بسلاسل من الجبال المنيعة حتى تساعدهم في الدفاع عنها ضد الغزاة مهما كثر عددهم ولها مخرج ومدخل فقط، إن فرق اللصوص والغزاة فيما سبق يتسللون من هذه الناحية عبر تلك الخرمة التي دفن فيها، ليهاجموا أهل الواحة ويغيرون عليهم ليسلبونهم، وهؤلاء اللصوص أقوام أشداء تصعب مقاومتهم عندما يهاجمون، ويصعب إختراقهم في حالة الدفاع وقد أوقعوا الرعب في نفوس الناس جميعاً، وعندما يُقبرُ هنا في هذا المنفذ سيحد من غزواتهم ويوقف تقدمهم نهائياً وسيتكفل بالتصدي لهم وحده وهو في قبره، وهذا الخبر هو ما افرح اهل الواحة وبث الطمأنينة في نفوسهم الحائرة عندما نقله الرعاة إليهم وزفّونه لهم كبشرى قيمة لا تقدر بثمن ما كانوا يتوقعون أن تأتيهم بهده السهولة، والإعجاز يكمن في كيفية معرفتة ان الغزاة كانوا يأتون من هذه الناحية ومن أنبأه بذلك وهو الطاريء على المنطقة؟، هذا ولم يحدث من قبل أن تلقت أية واحة أخرى عروضاً مجانية مشابهة من أحد، مما اشعرهم بأهمية المفاضلة وجعلهم أكثر استعدادا لتقبله والرضا عنه وأصبحوا أكثر تجاوباً معه ولهفةً للتقرب منه، لأن هذه الناحية كانت مصدر قلق وإزعاج لهم بالفعل، وتخيفهم على الدوام ويحملون همها منذ القدم، ما دام لديهم إنتاج زراعي وحيواني وفير وجيد تتحدث به بقية الواحات، والذي عادة ما يفيض عن حاجتهم ويغري اللصوص كثيراً بمهاجمتهم ونهبهم،

وهذا أكبر دليل على إنهمام والده بمشكلات الواحة حياً كان أوميتا على السواء وها هو يُخلص للواحة ويخلّصها من اللعنة الدائمة التي الصقت بأهلها وظلت تلاحقهم منذ زمن بعيد غير معروف، لذلك كونوا عنه فكرة جيدة وحملوها في نفوسهم، واصفينه بأبهى النعوت وبأنه الطيب الصيت الذي لديه الكثير من الكرامات النادرة ولا يخشون شراً من جانبه بل على العكس من ذلك يأملون منه تقديم صنائع معروف أخرى لا تحصى، وإنه يترفع عن التفاهات والمخاوف التي يشكّون فيها ووعدوه ببذل جهودهم لخدمته واسداء العون له، مما حدا بأحد الرعاة أن تطوع بمحض ارادته كاذباً بتلفيق قصص من نسج خياله عن عمران ليسردها للناس موضحاً فيها ما شاهده بأم عينه من كرامات تدعم ما وصفه به لهم، وقد اقتدى به فيما بعد جل الرعاة وأخذوا يتنافسون بشكل محموم في نسج قصص تنم عن خوارق وكرامات قد اتى بها الشيخ وكلها تصب معانيها في تمجيده والرفع من قدره وقدراته وتمنحه مكانة لم يصلها احد من قبله، ويتسابقون فيما بينهم من الذي يأتي بحبكة متقنة أفضل من الآخرين والناس يتلقفون هذه القصص بمتعة متناهية ويستمتعون بسماعها واعادتها بصيغ أجمل من الأصلية، كما أن الرعيان – متعمدين – قد تحدثوا اليه وتناقشوا معه كثيراً في أمور شتى، وجاسوا أعماقه فلم يجدوا أثراً لعداء أو حملاً لكراهية، بل اكتشفوا فيه كنزا من التفاؤل وحب العطاء والتحمس للبذل ونكران الذات والايثار، كما شكك الكثيرون منهم في ان يكون هذا المخلوق قد وصل إلى هنا على قدميه أو على دابة، بل هبط من السماء مباشرة كهدية الهية حصرية جاءت في وقتها لإنقاذ واحتنا، معتبرين ان وجوده بين ظهرانيهم يَعِدُ بالخير الكثير، ومنافع لا تُحصى للواحة وأهلها، وهي

ذات الفكرة التي سعي بكل جهده إلى بثها ثم ترسيخها في أذهان أهل الواحة كي يقبلوا به نزيلاً ويرتضونه مقيماً ومكرماً لديهم، ويحظى بالمكانة التي يريدها لنفسه، وهذا أقصى ما يتمناه في الراهن تهيئة للخطوة القادمة، التي ستقربه أكثر من ساعة الصفر المنتظره للشروع في تحقيق ما طرأ عليه من مطامح ومطامع وأهداف ومايفكر فيه من نجاحات متوخاة ستنسيه صدمته التي لازالت ترهقه وتنال منه ويعوّض آثارها التي أفشلته بنجاح بديل باهر، بقي يتابع الأحداث التي تمر بها الواحة في توجس وحذر حتى لايساء به الظن ويكون موضع شك وبالتالي تفشل خططه وتضيع أحلامه دفعة واحدة قبل ان يحقق منها شيئاً، توطدت علاقته بأحد الرعاة بصورة خاصة أكثر من الآخرين ولكن ذلك ليس مجرد صدفة بحتة بل لما لمسه فيه من نباهة وفهم وتوخاه من استعداد لتقديم الخدمات الناجعة ويمكنه الإستفادة منه أفضل من غيره وعلى أكمل وجه، وأن كلاً من الاثنين كتّم حقيقة سبب تقربه من الآخر وصميم نواياه تجاهه، كل منهما لديه شكوكه في الآخر، فالراعي القلق لايزال يخشى أن تطول إقامة الزائر الغريب هنا ويكون مجيئه بقصد عملية استطلاع أو جوسسة متقنة لا تحمد عقباها، مثلما يفعل الجواسيس والعيون السريّة المبثوثه في أي مكان آخر، الذين يتظاهرون منذ البداية بالعفوية والبراءة والغفلة وهم يسجلون كل ما يصلون اليه بدقة ويحفظون ما يتحصلون عليه تمهيداً لغزوة متوقعة من قبل إحدى المناطق المجاوره والمجهولة والتي قد تكون جندته لقاء أجرة مجزية وكلفته للقيام بمهمة جمع المعلومات والأسرار عن كل ما يحيط بالواحة، كي يستفاد منها أثناء غزوها للواحة، وهي المعروف عنها وفرة الإنتاج الزراعي والحيواني وجودتهما حتى أصبحت هدفاً مغرياً ومَربَحاً سهلاً للغزاة

والطامعين. بالأخص وأن موسم حصاد المحصول من القمح والشعير قد إنتهى منذ شهور قليلة وهذا يعني تكدس الإنتاج ووفرته، إذ لم يستهلك منه حتى الوقت الحاضر إلا القليل أو لم يمس بعد، وأن لديهم الآن الفائض عما يحتاجونه والذي يبقونه احتياطياً لقادم السنين المجهولة، وأيضاً جني ثمور النخيل يوشك أن يبدأ في فصل الخريف، فلا يترك كل شيء للصدف وحدها، فما الذي جاء به إلى هنا في هذا الوقت المخيف والمريب بالذات ؟

هذا السؤال الهائل يبحث عن اجابة عاجلة وملحة قبل أن يستفحل الأمر ويفوت الأوان ويصبح رد الواقع من المُحال. بينما في حقيقة الحال جاء الرجل الزائر يبحث عن مأوى ليخفي فيه نفسه عن اهله والبقاء من أجل تحقيق غرض آخر جديد يتكتم عليه وربما لم تعرفه الواحة ولا تطرّق اليه تفكير أي من أبنائها من قبل، ولم يفكر مطلقا فيما ذهبتّ إليه شكوك الراعي الذي يظن انه جاء من أجل أن يكون جاسوساً لهدف مختلف. وبمرور الوقت أخذ يستخلص المعلومات التي يريدها لأمره من الراعي دون أن يدري به، ويأتيه بالأخبار دون وعي منه بذلك، وصاحبنا ينتقي منها مايهمه ويفيده، ويوفر الباقي احتياطياً لتفسير وتحليل المستجدات وقادم المتغيرات وهو على حذر تام بألا يظهر منه أي دافع خفي لهم من وراء ذلك. الرعاة الآخرون آلفوه وانظموا اليه، وأخذت علاقاتهم تتوطد به شيئاً فشيئاً إلى أن أصبحوا جميعاً أصدقاء حميمين له، ويثقون بأقواله وأفعاله، وإلتزموا بشكل منضبط بزياراته التي يقومون بها كل صباح عندما يخرجون إلى المرعى مصحوبين ببعض الأطعمة معهم كهدايا له، وبعد ان ازدادت الحميمية أكثر أضافوا اليها زيارة المساء عند عودتهم إلى بيوتهم حيث يكون في إنتظارهم بعد أن يوقد لهم ناراً كبيرة ليتدفأوا

بها ثم يواصلون مشوارهم إلى بيوتهم، لكن زيارات المساء لاتطول لأن الاغنام تكون شابعة وضروعها ملأى بالحليب ومتلهفة للعودة إلى زرائبها حيث ينتظرها جديانها كي ترضعها، بينما في الصباح تكون الشياه جائعة بعد ليل طويل بلا أكل، فتهم بالاسراع للإنتقال إلى المراعي حيث الأعشاب، وقد إرتبطوا به وأصبحوا لايطيقون أن يفوّتوا زيارة واحدة أو يضيّعوا لقاءً ولا تكتحل أعينهم بمرأى وجهه المكرم، فانتهز فرصة ذلك وبدأ يتهيأ لخوض حوار معهم، وينتقي على مهل الكلمات التي يجب قولها أثناءه بغية حصوله منهم على أفضل دعم ممكن.. وعندما أصبح الحوار جاهزاً قرر في احد الأصباح مفاتحتهم به وكأنه أمرا عابرا لا تكلف فيه، بعد ان اشعل لهم النار كعادته، وتحلقوا حولها وهم يمدون أيديهم ويلامسون رؤوس السنة اللهب بادرهم بقوله: —

لو تعرفون إلى أي مدى أحبكم؟ .. إني اقدّر فيكم هذا الحماس والتفاني في آداء اعمالكم! اذ لم تتخلفوا يوما واحدا عن المرعى وكأنكم بلا عطلات ولا اجازات ترتاحون خلالها، وفي حسباني أنتم أفضل من أسياد وعُمد الواحة! وأضاف بل انتم اسياد الواحة الحقيقيين! وهنا ما ان سمع الرعاة الكلمة الأخيرة منه حتى تبادلوا نظرات الاستغراب وربما الاستنكار فيما بينهم مما يقول!، هل هو ساخر منهم ومن عملهم، أم انه جاد فيما يقول بهذه الجرأة غير المألوفة، كيف يكون هذا وهم الرعاة البسطاء الذين لا يعرفون شيئاً آخر غير الرعاية وتربية الحيوانات؟، وخشية ان يذهبوا بعيداً بهواجسهم ويسيئون تفسير كلمته هذه، تداركهم وعاجلهم بمواصلة الحديث مؤكداً: —

نعم انتم عندي أسياد الواحة الحقيقيين، وليس غيركم ما في

ذلك شك، انتم ترعون الأغنام وتنتجون الخراف والألبان ومشتقاتها والأصواف والجلود، وهم يستفيدون متنعمين من هذه المنتجات دون جهد ولا استحقاق، يحتسون الشاي الأخضر مع شطائر الخبز ويأكلون العصيدة بالسمن وانتم تقتاتون على الأعشاب البرية أحيانا مثل الأغنام التي ترعونها، يا ترى من هم الأفضل؟ أانتم أم هم؟

ازدادتْ شحنة الدهشة لديهم، وجحظت أعينهم اكثر من ذي قبل! وبعضهم وقف على قائمتيه متحيراً ولم يطق سماع الخبر وكأنه يريد ان يهرب وينأى بنفسه من تكرار هذا الكلام من الشيخ، لكن قد راق لبقيتهم سماع هذه الكلمة الفارقة التي سمعوا بها لأول مرة ونبهتهم لحق من حقوقهم كان مهضوماً، واستساغوها من رجل غريب لا يعرف أحداً من أهل الواحة فلا يحب ولا يكره أحد منهم، ولا مصلحة معروفة له في قولها، وهو لايزال يتابع بانتظام التغيرات التي تطرأ على الواحة وما يستجد بها من احداث بما يتلقاه منهم من أخبار أولاً بأول، ولا يتوانى أو يضيّع فرصة إلا ويستفيد منها في تجنيدهم للدعاية له والتبشير بمقدمه كمخلّص منتظر.

الأبيض أسود 5

ولأنه اصبح يمتلك مهارة إستقاء الأخبار بفنيّة متقنة وإستخلاصها من محدثيه بدقة ويصيب تحليلها بنجاح فسرعان ما جمع الكثير من المعلومات وكوّن رصيداً هائلاً من الحقائق عن الواحة مستفيداً من علاقاته الجديدة التي تتنامى بسرعة في كل يوم يمر معَ الرعيان، وتمكن من الإحاطة بكل كبيرة وصغيرة فيها، التي يمنحها جل وقته ليفرزها ويتفهمها خبراً خبراً دون عناء ولا يهمل أو ينسى من دقائقها وتفاصيلها شيئاً، مدفوعاً برغبة المعرفة وحماسة الإكتشاف لينمي ارتباطه بالواحة ويقوّيه بعد ان وجد فيها ما يشجع على اتخاذها موطناً جديداً له متمنياً الإنتماء اليها، وتنامى فضوله لمعرفة المزيد وإدراك ما هو خافٍ عنه، وأصبح حريصاً على فهم كل ما يمت إلى الواحة بصلة، عله يقربه منها، وهي التي أضحت هدفه الوحيد.. وسيكون سيدها الأول، والا لا معنى لنضاله وتفانيه ولا لحياته برمتها، فألمّ بأحوالها وخفاياها وأسرارها سريعاً، وتعرف على خصوصياتها وعمومياتها على السواء وتقسيماتها العشائرية ومكوّناتها العائلية والأواصر والعلائق التي تربط بين الأشخاص وكذلك الأسر من دم ونسب، لم يستغرق وقتاً طويلاً حتى كاد ان يتعرف على جميع سكان الواحة بما في ذلك المتغيبين عنها الآن وايضاً المهاجرين الذين قد لا يعودون اليها قطعاً وان كانوا ليس بأهمية الباقين، واضطلع أيضا على عادات وتقاليد ونشاطات أهلها وما يميزهم عن غيرهم من طباع وصفات اذ تعرف على دقائق اسلوب

حياتهم، ومن دقة إلمامه وشدة شغفه وحرصه على اقتناء كل ما يمت إلى الواحة بصلة أن أصبح ما يحمله هو من معلومات وحقائق تخص ناس الواحة وتتعلق بهم لايعرفونه هم عن أنفسهم، وكلما زف اليهم معلومة يتفاجأون بها ويتساءلون في حيرة وانبهار عن كيفية وصولها اليه وكيف تمكن من إدراكها والحصول عليها بهذه الدقة وهو الغريب البعيد وكأنه يستوحي الغيب، من هنا منحوه اعترافهم بقدراته الخيالية والاعجازية، وأصبح بمثابة باحث وخبير في شؤونهم وأصولهم منذ جدهم الأول الذي يُنسبون إليه، ويُسمّون بإسمه إلى يومنا هذا، كما أدرك تماماً التوازنات بين العشائر والبطون ودرس التحالفات والتكتلات الإجتماعية السائدة فيما بينهم والتي تُعَدُ سراً من اسرار الواحة الخاصة لايعرفها الا القلة من أهلها الأصليين، وأخذها في إعتباره لتكون حاضرة في ذهنه على الدوام ويستعرض بها قدراته على السبر والتنبؤ كمعجزة ودليل على تفوقه اذا لزم الأمر، وللإستفادة منها وتوظيفها وقت تنفيذ مخططاته عندما يحين موعدها فيما بعد لإعادة بناء وتركيب الواحة وفق الرؤية المبيتة. أراد أن يكسب ود الرعاة جميعاً دون ان يترك او يهمل أحداً منهم، ويمنح أهمية لكل من هب ودب فلا شيء عنده خُلِقَ باطلا بدون غرض يمكن له ان يؤدّيه ويحق لنا الإستفادة منه، ولكن الأولوية بحسب الأهمية لكل منهم وقدرته على العطاء، وهم الذين بقوا أقصر عن إدراك ما يحدث لهم ويدور عليهم – فالدهماء أغلبيتهم إمعيون يصدقون المنجمين ولو كذبوا – وليكوّن منهم جيشاً دعائياً سابقاً ليروج لمكانته الجديدة وليمهد له طريق الفتح، وهم الذين لا يمكنهم تجاوز هذا الدور، معتمداً فكرة (دائماً الأشياء القيمة تخلدها ذاكرة الأجيال الواعية) وأخذ كل راعي يستدعي أصدقاءه ومعارفه ويقدمهم لعمران

كأصحاب جُدد موثوق فيهم، ويعرّف بينهم وبينه مثنيا على خصاله وعلى شخصه واصفاً اياه بكل صفات المرؤة والإفتداء ومعرباً عن إفتخاره وإعتزازه بتعريفهم عليه وكأنه يقدم لهم هدية ثمينة كي يشجعهم على تقبله دون تردد والإقتناع بما يقوله لهم واعتناق آرائه وتنظيراته، وبدأت عملية الحشد واحد يستقطبُ الآخر إلى أن تكوّن لديه لفيف كبير من الأتباع والمريدين، الغريب في الأمر إنه لا ينسى إسم أي ممن تعرف عليهم فمنذ اللقاء الأول مع الشخص يرسخ اسمه في ذهنه وما أن يلاقيه ثانية ولو بعد غياب طويل حتى يناديه بإسمه ولقبه كاملاً وصحيحاً وبقية البيانات التي قيلت أثناء اللقاء دون تلعثم أو تلكؤ، وذكر شهرته أو ما يميزه ان كان له ذلك وكأنه يقرأها من صفحة غير مرئية أو يمليها عليه احد كائنات الخفاء بكل وضوح، مما يثيرإعجاب الكثيرين بفراسته، كثرَ الأصدقاء الذين أغلبهم من الرعيان وكونوا لفيفاً متضامناً يسعى لهدف مشترك يوحد بينهم، أحس بأنه يتقوى شيئاً فشيئاً ويشتد ظهيره، وأمدهم ببعض الأساطير والعجائب والخوارق الداعمة له التي نسبها لنفسه لتسبقه ويوزعونها وينشرونها مجاناً نيابة عنه حتى تصل إلى أكبر عدد من الناس في اعماق بيوت الواحة، ويطلبون ممن يروونها له بالتكتم عنها والتسرر بها بحجة أن رجال الله يفقدون برهانهم وبركاتهم وحتى كراماتهم البيّنة اذاعلم بهم الجميع وانكشف سرهم للغير، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ليكسبونها أهمية خاصة ويهبونها صبغة إعجازية وحتى تحافظ على طزاجتها ولا تفقد قيمتها في مدة قصيرة وهذه خطة ستساعد على انتشارها وذيوعها بين الأهالي في أسرع وقت، وتتعمق في نفوسهم أكثر من تداولها على الألسن فقط مما يفقدها شيئاً من الأهمية، وبهذا يأخذونها مأخذ الجد وحتى يصبح

الوثوق بما يعمل هو الشعور السائد بين أغلب سكان الواحة، والخبر اذا اردت له الإنتشار الواسع والسريع والراسخ احتسبه سراً فيصبح ثميناً ويكتسب قيمة واهمية مجانية فيحرص كل من يسمعه ان يتفضل بالبوح به لمعارفه وكأنه يمنحهم هدايا ثمينة، والناس يميلون إلى تصديق ما يقال لهم خاصة عندما يأتيهم من أكثر من مصدر، وهو متيقن من مسلمة قد توارثها عن أجداده في الواحة السابقة الذين يكرهون الجهل، مفادها (أضعف من قلب جاهل وأقوى من عقل متعلم) وأن العالم يعلم ويتعلم في نفس الوقت، بينما الجاهل لا يعلم ولا يتعلم، ومن هذه الخوارق التي نسبها لنفسه كأن يأتيه لزيارته أشباهه من أولياء الله الصالحين الذين هم من مناطق وأمكنة أخرى قصيّة في أخريات الليل وأحيانا عند الفجر دون علم أحد متمثلين في طيور ناصعة البياض هادئة نادراً ما تصدر أصواتاً، تدخل عليه في مكانه خفية حيث يستريح فلا يراها أحد، يجتمع بهم ويتشاور معهم ويستقبل منهم التعليمات والتوجيهات العليا التي جاءته بها ثم يحمّلهم ما يود إرساله ويودعهم ليعودوا إلى أمكنتهم التي جاءوا منها. إتخذ من هؤلاء الرعاة رأس حربة يقدموا له التسهيلات اللازمة دون ادراك منهم، كي يقتحم بها الواحة ويستهل بهم طريق دخوله بأن يمهدوا لمقدمه بما ينقلونه عنه من أخبار شيقة ومفرحة تسبقه لتحببهم فيه، بتوجيه مضمر منه إلى أهل الواحة الذين يحتاجون لسماعها، وتلاقي قبولاً منهم لتحببه اليهم وتضعه في مصاف الأولياء الصالحين الذين يعتد بهم وتحصلوا على براءة الولاية، ويبالغوا في إمتداح شيمه وشمائله ويحرضون الناس على زيارته والتبرك بملاقاته، ويكون هو الذي ملأ أذهانهم بما شاء من المعلومات التي يتقبلونها منه وأرادها أن تصلهم وتخدمه كي ينشرونها بين ألأهالي، معتمداً مبدأ بشّروا

ولا تنفروا مستهدفاً النساء بالدرجة الأولى ثم الأطفال، لأنهن من يسيطرن على سوق الإشاعة والقيل والقال في المجتمع، ولهن ميل غريزي إلى سرعة التصديق بالعاطفة وتقبّل الجديد كيقين دون تثبت أو تروٍ، ويتمتعن بالقدرة على إقناع الرجال بسهولة والإستحواذ على أذهانهم في الوقت المناسب وتوجيههم وفق مشيئتهن، وأيضاً إتقان فن الدعاية والترويج خاصة في الأمور التي تهمهن وتلامس عواطفهن، وهو سيد العارفين في ذلك. أبدى للرعاة عن إستعداده لعلاج الأطفال الممسوسين والذين يعانون من إصابات بالعين مما يؤرق أهاليهم ويجعلهم يقدّمون أي شيء في سبيل اشفائهم، وطلب منهم البحث عن اؤلئك المرضى، وهو سيتكفل بمعالجتهم وإبرائهم عن بعد مجاناً، وأصبح يبعث لهم العلاج على هيئة أحجبة ومياه مرقاة .. بعضهم يشفى والبعض الآخر يحاول معه مرة ثانية وثالثة ... الخ .

ويتعفف عن أخذ مقابل مادي كانت هذه الطريقة هي المثلى ليمتد صيته إلى أمهات هؤلاء الأطفال اللواتي بدورهن سيتولين ذاتياً ودون تكليف نشر ما يحدث لأطفالهن وما لاقوه على يد هذا الشيخ من شفاء أو تحسن. واذا ما سارت الخطة وفق ما رسم لها وخطط سيكون في غضون أشهر قليلة فقط قد إستحوذ على قلوب الكثيرين ونال إعجابهم دون رفض أو مقاومة تذكر وإفتك مكانة ما كانت متاحة له. شاء أن يمد جسور الود ويعقد روابط متينة مع الأعيان والناس المهمين في الواحة يبتغي من وراء ذلك ان يستميلوه اليهم ولم يرضَ ان يستميلهم اليه، وأوصاهم بأنه يعرف أهل الواحة جميعاً حق المعرفة وان كانوا لا يعرفونه ولاحتى رأوه أو التقوا به البته، لأن الطيور(حائم الجو) التي تزوره في الستر قد حدثته عنهم ووصفتهم له واحداً واحداً بكامل التفاصيل دون ان يجهد نفسه في البحث

والتقصي عن ذلك، وأعطته الأسماء التي يعتمد عليها الحل والربط في الواحة ويمكنه الإستعانة بهم والإستفادة من مكانتهم، سألهم ذات مرة: —

هل تعرفونني؟. أجابوه : —

بلا، فرد عليهم اذن انتم تجهلون نصف العالم. أجابه احدهم مؤيداً: —

بالتأكيد نحن نجهل العالم كله وليس نصفه فقط ما دمنا على هذه الحالة!. قال أحد الرعاة لرفيقه كي يعرف منه ما إذا كان على وفاق معه فيما يفكر فيه ام لا : —

أنا أشعر بميل حقيقي وصادق نحو هذا الرجل الذي حل بيننا والمختلف عنا كلية في تصرفاته وحركاته والغريب في أطواره وتفكيره.

شيء ما أحسُ به يملؤني ولا أعرفه ولامن أين أتاني يجذبني اليه ويحببه اليّ! ولا أستطيع له مقاومةً و لا تفسيراً وسيربطني به، هل تلمس ذلك مثلي ؟ ثم مارأيك في قولي هذا من أساسه؟

— هذه المرة الأولى منذ ان صرنا رجالاً نلتقي فيها بعابر سبيل في واحتنا يمتلك قدرات غامضة، ونقيم معه علاقة تعارف ونتقبله عن طيب خاطر بيسر وسهولة !

— فهو على ما يبدو رجلٌ مباركٌ، مغلوب على أمره، طوحت به الأقدار إلى هنا، زاهد أقرب إلى الآخرة منها إلى الدنيا.

— أنا لا أحتاج إلى كثير من الوقت للوقوف على حقيقة الشخص، اي كان اذا ما وضعته نصب تفكيري أو إستهدفته بحدسي الذي نادراً ما يخطيء او يعجز عن تفسير شأن. — ولكن تأكد لي ما تزعم، فما تفكر فيه انت أفكر فيه أنا أيضاً منذ

زمن ربما قبلك، لأننا لنا توجسات ومخاوف واحدة ومصلحتنا مشتركة، واهتمامنا بها متساوٍ.

– ولكن هل كل ما يدور في رأسي يدور في رأسك أيضاً ؟

– هز رأسه بالايجاب في صمت . هل تظن ان شيوخ وأعيان الواحة سيتضايقون منه إذا ما عاش بيننا ؟

– لا أظن ذلك، وربما هم سيتمنون قدومه عندما يتعرفون عليه أكثر عن قرب ويألفونه .

6 الأبيض أسود

عندما مات كلب عمران دفنه على عجل وبسرية تامة في قبر شبيه بقبور البشر للتمويه، بحرص فائق دون أن يراه أحد، بعد أن فكر ملياً فيما يتوجب عليه فعله لإستثمارهذه الواقعة وتوظيفها لصالحه، والتي تُعدُ حدثاً مهماً بالنسبة لإنسان ليس لديه وما تبقى له في هذه الدنيا الا كلبه هذا، ثم مات، وهو الذي لا يفوت شاردة ولا واردة، ولا يترك كبيرة ولا صغيرة مهما كانت تافهة وبسيطة الا وحاول الإستفادة منها لخدمته وأحسن إستغلالها للمهمة التي استحوذت على تفكيره واستبدت بإهتمامه وأخذ عهداً على نفسه ألا يتراجع عنها أو يتوانى عن تنفيذها مهما كلفت من ثمن ولو كان حياته، وأصبح لا يتمنى ان يضيّع لحظة الا في التخطيط لها والتدبر في شأنها، استرعى انتباه أحد الرعاة وجود القبر الجديد، فسأل عمران عن صاحب هذا القبر ولمن يكون؟، لأنه قبر حديث وغير موجود في هذا المكان من الواحة في السابق القريب، والذي يعرفونه شبراً شبراً، فأجابه عمران على الفور ودون تردد وفق الترتيب المعد في ذهنه والمدروس، بأنه قبر والده المتوفى حديثاً قائلاً لهم مستدركاً، وكأن صاحب السؤال قد استنطقه : — القبور فم الأرض، وأضاف : — الأرض هي الأم التي تحمل أبناءها فوق ظهرها ماداموا أحياء ثم تأكلهم في النهاية آجلاً أم عاجلاً ! والعد التنازلي للموت يبدأ من لحظة الولادة، والحياة تستبدل أهلها في كل يوم، وكان أبي الذي هذا قبره (مشيراً) — كما رويت لأحدكم من قبل ـ يجترح المعجزات في

علاج الكثير من الحالات المستعصية، وكنتُ – أنا – برفقته في مهمة علاجية في هذه الرحلة لعلاج أحد المرضى المسوسين، الذي أعيَّ المداوين طبُّه بناء على دعوة ثمينة جداً من أهله يمكن ان نصفها بصفقة العمر لو قدر لها الاكتمال، ولكن المنية عاجلتْ أبي في هذه البقعة الطاهرة على مشارف واحتكم العامرة قبل أن يتم مهمته وأرى في ذلك حكمة أرادها القدر الذي تدخّل في هذا دون شك ولا أعرف من سيكمل المشوار من بعده؟، وإنه كان (وفياً) ولم يتخلَ عني في أحلك الظروف إنه من الأولياء الصالحين الذين لا يُشق لهم غبار في إشفاء المرضى، وإبطال مفعول السحر وكشف ومعرفة السّحَرَةِ السود المجهولين** وتعريتهم أمام بقية خلق الله ليكونوا عبرة لغيرهم، ودرء المصائب والتنبؤ بوقوعها اذ ينزع الحجب ويكشف المستور، انه في خدمة العباد أينما كانوا ومن يكونوا لا فرق بين هذا وذاك، وكان (عليه الرحمة) كريماً ورعاً لا يفوّت فرصة لفعل الخير، إلا وإستغلها وبادر بصنعه دون تردد، ولا قابله في الطريق مسكيناً يحتاج إلى مساعدة إلا وكان سبّاقاً وهبَّ لنجدته وتقديم يد العون والمساندة له، ولايتوخى من ذلك لا جزاءاً ولا شكوراً، وكان يشخّصُ المرضَ عن بعد دون فحصٍ مباشر أو حتى رؤية المريض، بل يكتفي بإحضار خاصة من خاصياته أو أي شيء يمت إليه بصلة كمعرفة اسم امه مثلاً(وليس أبيه) وبمجرد ان يراه ويلمس تلك الحاجة حتى يكون قد تعرّف على كل شيء دفعة واحدة واهتدى إلى العلة عن طريق هذا الشيء الجماد، وعلى ضوْ ذلك يمنح الوصفة الناجعة، ومن بعد مماته حملتُ عنه هذه الكرامات التي أوصى بها لي، ولكن ؟؟!!.

الأبيض أسود 7

وجدوا في غرابة عمران عن المنطقة صفقة ثمينة لاتعوض وفرصة نادرة لا تتأتى في كل الأحوال بهذه البساطة والإكرامية وقد لا تتكرر اطلاقاً مرة أخرى في زمن قادم لامعه ولا مع غيره كانت على مقربة منهم وهم لا يدرون بها، من هنا يصبح الإهتمام به ضرورة وعليهم إغتنامها قبل أن تتقادم وتضيع من بين أيديهم، فقد يغادر المكان دون علم منهم إلى وجهة غير معلومة ويصبح البحث عنه أمراً عسيراً وكذلك العثور عليه أصعب بكثير، فرجال الله في معظم الأحيان يكونون نكرة لا يُعرَفُ لهم آباء ولا أمهات لا اخوة ولا أخوات لا أصول ولا فصول ولا وطن محدد لهم، وكأن الواحد منهم قد هبط في غفلة عن الجميع من عليين. وعدم إنتمائه إلى جهة معينة أو قبيلة محددة فيه الكثير من الحيادية والبراءة والإعتدال وإنه يتمتع بالحدود القصوى من النزاهة، وعدم توفر المبررات التي قد تدفعه لتغليب جهة على أخرى او محاباة طرف على حساب طرف آخر، وسيكون عادلاً منصفاً غير منحاز لأحد فلا أقرباء ينتمي اليهم ولا أنسباء له يفاضلهم عن غيرهم، يقف من الجميع على مسافات متساوية، ويكيل بمكيالٍ واحدٍ، فرحوا وارتاحوا عندما اهتدوا إلى هذه الميزة التي كانت غائبة عن أذهانهم ووجدوا أنفسهم مهيئين للقبول بها وتبنيها، كما أدركوا بحسهم البسيط أنه رجل صاحب رؤية طموحة ستأخذ بواحتهم إلى العلا، وجاءهم حاملاً الخير المأمول والوعد الواثق، فكان بحق الرجل المناسب في الزمن المناسب والصعب، وكانوا من قبل

يحتاجون لمعجزة كي تحقق لهم هذه المعادلة وتنجز لهم هذا المطلب وهذه الأمنية، وتحل إشكاليتهم التي بقيت معلقة تؤرقهم أزماناً، فما بالك ها هي قد جاءتهم تسعى بنفسها إلى ما بين أياديهم سهلة مسهلة وتعرض نفسها عليهم بلا ثمن بل وتحاول أن تغريهم بالقبول بها، دون أن يَشُقُّوا كثيراً وراءها أو يجهدوا أنفسهم في سبيل البحث عنها، وأدرك أن الأجواء والمواقف مهيأة تماما للقبول به والرضا عنه من قبل كل الشرائح المكونة للواحة كرجل فائدته في الجميع وفائدة الجميع على السواء في توليه ما يفوضونه عليه من أعمال ومهام، وكرجل يعمل على عدم وقوع الفُرقة والإنقسام في الصفوف وبين القبائل المتنوعة ساعياً للم الشمل محافظاً على وحدة الموقف ووحدة الكلمة، وتحت الحاح الحاجة اليه رأوا أن يسلموه أمرهم طائعين قانعين به كحل لا بديل يمكن معرفته عنه، وأوكلوا له مقاليد الشؤون الحياتية وأجمعوا على مبايعته دون تردد أو إعتراض من أي طرف من الأطراف، بل هو الذي تظاهر بالتأفف والتمنع كعادته إمعاناً في الغلوّ والمخادعة حتى يزداد إلحاحهم عليه للتكرم بالقبول مبدين استعدادهم للنزول عند جميع مطالبه ورغباته وتوفير كافة إحتياجاته ولوازمه، بينما يحمل في باطنه كل التمني واللهفة ويشعر في داخله بكل الإنبساط ..إعتذر ليناً بنفسه عن الشكوك وعن تحديات لايجني من ورائها سوى المتاعب والعرقلة كي يزدادوا تمسكاً به وتعلقاً بشخصه النبيل، ولا يترك أي حيزاً للشك فاذا ما وافق من فور سماعه للطلب يصبح موضع ريبة وطمع وتطفّل وهذا ما لا يريده، متظاهراً الزهد في السلطة والتعفف عن المناصب والمكاسب ليزداد الحاحهم عليه كي يقبل بشرف المهمة التي إختاروه لها وأوكلوا بها اليه ويلقوا في يده زمام أمرهم، بقي متردداً بين التصريح والتلميح

بين التستر والظهور كلما ازداد تمنعاً إزدادوا اصراراً عليه وتمسكاً به. كان لايحبذ العشوائية ولايميل إلى التفاؤل المفرط دون ضمانات حقيقية، متبعاً سلوك الذئب الذي تعلموا من طبائعه أشياء كثيرة، بحكم انه من كائنات نفس البيئة التي يعيش فيها، فيضع أسوأ النتائج في أفضل إحتمالاته، ليس تردداً ولكن تريثاً، حتى فضلوه عن غيره وأصبح الرجل المؤهل لقيادة الواحة والإشراف على تطورها ونموها وإدامة الهدؤ واستتباب الأمن في ربوعها، ومن يكون سواه بقادر على ذلك؟.

8 الأبيض أسود

سيطرعلى الجميع إحساس، سرعان ماتحول إلى قناعة لا تقبل التراجع بضرورة وجود رمز إجتماعي وزعيم روحي في كل قرية وواحة، يلتفون حوله ويوحّد كلمتهم وينقذ وجودهم من الزوال الذي يتهدد بعضها من وقت لآخر، ويملأ فراغاً مخيفاً في نفوسهم يحسون معه بالضعف والتمزق والهوان، فالحاجة إلى الرمز والرأس المدبر الذي يفكر نيابة عنهم ويتولى تسيير أمورهم ويغطي عجزاً كبيراً لديهم، أصبحت حاجة ملحة أكثر من أي وقت مضى، وضرورة حتمية من ضرورات البقاء والقوة ولايمكن السكوت عن المطالبة به أكثر، فلا كيان بلا قائد يبنيه ويحقق لهم الرفعة وعلو الشأن، والزعيم عصب الكيان، وأن هذا المنصب بقي شاغراً منذ سنين خلت إلى الآن، بسبب الإختلاف والخلاف – عن من يكون هذا القائد الذي يرضونه ويتفق عليه الكل ويبايعونه بالإجماع – والناجم ايضاً عن الحماقة وحب الذات التي جعلت من كل طرف يرتاب فى الطرف الآخر ويشكك في نواياه تجاهه؟ وجرت العادة في السابق أن يكون هذا الشخص بالضرورة من أبناء المنطقة الحقيقيين وليس دخيلاً عليهم أو نزيلا بينهم ولا سفيهاً غير راشد، إلا أنهم الآن قد قبلوا بالغريب فأدركوا أخيراً أنهم كانوا على خطأ عندما رفضوا استقبال الغرباء، وأن الحل كان قريبا منهم أو بين ظهرانيهم إلا أنهم لايدرون به أو يتجاهلونه ويستبعدونه دون وعي حقيقي بأهميته، حيث الحل يكمن في هذا الشرط المخالف ؟ فنقطة الخلاف هذه هي التي رجحت كفته لأنه

غريب عنهم، وكانت سبب فشل محاولاتهم السابقة في أختيار شخص ملائم يتفقون عليه وينصّبونه قائداً، فكل قبيلة تريده أن يكون من ضمن أحد أبنائها بأي وسيلة كانت، والتنافس يحتدم فيما بينهم على أشده حتى يصل إلى حد التزوير ويحتم تحايل بعضهم على بعض للظفر بهذا المنصب، وهنا يكمن الخلاف الذي لاينتهي إثر التحاسد والأنانية وحب الذات، واختياره سيكفيهم شر التباغض والتطاحن، الشيء الذي أفشل محاولاتهم وأضر بهم كثيراً في السابق، ومن الشروط الواجب توافرها فيه ولكي يوفق في مسعاه أن يكون أقوى من نظرائه في المناطق الأخرى والواحات المجاورة قدر الإمكان، ويكون قد سبق له أن جاء بالخوارق والعجائب كوسيط روحاني، أو قدّم أعمالاً جليلة للواحة وأهلها وبطولات يعجز عنها سواه، فهذه هي المؤهلات المطلوبة والمواصفات المستحبة والتي يشهد بها الناس ويشيدون بجدارة واستحقاق من تتوفر فيه، حتى يصادقواعليه ويرتضونه وليّ أمرٍ عليهم، وعندما يتم اختياره والإتفاق عليه يتعصبون له أشد التعصب ولايقبلوا التجريح أو الطعن في نزاهته بعد ذلك، لأنه قد سَمَتْ مكانته وانتقل إلى خانة رفيعة وأصبح من المسلمات فلا تطاله الشبهات بعدها، وهيهات أن يتجرأ أحد على المساس بمكانته الجديدة، ويكون رمزاً لهم يتربع على رأس الهرم وينظر إلى الناس من أعلى وينوب عنهم ويتكلم بإسمهم ويقرر بدلاً منهم ويمثلهم في كل المحافل واللقاءات الهامة، فيفاخرون به ويعتزون بالإنتماء اليه ويحامونه وينتصرون له أمام غيرهم وبذا يكونوا قد ساهموا في خلقه، معتبرين في ذلك دليلاً على أن الله يصطفي رجالا لامعين، يتمتعون بقدرات عالية تخرق العادة ولهم باع وتجربة طويلة في الحياة، يختصهم من بين بقية خلقه بقضاء حوائج الناس وتسيير أمورهم وتيسيرها إلى

الحدود الدنيا وتصريف شؤونهم، كفض النزاعات وحل المشكلات والفصل في الخصومات التي تقع بينهم وتحتاج إلى رجل عادل وحازم دون وقوع أضرار، وأخذ رأيه ومشورته لصوابها ورجاحتها، ولابد أن يكون من بينهم من أحبه الله وحبب اليه فعل الخير، وقرّبه منه وأمده بالبيان والبرهان، حتى يتبوأ المنزلة الرفيعة وينال الدرجة العالية، فهم قواري الله في الأرض. وما على الرعايا ان ارادوا مرضاتهم الا ان يضعونهم في مرتبة القداسة ويصبحون أمام هؤلاء الشيوخ كالعبيد طائعين وجلين، يرتعدون من خشيتهم، ولايقووا على رفع رؤوسهم في وجه الواحد منهم، أو مقاطعته أثناء الحديث أو رفع أصواتهم فوق صوته، بل لايتكلمون في حضرته إلا بعد أن يأذن لهم بذلك وأحياناً يتلكأ الواحد منهم ولا يقو على النطق بطلاقة في حضرته حتى لو منح الإذن بذلك، واذا ما أسكتَ الواحد منهم ولو بإشارة من يده يتوقف مباشرة ونهائياً على الكلام، ولا يأتون لمقابلته أو الإلتقاء به إلا بعد إستدعاء منه شخصياً، أو بعد طلب منهم عند الضرورة، قد ينتظرون موافقته عليه ردحاً من الزمن، وعند مصافحته يقبّلون ظاهر يده في خشوع وإمتثال، معتبرين كل أقواله وأفعاله دستوراً يُحتدى ومنهاجاً يُقتدى ولا تقبل الجدل، يوجههم نحو الأصوب ويسّير شؤون حياتهم نحو الأفضل، وفي حسبانه أنهم أقل منزلة منه، وأوطأ قدراً وعلماً، وما عليهم إلا السمع والإستجابة، والتسليم والتصديق بما يتفوه به ويتفوق به عليهم، والإهتداء بهديه، والإحتكام اليه للفصل في شجارهم ونزاعاتهم وليس إلى سواه، ويطلبون منه التدخل للتوسط فيما بينهم وأحياناً بلا طلب يتدخل عندما يرى بنفسه ضرورة لذلك، وأحكامه إذا ما صدرت غير قابلة للنقض أو الطعن في نزاهته، فهو لا يُشكك فيه، فهؤلاء رجال الله، والناس عباد الله إنهم أوليائه في

الأرض يعرفون مالايعرفه غيرهم ويفهمون مالايفهم، ويرون ما وراء الحجاب ويتنبأون بالآتي من الغيب وما تخفي الصدور، وعلى من يقع في قبضتهم مداناً أو شاهداً في قضية إما أن يعترف بحقيقة ما في صدره ويفصح بما يعلم دون طول مساءلة أو إستجواب، وإلا فإن سره معروف لديهم مسبقاً وأمره مكشوف وما تكتّمه وعناده الا تحصيل حاصل لا جدوى منه، وأيضاً الغرض من استجوابه لمعرفة ما اذا كان سينطق بالحقيقة كاملة ويكون صادقاً أم لا، وسيفضحونه علناً أمام الملأ ويتم التشهير به ويعزرونه دون مواربة أشد التعزير على نطاق واسع اذا دعت الحاجة، لأن لهم القدرة الفائقة على سبر الأغوار وقراءة الأفكار المبيتة وإستجلاء البواطن والخوافي، ولا أحد يعترض على إدعائهم هذا أو يتظلم منه، لاتفعل ما يفعلون ولا تتهاهم عما يفعلون، مُجازٌ لهم ما لايُجازُ لغيرهم، فرجال الله يقدر ويحترم بعضهم بعضا، يتحاشون التّواجه أو تصادم النوايا والمنافع ويتفادون تعرض أحدهم لآخر، وأحياناً يصنعون فيما بينهم تحالفاً ضمنياً يصون لكل واحد منهم بقائه في المنزلة ويضمن الديمومة ويحفظ الحقوق حتى لايمس مصالحهم أي خطر، ويوحّد بينهم هدف خفيّ لا يبوحون به لأحد ويسلم به أغلب الناس، وكأن كل واحد منهم يعرف من الذي فوضه لهذا؟، يتبادلون الخواطر بشكل تلقائي ويمهد أي منهم للآخر السبيل لتحقيق مآربه ونواياه مثلما هي له شخصياً، ويعتبر ذلك ديناً عليه إلى أن يحين موعد رده في وقت لاحق كاملاً او بأحسن منه، إنهم يقرأون الأسرار بطرق متفوقة، وهم يجيدون إخضاع الآخرين بتخويفهم والتسلط عليهم ولهم الجرأة على ذلك والمتعة فيه، في مسعى دائم لهم لا يتوقف، وفي أحيان قليلة يحدث بين قطبين تنافر يصل حد الاحتكاك أو التصادم وذلك عندما

ينكر أحدهما على الآخر كراماته ويشكك في براهينه بغية تتفيهه واسقاطه، فيعتبر هذا عدواناً عليه وجبت مقاومته قبل ان يؤلّب الآخرين أيضاً. في نهاية الأمر وجد الناس أنفسهم مهيأين تماماً للقبول بزعيم روحي لا تستمر الحياة بشكل آمن بدونه كبقية المناطق الأخرى التي سبقتهم في هذا المضمار، يأخذ بهم ويملأ هذا الفراغ الهائل الذي يشتتهم وينتظر من يملأه باقتدار، ويؤخذ عليهم أنهم قد تأخروا كثيراً في اختياره وتنصيبه إلى هذا الوقت، وبعضهم بدأوا يحصون الخسائر التي لحقت بهم بسبب هذا التأخير كي يعرضونها على الملأ ويعرّفونهم بحجم الكارثة التي اقترفوها في حق أنفسهم.

الأبيض أسود 9

(9) ومن باب مديح الذات قرر أن يدخل الواحة بصفته المخلّص وهذه الصفة تضمن له مكانة مرموقة وتضعه في مصاف الزعماء الإسطوريين الذين يزخر بهم التاريخ وقد تعلم من سِيَر حياتهم الكثير بعد ان عشقهم وتشبه بهم، إنه الشخص الذي أنتظر أهل الواحة بيأس نزوله كمعجزة من رحم الغيب وقد ارتضوا به منقذاً ووافقوا على بقائه بين ظهرانيهم عن طيب خاطر معززاً مكرماً ما طاب له البقاء ولن يضيّق عليه أو يتضايق منه أحد، لن يدخلها غازياً أو فاتحاً على رأس جيش عرمرم يحمل شروطه على أسنة الرماح ملوحا بالويل والثبور لمن يقف في وجهه أو يعترض مشواره، بل بكل سلمية وبتفوق منقطع النظير من الذكاء والنبوغ، والصبر والأناة وقوة ألإحتمال تحت وجه مستعار وقلب مستعار وإسم مستعار أيضاً، فإسمه الأول الذي أطلقه عليه أبوه وأمه الحقيقيين لايعلمه أحد، فقد بقي هناك في ظل الجرف بذلك الوادي حيث تركته أمه، أما الإسم الثاني الذي وهبه له أبواه بالتبنّي فقد أنكره عندما خرج من الواحة فارّاً وتكتّم عليه حتى لا يتعرّف عليه أحد فيما بعد من معارفه السابقين، وبدا يكون قد أطلق على نفسه إسماً جديداً وإنتحل شخصية مجهولة، ولكن ما هو الإسم الذي إختاره بمحض إرادته بعد أن إختلطت عليه الأمور والأسماء فاستقر على إسمه الثالث والجديد ألا وهو : (عبد الأسماء الحسنى) وأعجبه الإسم وارتاح له كما وجد فيه شمولاً لعباد الله. ومن بين تقليعاته إنه إشترط عليهم أن يخرجوا لإستقباله

عند تخوم الواحة، ويرحبون به ثم يأخذونه معهم ليزفونه إلى الواحة في عرس شعبي وتظاهرة إحتفالية كبرى لم يحدث لها شبيه في الواحة من قبل، فهو لايريد أن يأتيها وحيداً كلاجيء أو نازح وحتى لايشعره أي منهم في المستقبل بأنه تسلط عليهم أو فرض نفسه دون وجه حق بطريقة أو بأخرى، وهو الذي لم يرث عن أبيه إلا صفة الإنضباط والسعي الحثيث لبلوغ مقصده وهاتان صفتان لايستهان بهما، وسيوصلانه إلى مصاف متقدمة إذا ما أحسن التصرف وأجاد المعاملة .

الأبيض أسود 10

بعد ان تم التفاهم والإتفاق بين الشيخ والرعاة وتطابقت النوايا بشكل ظاهر وأصبح يوحد بينهم هدف مشترك هو خدمة الواحة والنهوض بها والتفاتهم إلى اوضاع الواحة وانهمامهم بمصلحتها وحلحلة المشكلات المعلقة التي تواجه ناسها وتؤرقهم وتنتظر رجل الغيب المعجزة كي تنفرج على يديه، هيأ الرعاة له الوضع وهم الذين أعطوه أكثر مما يستحق وأقل مما يحتاج، وإتفقوا مع أعيان الواحة وأهلها بعد أن بذلوا جهداً لإقناعهم حتى فوّضوهم الأمرعلى التفاوض نيابة عنهم مع الشيخ لإستقدامه كي يستقر معهم ويعيش بينهم ليحققوا منه فائدتهم بدلاً من بقائه في عزلته دون جدوى منه يتلهى بقصع القمل أو القائه في النار، جاؤوه كي يستشيروه في الموضوع ويعرضوا عليه إقتراحهم والفصل في الأمر بأخذ الوعد النهائي منه في اسرع وقت، وهم على ثقة تامة بتجاوبه مع طلبهم، وبينما الراعي يتدفأ ماداً يديه الإثنتين معاً إلى النار حتى تكاد رؤوس أصابعه أن تلامس اللهب المشتعل، استجمع جرأته واستهل الحديث هذه المرة بكلمة يا شيخنا، فالتفت اليه " عمران" بشيء من الزهو والمباهاة حيث أنها المرة الأولى التي ينادونه فيها بهذا اللقب الرنان، الذي طالما حلم بسماعه من أفواه الآخرين مثلما يسمعه الآن بالضبط بهذه الطلاوة والوجل، ورد قائلا بكل إعتداد بالنفس وخيلاء :—

تفضل ما هي طلباتكم يا أحبتي

وقبل أن ينطق الراعي ببنت شفة سها على أصابعه تحت تأثير

هذا الرد الذي أعجبه حتى لحست ألسنة اللهب رؤوسها فسحب يديه فجأة وبقوة وهو يهزّهاعالياً في الهواء من شدة الحرارة ويتوجع ثم فركها كي تبرد، مما أضحك الشيخ في زلة ما كانت ان تكون في مثل هذا الوقت تحديداً من شخص لايتوقع منه هذا ويحمل من الوجاهة والهيبة الشيء الكثير رغم أنه يحاذر أن يزل لسانه بكلمة في غير محلها الا بعد ان يقيسها بكامل أبعادها الممكنة ويتكهن مدى تأثيرها على مستمعيه وغيرهم اذا ما تناهت اليهم، ولا يأتي على حركة قد تغضبهم وتجعلهم يستخفون به كبدوي لا يفقه شيئاً وتفضح الأمر كله، لكنه لم يستطع مغالبة الإبتسامة التي هاجمته وظهرت على وجهه هذه المرة غصباً عنه ورآها الجميع بوضوح، ثم اعتدل الراعي في جلسته وتهيأ من جديد متناسياً ما حدث حتى لا يضيّع الوقت فيما لا يفيد او ينسى الاقتراح من أساسه وقال :-

لقد كلفنا أهلُ الواحة بالتحدث اليك والتشاور معك نيابة عنهم فيما يخص طلبهم بإنتقالك معنا إلى الواحة تبركاً بك ولتمارس مهامك العلاجية، وتقوم بتعليم الصبيان ما يمكنك من العلوم وتنظم الينا كواحد منّا وتعيش حياة طبيعية بيننا تاركاً هذه العزلة الموحشة التي انت فيها هنا. ونحن لم نأتي من تلقاء أنفسنا كما أوضحتُ لك في البداية، وإنما أمِرْنَا بذلك وها نحن ننفذ الأوامر كما تلقيناها من أهلها دون زيادة ولا نقصان. شاور نفسك واحتفظ لها بحق الرد إلى اليومين القادمين، وسنعود اليك ونجد الرد جاهزاً.. ونحن على عشم تام بأن تجيبنا بالموافقة، بعد أن تفاءلنا بك حسناً واستبشرنا بك خيراً.

أطرق الشيخ لحظات وهو يفكر وكأن الطلب مفاجئٌ له ويستحضر رداً لائقاً بالمقام وأهله ثم اجاب :-

هل تريدون إدخالي ـ في هذا النفق الضيق عُنوة ؟ من منكم بالله عليكم بعد ذلك يستطيع إخراجي منه، اذا ما شئت ذلك ـ في يوم ما وأنا من ورطتُ وحشرتُ نفسي طوعاً فيه ؟ أشكرُ لكم هذا الإختيار وهذه الثقة التي وضعتموها ـ فيَّ دون سابق معرفة تذكر بي، وأطلب منكم إعفائي من هذا التكليف والذي لا شك إنه شرفني وجعلني أعتز بكم وبنفسي على السواء، ولكن اتركوني وشأني هنا ـ في هذا الكهف البائس على وضعي الذي انا فيه، فأنا على أتم الإستراحة وأنعم بالهدؤ والسكينة وممنون جداً لبقائي هكذا وحيداً.. وان كان حتى وجودي هنا بمبعد عنكم ـ في هذا الوضع يضايقكم ويقلق راحة الواحة، فأنا على استعداد تام للمغادرة ـ في أية لحظة ترتأونها والى أي مكان آخر أرتئيه أنا. لكن ـ في حقيقة الحال قلبه يرقصُ فرحاً على اشده لهذا الطلب حتى يكاد يفضح تمنعه المصطنع هذا، أجابه رئيس الوفد :—

لا يا شيخنا على العكس تماما مما ذكرتَ، نحن نرحب بوجودك بيننا، ويسعدنا بقاءك معنا ماطاب لك البقاء ويهمنا (جداً) أن نتعاون جميعنا نحن وأنت رأي برأي وساعد بساعد على بناء الواحة وخدمة أهلها والسعي إلى تعليم الأجيال القادمة ومحاربة الجهل الذي تفشى بصورة ملفتة ومخجلة وغير مسبوقة وينال من كل طفل وراشد على السواء وما وجودنا الآن هنا الا ـ في مسعى منا لذلك، رد الشيخ :—

قلت لكم كم من مرة، أرجو المعذرة .. اعفوني من طلبكم هذا. وأنا مستعد لأي عمل آخر تأمرونني به مهما كان شاقاً ومرهقاً وتحت طلبكم بشكل دائم، فأنا ما جئت (أو قلّ سيرتني الأقدار وألقت بي رغم أنفي هنا لديكم) الا لخدمتكم، وخدمة أبنائكم وواحتكم، ولكن أن أكون شيخاً للواحة بأسرها فهذا لا قدرة لي عليه بحكم أني غريب

عنكم وقد لا يرتضي لي ولا يسمح أي منكم بذلك، فأنا في نهاية الأمر مثل عمر الخيام عندما عرض عليه حكم نيسابور قال كلمته المشهورة :-

(لاأحب أن أحكم الناس آمر وأنهي) وأنا أيضاً زاهد في السلطة ولا أتطلع أو أرغب في أن أغادر خانتي الإجتماعية التي وجدت نفسي عليها وارتحت لها، وأتمنى أن أبقى هنا ولا أغادر إلى مكانٍ آخر طيلة عمري إلى أن أموت وأدفن إلى جوار أبي كي أبقى مرابطاً وأسنده في مهمته الأبدية المعروفة لديكم، وهي حراسة الواحة من كل مكروه قد يتهددها، ومن أحتاجني في مهمة يأتي اليّ هنا وانا على جهوزية لتأديتها بكل ما أوتيت من حكمة. صدموا بردوده هذه غير المتوقعة وتشاءموا منها لما اشتمّوه فيها من رائحة تهرّب وتمنّع من مطلبهم، غير أنها زادتهم تمسكاً به وإلحاحاً عليه بل قرر بعضهم ملاحقته بالطلب ولو تهرب إلى آخر الدنيا حتى يستجيب لهم مهما طال الزمن وازداد عناده، فشعر بأن مغالاته هذه قد أتت ثمارها ولمس هذا بوضوح بعد ان تظاهر بالتمنع، لأنه في الحقيقة أقنعتهم شخصيته وسلوكياته وكافة تصرفاته المصطنعة بأنه المؤهل الوحيد الذي جاء في وقته المحدد ويمكن ترشيحه لذلك، وما توقعوا منه هذا الرد الجاف الرافض، وهو القائل ذات يوم في احد سياقات حديثه (لا كيان بدون قائد يبنيه) فكيف نراه يناقض نفسه ويفاجئنا بقول الكلام الذي سمعناه ويتهرب من طلبنا بهذه الطريقة اللامسؤولة؟، الرجال يتمنعون عندما يكونوا غير راغبين!، الا انهم مع ذلك ازدادوا شططاً في التمسك بمطلبهم منه، آملين ألا يردهم خائبين. وأخذت شفاههم وحلوقهم تجف وهم يتوسلون ويتضرعون اليه بلا توقف أن يقبل بهذا التشريف النادر وأوضحوا له أن هناك من يضع هذا

المنصب على رأس قائمة طموحاته في الحياة برمتها لكنهم لم يقبلوا به، أرادوا أن يعودوا إلى أهل الواحة وهم حاملين البشارة الكبرى التي ينتظرون الآن سماعها على قلق هناك، وعمران يحس بشططهم وإلحاحهم يقع على قلبه وكأنه برداً وسلاماً، وأن هذا لايناقض بواطنه، بل عكس شعوراً بالرضا والإطمئنان على وجهه حتى كادت ان تخونه التعابير الطارئة وتعطيهم خلاف ما ينطق به، وقد اعتبرَ هذا اليوم يوم البيعة. انما عليه التريث وضبط المشاعر فلا يوافق من أول طلب بسهولة فاضحة، منتظراً أن يكرروه عليه عدة مرات حتى يعرفوا قيمته ويدركوا مَنْ هو، ويتعبوا ولو قليلاً في إستجدائه فالسهل رخيص بينما الغالي صعب، ومن بعد ذلك يمنحهم نصف أو ربع موافقة في تلميحة غير واضحة، لكي لا تتقطع الصلة بالأمر ويفقدوا الأمل نهائياً ويضيع الجمل بما حمل، أو قد يغيّروا رأيهم في الموضوع من أساسه، ألآنَ للقوم جناحه وتظاهر في اللحظة الأخيرة بأنه قد أدعن تحت الالحاح بتردد وشروط وليس ادعاناً صريحاً فاصلاً، وطلب منهم مهلة قصيرة للتفكير في الأمر، سيقرر خلالها اختياره، لكنه أخيراً وعدهم خيراً، كان ينأى بحديثه عن منح تأكيدات لهم عندما يطلبون منه ذلك ويخلو حواره كله من جملة حاسمة تطمئن لها نفوسهم، وجدوه غير متحمس للفكرة التي جاءوا يحملونها مما هيأهم لدفع المزيد من التنازلات اذا ما تطلب الأمر، وجعلهم في وضع الضعيف وليس العكس كما هي الحقيقة.

الأبيض أسود 11

بعد ان جهزوا وفداً تم اختياره بعناية كي ينجح في مهمته، مكوناً من خيرة القوم، ممن إعتادوا على خوض اللقاءات المشابهه واكتسبوا خبرة ضافية في أساليب وتكتيكات التفاوض والمماحكة واصبحوا يجيدون التعامل والقول في مثل هذه المواقف والجولات وحققوا نجاحات لايزال يذكرها الجميع في مهام مشابهة عديدة من قبل، لهذا فلن يجد منهم فكاكاً اذا ما حاول التمنع أو الرفض هذه المرة، وتوجهوا إلى مقر اقامة عمران في داموسه على ظهور أحصنتهم وحميرهم، كما شاء وإشترط على الرعاة منذ البداية بأن يأتيه أعيان الواحة، وعلية القوم إلى مقر اقامته ويسمع دعوتهم ورجاءهم بأم أذنيه وكي يقسموا بالولاء والطاعة له، بعدها يعتد بطلبهم ويوليه الأهمية التي يستحقها، حيث أمضى يوم امس بطوله وهو اليوم الفاصل لمجيئهم متنقلاً فرحاً من بقعة لبقعة ومن طلحة لطلحة مودعا المكان الذي ألفه وقد لا يعود اليه ثانية، فيقف قبالة الكهف مخاطبا ـ حَلَّتْ ساعة ذهابي.. الوداع أيها الكهف المبارك يا من آويتني وقت تشردي وضياعي بعد خروجي كالملعون وتذوقت فيك طعم السكيمة وحلمت فيك أجمل الأحلام وأحلاها، وكان منذ الصباح وهو يتحضر للقائهم ويتنقل مستطلعاً في سعي دؤوب بين داموسه والربوة التي تفصله عن رؤية الواحة كي يشرئب ويرمي ببصره ناحية مركز الواحة لعله يقع على بشارة قدومهم، ليطمئن قلبه ويرى ركبهم قادماً نحوه ويتأكد من مجيئهم فيجري مهرولاً بعصبية وقد بلغ به القلق حده وهو يتساءل: ـ

ماذا ينتظرون إلى هذا الوقت ؟، إذ داهمه شعور بأنهم قد تأخروا أو سيتأخروا رغم أن موعد قدومهم الذي ضربوه له لم يحنً بعد، ولكن خشيته الحقيقية كانت من ماذا يحدث له لو أنهم تركوه ينتظر في قلقه الممض هذا، وتخلّوا عن فكرة إستدعائه إلى الواحة من أساسها واستبدلوها بفكرة اخرى تؤدي لهم الغرض ولا تفيده في شيء؟ وهذه هي الطامة، شعر بشيء من الندم على مماطلته لهم وتمنعه اللتين أبداهما في الأول، وقد إستعد لمقابلتهم بأن جهز في ذهنه إجابات لكل تساؤلاتهم المرتقبة وردوداً لكل الإستفسارات والإحتمالات الوارد وقوعها في هذا اللقاء التاريخي وأجهد نفسه كثيراً لتحضيرها، وسوف يستعرض عليهم نباهته ودرايته متوخيا عدم الإساءة والوقوع في زلات اللسان كتلك الزلة السابقة، ومبتعدا عن المغالطات والردود المشتملة على معاني الصد والرد، وتكون ردوده ذكية ولينة مستوفاة توحي بأنها صادرة عن عقل راجح متمرس في قراءة الأحداث وحسن التعامل معها. وجدوه جالسا متربعاً في ظل طلحة ضخمة يتصنع اللامبالاة وعدم الإكتراث مناقضاً لما يعتمل في داخله من قلق وفرح عارمين، على مقربة من ديماسه في هيئة متعبد ناسك ينتظر مجيئهم على لهفة، وعندما أشرفوا عليه نهض من مكانه لإستقبالهم مرحبا بقدومهم الميمون وكأنه قد نسي كل شيء وتذكر الميعاد في هذه اللحظة فقط، وبعد أن صافح الجميع بحرارة بادرهم موضحا : —

مثلما تعلمون فأنا لا أمتلك بيتا ولا حجرة إستقبال خاصة بالضيوف تليق بمكانتكم الرفيعة ولكن سأفتح لكم قلبي الذي هو أطيب منزل، ويسعكم جميعاً فعلى الرحب والسعة، كما لا انكر مطلقاً اني وقعت في حب واحتكم العامرة بأهلها دون غيرها، وهذا

الحب لا أعرف ماذا سيجلب عليّ ؟ (في إشارة إلى المهمة التي جاءوا بصددها)، ثم عرج في حديثه ممتدحا مليّا مجيئهم إلى هنا في هذا اليوم :—

ولا أظن اني سأنسى ما حييت هذا اليوم سيما هذه اللحظة التي رفعتم فيها مقامي إلى السحاب وسأطلق عليها رحلة البيعة. ولقد وصلتني كلماتكم التي هي في ظاهرها بسيطة ولا تكلفَ فيها لكنها ثمينة جداً إلى حد أنها أشعرتني بالغرور (مبتسماً) والعياذ بالله وكما هو معروف لدى الجميع (رأسمال الرجل رجال يكونون مثله أو أفضل منه). وتحلقوا تحت الشجرة جميعاً، وشرع رئيس الوفد في إلقاء كلمة إفتتاح اللقاء بالمناسبة :—

مثنيا بالشكر والحمد لله على نعمائه الذي تفضل علينا برجل من أبهى الرجالات معرجا على وجه السرعة إلى سبب حضورهم إلى هنا وما يحملونه من دعوة صادقة منهم وعشم أكيد في شخصه الكريم المجواد. كما شاء واشترط على الرعاة منذ البداية عندما فاوضوه في أمر انتقاله، أن يأتيه أعيان الواحة ويسمع دعواتهم له بأم أذنيه كي لا يشعر بأنه غير مرحب به أو متطفلاً عليهم وأن يقطعوا وعداً له بالتوافق معه وعدم الارتداد عنه. ثم استلم دفة الحديث من جديد وأكمل بقية كلامه ـ ولكن طالما جئتموني بقضكم وقضيضكم، وتجشمتم مشقة وعناء السفر بهذا الحضور الحاشد واستجبتم سريعاً لرغبتي ـ والتي كنتُ محقاً فيها ـ بهذه الطريقة الفضلى المشرفة، لم تتركوا لي مجالاً للرفض أو التسويف، أخجلتموني بكرمكم هذا وأرغمتموني (طوعاً) على الموافقة والإمتثال لمطلبكم، فلا أرتضي ان تعودوا مني هذه المرة خائبي الرجاء، وسوف أقدر أثمن تقدير ذلك منكم، وعندما نطق بهذه الجملة تحديداً أخذ أحد الرعاة الحضور

والذي لايتمتع بالصبر الكافي يتململ قلقاً في مكانه ولم يهدأ حتى لكز بكوعه المذنب زميله الجالس بجواره لكزة قوية على جنبه، وكان يستمع بانتباه بالغ وغير مستعد لها، كي ينبهه إلى ما ينطق به الشيخ الآن، لكن اللكزة جاءت في المكان الخطأ على كليته بالسويّة وكانت مؤلمة جداً، فصدرتْ عنه لاإرادياً وبصوت مسموع آهة حادة، التفت على اثرها الحضور المذهولين التفاتة واحدة إلى مصدر الصوت بنظراتهم الساخطة المؤنبة على هذه الحركة الصبيانية الفجة غير اللائقة، والتي جاءت في غير أوانها ولا مكانها، وعن رجل يُعَدُ من وجهاء الواحة وعضو في وفدها المبجل هذا، لكنهم سرعان ما أعادوا إنتباههم إلى مجرى الحوار وصُلب الموضوع وغضوا الطرف عنه ولو مؤقتاً عندما لاحظوا الخجل على وجهه المحمر، كان الراعي يود أن يذكر زميله :—

ألم أقل لك ذات يوم فيما مضى " أنا لا أحتاج إلى كثير من الوقت للوقوف على حقيقة الشخص " عند ما سألتني عن رأيي في الشيخ ومدى تقبل ناس الواحة له اذا ما جئنا به اليها، في بدايات لقاءتنا به منذ شهور عديدة خلتْ، فها هي قد صدقت نبؤتي ان كنت تذكرها؟، ثم انفض اللقاء على عجل بعد ان اطمأنوا إلى حسن سير الخطة، وعادوا مسرعين يحملون الخبر المفرح إلى ناس الواحة الذين إستقبلوه بامتنان كبير وأخذ يزفه بعضهم إلى بعض كبشرى ثمينة.

الأبيض أسود 12

في صباح اليوم التالي ودون ابطاء ولا تأجيل حضر جمع غفير يتقدمهم الأعيان والوجهاء لإصطحابه إلى الواحة حسب الاتفاق المبرم بينهم وبين عمران، الذي عندما تأكد من مجيئهم ووجودهم لديه شعر بسعادة غامرة للنتيجة الموفقة لجهوده التي يقف على حقيقتها الآن وداهمه زهو غريب واعجاب بحنكته ودهائه ويرى انه لا يضاهى ولامثيل له ربما ينافسه في الأفق المعروف، وقال محدثاً نفسه : —

الليلة لا تشبه البارحة بل تختلف عنها عكسياً، وتناقضتّ أحداث الليلتين، ففي تلك الليلة خرجتُ فاراً لاجئاً كالشريد على مزيج من الألم والقلق على المستقبل وعلى غير هدى من الواحة التي عشت وترعرعت فيها برفقة إخوتي وُصِحبة كلبي الوفيّ الذي يلازم خُطاي أينما توجهت ويوفر لي الحراسة والذي لولاه ما وجدت أنيساً يخفف عني وطأة الوحدة، غير عالمٍ بأي أرض أكون ولا مستقر محدد لي، وفي هذه الليلة إقتربتّ ساعة الصفرالتي إنتظرتُ موعدها بعد ترقب طويل لأدخل الواحة الجديدة يزفني الفرح للفرح مُحتفلاً بقدومي ومُرَحباً بي وكأنني والياً أحمل "فرماناً سلطانياً" لا يرد، دون حملة دعائية ولا إعـلان، لاصناديق اقتراع ولا مصوتين استجديهم ان يدلوا باصواتهم لصالحي بل بالعكس هم الذين يستجدونني ويلحون في المطالبة بي كمخلص ومنقذ لحالتهم هذه، إستطعت أن أسلب الألباب، واقنع الجميع بما جئتهم من أجله وانادي به من مباديء وقيم

سمحاء، لايتطرق اليها شكهم، وترتقي إلى يقين راسخ لدى الأغلبية منهم فور سماعها. لقد إغتسل جيداً، والحمام بطبيعة الحال يُعَدُّ حدثاً إستثنائياً لبدوي مثله لم يشاهد طيلة عمره بحراً ولا يجيد السباحة ولو في برك المياه التي تتجمع عادة عقب سقوط المطر. لبسَ الملابس الجديدة التي أحضروها معهم ووضعَ فوقها (الطيلسان) الأخضرالذي تلفف به واوضحوا له انه لباسٌ ديني فضفاض ناعم يناسبه ويمنحه الكثير من الوجاهة والوقار، والذي أخذتْ تنفخه النسمات التي إنطلقتْ منذ لحظات كشراع يكاد أن يسافر تُروّح ُعليه وكأنها أجنحة ترفرف وتلطف من درجة حرارة جسمه، ولأول مرة في حياته يسمع بأذنيه الإثنتين شنشنة وحفيف أثوابه الجديدة الفضفاضة فاستغرب الأمـر وأدرك انـه كـان مقصى عـن مـلاذ الدنيا بعيداً عن مباهجها ولا يعرف عنها شيئاً، وأحضروا معهم فرساًعاثية كانوا قد غسلوها جيداً وعطروا شعرها بنقوعات أوراق الورد والطيب، جهزوها بسرج مفضض ورسن يلمع تحت الشمس يليق بالمقام وعلقوا في عنقها الجلاجل التي سينطلق رنين أجراسها بمجرد أن تتحرك الفرس، لقد بذلوا أقصى ما بوسعهم كي يظهروا أمامه بالمظهر اللائق الذي يمنحه الفخامة ويرضيه عنهم ويرغبه في واحتهم، وحمله مجموعة منهم بين أذرعهم برفق وحذر فائق خشية أن يقع على الأرض فيحدث له مكروها المهم ان يوصلوه إلى الواحة سالما بعدها تخلى مسؤوليتهم على سلامته ويتكفل به أعيان الواحة، وأركبوه على ظهرها وأسندوه حتى إعتدل في جلسته وهو صامت تماماً، ثم إستوى على ظهرالفرس ونظر يمينا ويسارا والى الخلف متفقدا الحضور وليستشيرهم هل هم على استعداد للانطلاق أم لا، وأمـر الفرس في عجل أن تتقدم بنخسة من عصاه التي بدت

كصولجان يوحي بالجاه والمهابة، وبطبطبات خفيفة ومتتالية بقدميّه الإثنتين على جانبي بطنها تحركت إلى الأمام وتبعه الركب ببطء من ورائه، بعضهم يصفقون بأيديهم ويضربون على الدفوف والطبول التي علقوها على مناكبهم وعازفوا مزامير القراب كل في جهة من الموكب الذي يغطي مساحة كبيرة من الأرض وهو يزحف ببطء وثقة كالجيوش القديمة الا انهم لا يحملون سيوفاً ولا رماح ولا سهام وأقواس، والجميع يرددون المدائح والأذكار للتبرك. لقد عمل زمناً في الخفاء وبسرّية تامة من أجل الوصول إلى هذه اللحظة، وكان يتعمد الوقوف من حين لآخر، وكذلك الركب يتوقف لوقوفه في كل المرات مما يؤكد له أنهم يمتثلون تماماً لحركاته وسكناته وهذا طمأنه بعض الشيء إلى أنهم قد وقعوا فعلاً في وهمه وأنهم لن يخرجوا عن طوعه في القريب، حتى يكون قد أنجز الكثير من الاصلاحات ووطد اقدامه، على الفور تعالت الهتافات المشيدة به والمتدحة لمكرماته وصنائعه المتوسمة فيما بعد، بعد تفضله عليهم بالموافقة، رغم إنه يدركُ أن كل الذي يمتدحونه به غير موجود، وليس لديّه منه شيئ على الإطلاق، ولكن مع ذلك ولأنه تمكن منهم يبعث في نفسه فرحاً غريباً يزيد من تماسكه وتصميمه على مواصلة المشوار إلى النهاية. والواحة تبعد مسيرة ساعة أو ساعتين من الزمان إذا ما كنا نمشي الهوينى، ومن لحظة لأخرى يتقدم منه أحدهم عارضاً عليه خدماته ليسأله في وجل وتوقير إن كان محتاجاً لأي شيء أومساعدة أو يضايقه خطبٌ ما؟ فيجيبه بهزة خفيفة من رأسه فقط بأن لاشيء من ذلك على الإطلاق، وماعليهم إلا مواصلة المسير والحث فيه، فالناس تنتظر وصوله على شوقٍ، وحرارة النهار بدأت تشتد وهو أيضاً تهفو نفسه لبلوغها وينتظر متلهفاً دخول الواحة ورؤية السرور والإبتهاج به على

وجوه ناسها، كان حقاً يستعجل الوصول إلى الواحة ليقرب من لحظة إكتمال الفرح المنتظر، وتمنى لو تنبث للفرس أجنحة، وتطير به عالياً فوق مستوى سطح الأرض كي يبلغ الواحة في وقت أقل، وعندما إستمجَ الفكرة لإستحالة تحقيقها شعر بالخجل من نفسه وأقصاها عن ذهنه نهائياً ورضي بفرس تمشي على الأرض وتوصله سالماً معافى، وبينما هو في هواجسه هذه أخذتّ قدماه تطول في استرخاء شيئاً فشيئاً، وتتمدد لتلامس الأرض وترسم خطوطاً متقطعة عليها، ومن حين إلى آخر تصادف أحجاراً وصخوراً وتصطدم بها، حتى تكاد تهشم أصابعه التي بدأت تدمي بوضوح، حاول ان يضمها اليه ويبعدها عن الأرض لكن ما وسعه ذلك ووجد ايضاً ان هذا يخل بمهابة الموكب فآثر الإحتمال والصبر على وضعه المؤقت، ورغم الآلام التي يلاقيها من جراء ذلك الا انه شعر بشيء من الطمأنينة على سير الخطة بنجاح حتى هذه اللحظة وكان كلما أحس بقرب وصول خطواته من الهدف يجعله هذا في مزاج أفضل ويتصاعد الفرح الغامر في داخله، الا انه الآن بدأ يتثاءب وأخذ يداهمه النعاس الذي لم يجد له مقاومة ويلعب خدره برأسه وهو يشعر بالتعب المتراكم لأنه لم ينم الليلة البارحة إلا قليلا من شدة فرحه بالتوفيق الذي بدأ يتحقق خاصة بعد أن قدم اليه وفد الأعيان طالبين موافقته على القدوم معهم إلى الواحة والذي ما كان يتوقعه أن يتم بهذه السرعة والسلاسة، ويرى فيه رضوخا منهم لمشيئته وأنه أنجز مكسباً كبيراً وهذا يمنحه الثبات والثقة لإنجاز المزيد، قال في سره: —

والآن لا يمكنني أن أصدق عيني، لأن اليأس وعقم المحاولة كانا قويين في الماضي ولا يشيران إلى نجاح واضح، وبينما الركب يزحف بهدؤ بدأ رأسه يثقل وأخذ يتدلى إلى أن يلامس ذقُنه من حين لآخر

صدرَه، وجنحَ على جانبه حتى كاد أن يسقط فجأة مفزوعاً، ففي اللحظة التي أوشك فيها أن يقع من على ظهر الفرس بعد أن تراخى جسده تماماً إندفع اليه حارسان لإسناده كلفا منذ البداية بمتابعته بإنتباه والقيام على خدمته أثناء رحلة المبايعه هذه كما يحلو له مفاخراً تسميتها فيشير اليهما بيده مكابراً بأنه على وعي تام بما يحدث له ولا داعي للقلق عليه، وأشار بسبابة يمناه إلى السماء في اشارة إلى ان العين التي تحرسه لا تنام البته وما هم الا تحصيل حاصل لا دور حقيقي لهم في حمايته، وعند إقترابهم من الواحة وجد أفواج المستقبلين من كل الأعمار في إنتظاره لملاقاته والترحيب به وسط صخب احتفالي بهيج فمنهم من كان يسمع عنه ولم يره حتى الآن، فجاء اليوم ليكون من اول الحاضرين لإستقباله والتعرف عليه بعد ان أعلمهم الوفد الحاشد من الأعيان والوجهاء الذين ذهبوا لإستقدامه بموعد المجيء وأمروهم بترتيب حفل ترحيب حاشد يليق بالضيف حتى يشعر معه بالإرتياح تجاههم وانهم يباركون ويؤيدون قدومه بكل ثقة وجدية، فتجمع الناس على مشارف الواحة ينتظرون قدومه وكلهم يتجهون بعيونهم إلى حيث يقيم وهي الجهة التي سيطل عليهم منها كالبدر، جلس جلهم على قلق اللهفة والأنتظار محاولين تمضية اللحظات دون الإحساس بثقلها وبصعوبة مرور الوقت بالتحدث عن مستقبل واحتهم بعد هذا الشيخ الجديد غير المعروف.. إلى ان التفت أحدهم عفوياً وعلى غير توقع إلى جهة اخرى فوقع نظره على الركب وهو يزحف بأناة نحوهم فصرخ بأعلى صوته منبهاً الناس إلى الركب الذي باغتهم من هنا وقد غيّر خط سيره لكن لم يلتفت اليه أحد في البداية ولا أعاروا صياحه اهمية، غير مصدقين ولا خطر على بالهم أن يأتيهم من جهة معاكسة الا بعد لأي، فكانت هذه المغالطة

الغريبة صادمة لبعضهم فقد فهموا منها شيئاً آخر لم يخطر على بال الأكثرية، لماذا حاد بهم عن الطريق المعتادة وشق طريقاً ملتوياً ؟

اتجهوا اليه مسرعين وقد تعالت هتافات الفرح والإمتنان الممجدة لشخصه والداعية له بطول العمر ودوام الصحة، لكن المجموعة التي كلفت بحمايته حالت دونه ودون الجموع المتدافعة نحوه تريد تقبيله ومعانقته، وانضموا إلى الموكب الذي كبر حجمه، واغلبهم يتساءل كيف حدثت عملية الإلتفاف هذه دون ان ينتبه اليها أحد من الحضور؟. واصل الركب تقدمه الهوينى نحو الواحة وهم يعزفون على مزاميرالقرب ويغنون دون توقف إلى أن بلغ الواحة وتوجه ناحية وسطها وفي هذه الأثناء علا صوت المزامير أكثر من ذي قبل وازداد الضرب على الطبول كذلك، احد الشعراء وصف الحدث من خلال الغبطة التي رآها على وجوه الناس فقال :-

في هذا اليوم طلع على الواحة فجران!. وأعدوا له محفة كي يحملونها على أكتافهم وهو جالس متربعاًعليها ويدخلونه إلى البيت الذي جُهّز من أجله للإقامة فيه مؤقتاً إلى حين تشييد بيت جديد يكون أكثر أناقة وجمالاً ويليق بمنزلته ومقامه، وعندما وضعوه على المحفة أخذ يستعد لكيَ يستلقي ويتمدد فوقها فحدّجه أحد الشباب بنظرة تأنيب حادة مفادها ماذا تعمل؟ وقال له :-

أتعرف من الذي يمدد فوق المحفة ؟

هذا فأل سيء!.. أمن الآن ؟

مازلتَ صغيراً على ذلك! فتدارك الشيخ الهفوة التي فعلها وكي يخفي غشامته وبداوته تظاهر بانه يريد أن يمد ساقيه فقط ليريحهما مما لحق بهما من اصطدام بالحجارة ومن تعب السعي بين ديماسه والربوة والطلحة. وسط صخب إحتفالي تتخلله الهتافات

والزغاريد المدوية دخل البيت الذي غص بالزوار المهنئين والفضوليين الذين قدموا من كل مكان، واضحى يعج بهم للمبايعة والمباركة وتقديم فروض الطاعة والولاء، والتقرّب طلباً لمرضاته، والشيخ قد اذهلته هذه الحشود فتذكر ذلك الإكتشاف الذي اهتدى اليه في تلك الليلة بعد ان صارحه ابوه بحقيقة أمره والذي يقول :

(الناس قلة محتالة وكثرة مغفلة).

ان كل شيء في المكان يمنحه شعوراً بالفخامة وهو يتفحص المكان بدقة وإنبهار، ما كان يخطر بباله ان ينزل بيتاً كهذا فتمتم في نفسه: ـ

انا في الفردوس الآن! ثم من أين لي بهذا لو لم ابادر بنفسي وأركب الأهوال حتى أوصلتني اليه؟. ولم يهدأ البيت إلا في أخريات الليل بعد أن غادر رويداً رويداً أغلبُ المهنئين ونال منهم الإرهاق، ولم يبقَ منهم الا من كلفوا بمرافقته باستمرار وتقديم الخدمات له. وإهتموا به فيما بعد ما وسعوا حتى أضحى في كل قلب داره، وإكراماً له منذ هذا اليوم أخذوا عهداً على أنفسهم بألاّ ينادونه إلا بلقب التفخيم " سيدي "، الذي يستحقه عن جدارة، وأطلق على هذا اليوم (يوم التولية) وسيحتفل سنوياً في المستقبل بذكراه. لقد تحقق له هدفه والذي كان وحتى وقت قريب مجرد أمنيه أو حلم بعيد المنال، في البداية كان سقف طموحه أن يعيش مختفياً وسطهم محتمياً بهم حياة عادية بسيطة كفرد من عامة الناس لا يفضلهم ولايميزه شيء عنهم، قانعاً بتوفير تكاليف عيشه وراحة باله فقط، عن طريق كتابة بعض الأحجبة والأحراز والرقيا والتعزيم على المرضى والممسوسين، والتنبؤ ببعض الغيبيات كعرّاف مبتديء لايتدخل بعمق في المسائل المعقدة والكبيرة التي تفوق قدراته، ويكتفي بما يَقْدُرُ عليه فقط إلى ان يمنحه الزمنُ والممارسة الخبرةَ والدرايةَ وتزداد تجربته بهذه

اللعبة المربحة، لكن الأمر تطور لديه بسرعة وازدادت معارفه ليزداد طموحه معها أيضاً، متجاوزاً ما دون ذلك بعد ان أنسَ في نفسه ما يُمَكِنَهُ بسهولة من تحقيق ذلك وتوفر الظروف التي تساعده، اى إلى التفكير في أن يكون الآمرَ والناهي الذي يتدخل في كل كبيرة وصغيرة، ويقرر ويلغي ولا يترك شيئاً للصدف وحدها تقرره(لم أكن أحلم في يوم من الأيام أن اصبح شيخاً يحكم واحة كاملة من شرقها إلى غربها، تأتمر بأمري وتنتهي بنهيي، لكن في حقيقة الحال هذا لم يكن في حسباني فهي المرة الأولى وربما الوحيدة التي كذبتُ فيها على نفسي، ولكن الحظ صَدَقَ معي وقد تفاجأتُ به مثلما يتفاجأ الكثيرون غيري بوقوع المعجزات) انما على ما يبدو مازالت أمامي تحديات كثيرة تنتظر وعليّ ان احسن التعامل معها لإجتيازها.

الأبيض أسود 13

بمناسبة قدومه الميمون، وفرحة الناس العارمة وإبتهاجهم بمجيئه، ولكي يكافئوه ولو جزئياً على تفضله هذا، وقبوله للحلول مقيماً دائماً بينهم وتركه على مضض هوسَه القديم بالترحال وإستعداده للتفاني معهم في بناء الواحة التي أحبوها كثيراً وتشييد صرحها على اسس حديثة، إنهالت عليه التبرعات، من الهدايا والعطايا المتنوعة من كل مكان، زلفى وتقرباً لإسترضائه والبعض يراها تضامناً معه ودعماً له كي لايشعر بالإحتياج وليستمر في مسيرة عطائه ويواصل مكوثه بينهم وكدليل على قبول الناس به وإقبالهم عليه، وأخذوا يتبارون ويتمارون في تقديم الأجود والأنفس والأكثر، حتى البسطاء المطحونين والفقراء الذين لا يلوون على شيء اجتهدوا وغلّبوا أنفسهم – ولو باستلاف مبالغ من ناس آخرين – بعد ان وُجِدُوها في مواقف تحتم عليهم منحه ما تجود به أياديهم ويقدرون على دفعه، كمساهمة منهم سويّة بالأغنياء القادرين ولكي يعززوا ثقتهم فيه وعربون وفاء منهم له، بعضهم أهداه أغناماً وإبلاً ومحاصيل زراعية، ثم قرروا أن يهبوه كل عام نسبة ثابتة من إنتاجهم الزراعي والحيواني ليبقى عوناً جارياً له لا يتوقف عطاؤه إلى الأبد لمواجهة الخطوب ونوائب الدهر الذي لا يؤتمن جانبه، كما خصصوا له أطياناً زراعية يتكفلون تطوعاً بزراعتها ورعايتها وحصدها ويأتونه بالإنتاج جاهزاً دون تعب منه، ولكن كل هذه النفائس في حقيقتها جاءت بإعاز مُضْمر - بالطبع - وليس صريحاً من الشيخ شخصياً اليهم في سعي منه لتأسيس بيت مال

كبير يعتد به ويعتمد عليه يكون تحت تصرفه لأجل ما سولت به نفسه اليه ولازالت تسوّل عن طريق الإبتزاز الروحي فَجَمَعَ العطايا والهدايا والهبات بدون تحديد للنوع ولا حدود للكمية اوالقيمة كي يستفيد منها لتمويل مشروعه وانفاقها في وجوه يرتئيها وحده واجبة، كعطايا ومنح للترغيب ولشراء الذمم والولاءات ممن يرى أن لهم أهمية وشأن يذكر في التأثيرعلى المجريات وخلق أحداث جديدة تخدم سياسته وتصب في مصلحتة وإسكات بعض الأصوات المناوئة والتي أغلبها طامع ويبتز والتي قد تظهر من حين لآخر هنا وهناك، ومكافأة أصحاب المبايعات والعهود، المجانية منها وبمقابل، التي ترده من كل مكان وبلا حدود، (كي يشترهم بأموالهم) ويفسدهم بها عندما يجعل من بينهم حارم ومحروم وحتى ناهب ومنهوب وفق الخطة المجدية التي إهتدى اليها أخيراً ولا تكلفه شيئاً، حرص على تحديد وجوه الإنفاق وضرورة ضبطها والتشدد في توزيع أو منح هذه العينات إلا بأمر منه شخصياً فلا تعطى لكل من هب ودب فهي ليست هبات إعانة خيرية ولكن توهب لمن قدم عملاً يستحق عليه هذه الهدية أو تلك المكافأة يأمرهم فيطيعون ويطلبون فيمنح، الشيء الذي دفع بالكثيرين منهم إلى التنافس والإجتهاد في إسداء خدماتهم وتقديم أعمالاً جليلة له بلا حدود حتى يتقبلها منهم ويرضى عنهم ويأمر بهذه المكافآت والهدايا لهم، وعندما يكون الإنسان في حالة تسابق مع غيره على هدف ما، لا يرى الا نفسه فقط، وتولى مهمة الإشراف على الثروة أشخاص بإختيار دقيق ومحسوب منه، من يثق فيهم تماماً ويصدقون به، حتى لا يقع تلاعب بالأموال وسرقتها أو غش وتزوير وتبذير ينجم عنه عجز في الإحتياطي . حدث نفسه ـ المهم عندي ان اصنع معادل موضوعي يسند بقائي وتطمئن اليه نفسي، انا لا احبذ

هؤلاء ولا أولئك، أنا مثلما قالت لي نفسي ذات شرود.(انا انتمي إلى نفسي فقط ولا حلف لي الا معها) فهو بسؤ التوزيع الجائر لهذه الثروة يخلق تصدعاً جديداً غير معروف في صف الواحة ويقسم قوتها إلى قوتين متقابلتين متضادتين. وهو كما نعلم منذ البداية لايملك حبة خردل وجاء إلى الواحة لا يلوي على شيء الا أسماله البالية المملوءة بالقمل التي كانت على ظهره، لكن التطّميع والإستهواء العاطفي الفارغ يكوّن علاقة هشة ولا يخلق أتباعاً حقيقيين أومريدين صادقين يمكن الإعتماد عليهم ويناصرون صاحبهم وقتما تجب نصرته وأينما تكون، يمكن شراء الولاء دون ان تكسب الثقة، إذ انهم سيتخلون عنه في اللحظة التي يكون فيها أحوج اليهم. ذات صباح جِيءَ به على غير توقع إلى المخازن راكباً فرسه ويحفه بعضهم على أقدامهم ليتفقد القيمين عليها والعاملين بها وليشعرهم بأهمية ما يقومون به بالنسبة له، ويشجعهم على التفاني في العمل إلى ابعد حدود العطاء، هاله ما رأى فلم يكن يتوقع هذه الكميات المتراكمة بهذا الحجم ولازالت ترد الهدايا والوهائب ويملأون بها الساحة التي أمام الخزائن، منهم من يصنف ويرتب ومنهم من يحصي ويجرد ويدوّن المداخيل ثم يودعونها للحفظ في الخزائن ومنهم من شمروا عن سواعدهم أو سيقانهم والعرق يلتمع على وجوههم وأعناقهم وهم يتحركون هنا وهناك في خفة كل اثنين يتقابلان على اكياس الحنطة أو الشعير والبقوليات وينقلانها للوزن ثم الجرد، فهنا زريبة بها ماعز وأخرى بها ضان وهناك نوق وجوارها حمير، وعلى مقربة جزز صوف بيضاء وأخرى سوداء او بنية، انهم يعملون تحت ضغط الوقت لغزارة ما يردهم، كل واحد منكب على العمل الذي كلف بإنجازه، ولحظة وصوله التفت اليه الجميع وتفاجأوا بوجوده .. لم يكن في الحسبان مجيئه في هذا الوقت

المبكر، نظر بعضهم إلى بعض نظرات تساؤل وإستغراب وتوقفوا عن العمل كلية كي يهبّوا نحوه ويسلموا عليه واحداً بعد الآخر كما كان يتوقع منهم، فأشارعليهم بيده قبل ان يتحركوا- دون أن يغلّب نفسه النطق بكلمة واحدة - بالبقاء في أماكنهم والإستمرار في العمل واكتفى بتبادل التحيات الصباحية عن بعد، وكأنه يعني بتصرفه هذا أن العمل ثم العمل أهم من مصافحتي والتمسح بي، وأنا ممتن لشعوركم النبيل تجاهي، بينما هو في حقيقة الحال منبهر بهذا الهيلمان الذي ماكان يتوقع تكدسه بهذه الوفرة، وقبل أن ترتفع الشمس في سماها وتشتد عليه حرارة النهار وبعد أن رأى كل شيء بأم عينه واطمأن على سير العمل وهذا الأهم، إستدعاهم لسماع خطبته التعبوية الطارئة هذه وهو لايزال راكباً على ظهر الفرس ويملأه الافتخار بما خطط :-

(أيها الحضور أيها الجمع الكريم أحييكم من كل قلبي على ما تبذلونه من جهود مضنية في خدمة واحتكم، وأعرب عن فرحتي بكم وإمتناني منكم على وقفتكم الخيرية هذه، وما يسعني الا الحث على بذل المزيد من الجهد لجمع الأموال التي تعد ضرورية لتقوية امكانات الواحة ودعم اقتصادها، انظروا إلى الارض وابحثوا عن ما بها من خيرات وامنحوني منها، وانا سأنظر إلى السماء وسأكتشف ما بها وآتيكم منه، وليكن معلوماً لديكم بأنني أقل هوساً بجمع المال من أي شخص آخر منكم، وأن تقديم الولاء والطاعة عندي أهم وأثمن هدية تمنحونها لي من أجل مصلحة الواحة، ومن بعدها بكثير تأتي في الأهمية والمرتبة كل هذه الهدايا العينية مهما كانت كثيرة ونفيسة، ثم انهى حديثه بعبارة : كل واحدٍ منكم حر.. فتعالت هتافات الإعجاب وأكمل متمتماً وكأنه يهمس لنفسه في خفوت ببقية الجملة دون أن يتمكن احد من متابعتها وسماعها :

(كل واحدٍ منكم حر في أن يكون عبدي المستفيد أو سيد نفسه المحتاج) طيلة ما كان يتحدث عيناه لا تهدأ ولا تثبت على نقطة معينة، تتنقل من جهة إلى أخرى وكأنه يخرّص ويتعرف على كل ما تكدس لصالحه أمامه من حاجيات وهدايا، فالزيارة لم تأت عفوية بل مدبر لها سلفاً للوقوف على حقيقة ما يجري ومعرفة ما تم جمعه من هبات وعطايا. وبينما هو على تنقلات بصره هذه من بقعة إلى أخرى في انبهار وقع بصره على فأرة صغيرة قد إنطلقت من كوم إلى كوم آخر بخفة البرق لدرجة أن لم يتمكن من رؤيتها أحد منهم سواه، ولمعرفته المسبقة بما يمكن ان تحدثه هذه الفارة من خراب في هذه الخيرات التي أمامه أخذ من فوره يشير عليهم بسبابته اليها منبها وملحاً على ملاحقتها، وعندما لم يفهم أيٌّ منهم ما يقصده باشارته وبقوا في حيرة من أمرهم، كل واحد ينظر إلى الآخر عله يجد عنده تفسيراً، اسعفهم بما يقصد ووضع كلتا يديه جنب صدغيه وتعلوان رأسه قليلاً في إشارة إلى أذني الفأرة، وفهموا ما يعني: - أن إنطلقوا في أثرها قبل أن تذهب بعيداً وتختفي، دون أن يقطع حديثه أو يغير سياق الخطبة، يتحدث في أمرين منفصلين بلغتين مختلفتين في وقت واحد، وهذا ما فهموه من إشارته هذه، فتوجه ناحيتها نفر من الحضور وأتى احدهم ممسكاً بها من ذيلها واذنيها شاهراً عاليا صيدَه الثمين وهي تتملص وتتلوى فزعة كي تتحرر من بين يديه متجها بها نحوه ابتسم دون ان يقطع كلامه وكان قد أعجبته سرعة الانجاز وأشار اليه بأطراف اصابع يده ان يبتعد بها عنه لربما تكون مصابة بفايروس التيفوئيد. لكز فرسه وتفقد وهو يركبها اركان الساحة وما بها من أدباش وهدايا وصدقات مختلفة والتي تغطي المكان، أشار بعصا كان يحملها في يده إلى بعض الحاجيات والأشياء الجميلة التي أعجبته كي يأخذونها إلى

بيته حالاً، وبعد أن إطمأن على سيرالعمل إنصرف إلى حال سبيله ويتبعه مرافقوه محملين بالهدايا التي وقع عليها إختياره. لقد إمتلأت خزائنه بالهدايا الثمينة المختلفة والفاخرة في وقت قصير جداً، والتي جاءت من كل حدب وصوب معلوم ومجهول، من انتاج البيئة المحلية أو من خارجها مثل منتوجات متنوعة من الطين المحمى والفخار وبعض المصنوعات النحاسية والحديدية المطروقة، وجراب وشنط، وألبسة صوفية مرقومة بنقوش ملونه نادرة وأحذية فاخرة واقية، ومرايا مؤطرة بالجلود المرقومة، وسروج مزخرفة وكراسي فخمة مغلفة بالجلود والقماش والسجاد المنعّم وآرائك وطنافس، وخزانات ملابس من خشب الصندل المحفور الطيب الرائحة والند ذو الأبخرة الزكية العطرة، وسترات الجلد والقفازات وجوارب الجلد الطويلة التي تصل إلى الركبة. خاصة وإنه انسان شديد الحساسية للبرد حتى في فصل الصيف فركزوا على هذا النوع من الهدايا، فكان دائم الشكوى من الصقيع الذي ينبع من داخل عظامه، ويكرر دون توقف تعداد الآلام والويلات التي يلاقيها بسببه، فليلة واحدة باردة يقضيهاعلى فراش بارد ربما تضاهي ليال قطبية متواصلة قياساً بالآخرين الأصحاء، وكان يقول لهم : —

البرد ينخر الذاكرة ويذمرها ويعمي البصر ويهلك الأبدان في ايماءة منه تهدف إلى غاية أخرى في نفسه، وكلما سمعوا منه هذا القول إزدادوا في إحضار الهدايا والالبسة المصنوعة من جلود الحيوانات المختلفة المتقنة الدباغة والصناعة حتى انهم صنعوا له القلنسوات الجلدية وأحذية طويلة الساق تصل إلى أسفل الركبة، إمعاناً في إرضائه، وقطع عليه سبل الذرائع التي ربما كانت لهم من ورائها مقاصد خفيّة هي الاخرى أيضاً، ولإعتقاد منهم بأنه إذا

ما إرتدى هذه الملابس الجلدية لايتطرق إليه البرد البته، وهم لا يريدون سماع شكواه المتكررة من البرد فقد ملوا هذه النغمة المزعجة وأصبحوا يستحون من سماعها، لأن ذلك يسيء إلى سمعة الواحة ويُعَدُ إهانةً كبرى لها قاطبة، فكيف لا تستطيع وقاية ضيفها المبجل من الصقيع، وقال له بعضهم نسلخ جلودنا ونغطيك بها يا سيدنا ولا نرضى بتركك فريسة للبرد وأنت تقاسي الصقيع، لكنه مازال يشتكي لهم من البرد وإستمر يحذرهم ويخيفهم من التعرض لنزلات البرد، معرباً لهم عن تدمره من عدم جدوى جهودهم لتدفئته ! واصفاً محاولاتهم بالعقيمة او انهم لم يهتدوا بعد لفهم حقيقة ما يرمي اليه من مطلبه الملغز. حرص على تحديد وجوه الإنفاق وضرورة التشدد في توزيع أو منح هذه العينات إلا بأمر منه شخصياً حتى لا يقع تلاعب في ذلك ويفلسه الفساد فلا تعطى لكل من هب ودب ولكن الا لمن قدم عملاً قيّماً يستحق عليه هذه الجزاء أو تلك المكافأة، الشيء الذي دفع بالكثيرين منهم إلى التنافس والاجتهاد في إسداء خدماتهم وتقديم اعمالاً جليلة بلا حدود ودون توقف حتى يتقبلها منهم ويرضى عنهم ويأمر بهذه المكافآت والهدايا لهم، وتولى القيام على هذه المهمة اناس شديدو الحرص بإختيار شخصيّ منه، وهم الذين يثق فيهم تماماً ويصدقون به.

11 الأبيض أسود

ساد التفاؤل بين الأهالي بعهد جديد يبدأ هذا اليوم ولا ينتهي، إبتهجت به الأكثرية من الناس وتعلقت بالأمل الذي أخذ يلوح في أذهانها وصدقت به كيقين معتبرينه كآخر فرصة تتاح لهم وعليهم الا يفرطوا فيها هذه المرة، وفي اليوم الثاني من وصول الشيخ وبعد أن أصبح يتسيّد أهل الواحة وما جاورها دعا الأعيان والأهالي إلى إجتماع موسّع ضم أغلبهم ليشعرهم بالجدية في إقباله على العمل والبناء، وانه لم يأتي لإضاعة الوقت وإهدار الفرص، كما ان مثل هذه اللقاءات تساعد الشيخ في اكتشاف العناصر الفاعلة والمهمة التي يمكن الاعتماد عليها في ضبط الأمور الأمنية وتسيير شؤون الواحة شرط ان تكون موالية له، وكان الجميع متلهفين لرؤيته اولاً والتأمل في تقاسيم وجهه ولوعن بعد، ولمعرفة ما إذا كان كبقية البشر ام يختلف وهل به ما يميزه عنهم ؟

والا فكيف اصطفاه القدر دون غيره لهذه المهمات الجسام ؟

إذ لم يره أغلب اعيان الواحة من قبل الا في خيالهم وتصوراتهم، سمعوا به ووصلتهم اخبارٌ كثيرة عنه فقط وكل شخص قد أوحتْ له نفسه بصورة للشيخ مختلفة عن الآخر، فما بالك ان تسنح لهم فرصة الإلتقاء به وجهاً لوجه والإجتماع معه عن قرب وعلى بساط واحد ورؤيته كيف يتكلم ويتحرك وربما يضحك والإستماع لما يقوله وقد يتحدث اليه مباشرة دون وسيط ولا مقابل، فهذا شأن آخرأكثر رفعة ووجاهة، واكتشفوا في صوته رنة جميلة نادرة ومن يسمعه مرة واحدة فقط لن ينساه ويستطيع تمييزه من بين آلاف الاصوات. يا للفرص البهيجة والنادرة عندما تمنح

نفسها دفعة واحدة، حضر الاعيان بكامل اناقتهم وكل شخص يحمل صورته المحددة للشيخ التي رسمها في ذهنه وتليق به وسوف يقارنها بالحقيقية التي سيراها بعد لحظات بأم عينه ما اذا كانت مطابقة لها أو قريبة منها أم بعيدة تماماً عنها، ويحدوهم التفاؤل الحسن بلقاء معبيء للمعنويات ومنعش للأرواح التي كلّتْ الجفاء والبعاد ليملأها قوة وايمانا بعد ان يجمعهم معاً تحت سقف واحد وفي القريب سيفكرون برأس واحد ويكونون على نبض واحد أيضاً، ويكون اللقاء حافلاً بالوعود والآمال والآراء والنقاش المثمر، وقد إجتهد كل واحدٍ منهم في ان يظهر أمامه بالمظهر المشرف وكأنه داخل إلى امتحان قبول، ربما ينال رضاه ومن تم قد يقع عليه اختياره لمنصب رفيع أو يقربه منه أقرب ما يمكن ويصبح من مستشاريه الدناة، أُعِدَّ المكان وجُهزَ بالفرش والأرائك ودخل المدعوون الكبار أولاً ثم الأقل سناً واصطفوا في طابور طويل وصافحوه جميعاً واحداً بعد الآخر ثم أخذ كل واحد منهم مكانه استووا في جلستهم، لاحظ سيدي ان عيونهم جميعاً، تتفرس في كل شيء منه، وتلاحقه وكأنها تبحث عن شيء مختلف فيه، اصبح يحس وكأن عيونهم تنهشه، وهو لا يعرف إلى اين يهرب بنظره منهم، فيتجه به إلى أعلى موجهاً كلامه إلى اللاهدف ويتركهم ملتهين بتأمل ملامحه، متصنعاً الغفلة واللامبالاة. ولكن ما أنقذه وفق الترتيبات الموضوعة أن افتتح أحد الوجهاء الإجتماع مستهلاً حديثه بالترحيب بالحاضرين جميعاً وبإسمهم وإسم الغائبين ايضاً رحب بالشيخ، وتوجّه بالشكر لله على نعمائه التي أنعم بها عليهم، ولم يطل عليهم في حديثه فقدم الشيخ من بعده مباشرة والذي كان هو الآخر متلهفاً للكلام وإنبرى على الفور قائلاً ـ أشعر بالفخر والإطمئنان بأنني أصبحتُ واحداً منكم، ولست بافضلكم فهنيئاً لكم بي أولاً وهنيئاً لي بكم آخراً، (خرج من خانة العوام الآن وشملته دائرة الضؤ وأصبح محط

أنظار الناس ومحل نقدهم اذا ما نجح وأفلح أوأخطأ وفشل) وأعلموا ان ما يعنيني لا يعني غيري، وما يعني غيري يهمني !، ثم أكمل حديثه وفي السياق أعلن عن المشروع الوعد الذي يثق به وجاء يحمله للنهوض بالواحة ورفعتها ولابد أن نجعل من الواحة دوحة غناء وقبلة للباحثين عن حياة مريحة افضل، وكبادرة تدل على اهتمامه وانشغاله بتسريع الشروع في العمل والبناء، أعلن عن دق ساعة العمل والبدء دون تردد لنجعل منها واحة نمودجية حضارية متميزة عن سواها وسط الصحراء القاحلة، فخير البر عاجله، ولا مجال لإضاعة المزيد من الوقت الثمين بعد الآن، معتمداً مبدأ (أحكمهم بهم) و(اشترهم بأموالهم) في حكم الواحة الذي هو من بنات أفكاره الخالصة واستهدف به اهلها جميعهم فهو يريد فرزهم ومعرفة من هو مريده ونصيره ومن هو ليس كذلك، ويقصد منه ان تحل روحه في قلوب الجميع، وسيبدأ دون تباطؤ في إختيار العناصر القادرة على تنفيذ هذا المشروع واستقطاب من يبقى على الحياد وضمه إلى صفوفه ليكّون منهم أتباعاً ينتصرون له على كل الأوجه سواء أكان ظالماً أو مظلوماً، محقاً ومصيب أو مخطئاً ومعيب، ومثلما يجذب بعضهم بعض سوف يقصي أيضاً بعضهم البعضَ غير المرغوب فيه، ويجند فرق عمل للتهيئة لخطط وتنفيذها، ويعتمد عليها في تسيير شؤون الحياة في الواحة وبرامج أمنها، فهذه أيسر طريقة لإختطاف واحة بأسرها وابقائها في قبضته لأطول زمن ممكن، ويكون بذلك قد كفى نفسه مشقة الحكم ونقمة وغضب الناس وتجريحهم له إذا ما وقعت تجاوزات قد تخل بالتوازن وتنعكس سلبياتها عليه شخصياً، ويتوخى من ذلك تجنب مواجهة المصاعب مباشرة ولا يضيّع وقته الثمين في تفاهات جانبية لا جدوى من ورائها. تساءل سيدنا هذا السؤال الكبير: —

سرعان ما يداهمنا الغد ماذا أعددنا له ؟

والزمن يقطعنا وعلينا ان نقطعه، لنضع الخطط ونرسم الطرائق التي تؤدي بنا إلى النهوض ونتحدى الفناء ونبني جنة وسط هذا الجحيم الصحراوي، كما واننا لسنا وحدنا في الدنيا حتى نتراخى ونتكاسل وننظر اليها بعيون مغمضة ونقلل من قيمتها وانها تساوي قشة أو أقل، بل هناك الكثير من الأقوام الذين من حولنا قد سبقونا وتفوقوا علينا في كل مناحي الحياة، ونحن ننظر اليهم مكتوفي العقول في انبهار، ومن واجبنا أخذ ذلك في الإعتبار ومماراتهم للحاق بهم ومن تم مواكبتهم على أقل تقدير ان لم نتفوق عليهم، فنحن نعيش مع غيرنا على حلبة سباق واحدة ويجدر بنا ألا نستخف بمن يسابقوننا ويحرزون النجاح تلو النجاح أو نتجاهل تفوقهم الملموس علينا، بينما نحن نفقد مكاسب الماضي ولا نتطلع إلى ما ننجز في المستقبل ونتمسك بثروات الطبيعة ونستهين بثروة الإنسان والزمن، وها نحن نجتمع الآن من أجل إستعراض بعض النقاط الملحة التي يجب التنويه اليها والأمور التي علينا ببحثها لنضعها موضع التنفيذ، وقد أعدها في ذهنه في أوقات سابقة بكل روّية وتبصّر، وفضل أن يتطرق إلى الإحتياجات الضرورية والمَسِيسَة التي تهمهم وترتبط بحياتهم مباشرة، والتي يطيب للأهالي تدارسها والإستماع لتداولها ومناقشتها وتلاقي إستحسانهم ورضاهم لأنها لصيقة بهم وتمس معيشتهم مباشرة، حتى يدركوا أنه مهموم بهم ومنشغل بما يسعدهم حقاً ويقضي لهم حوائجهم وييسر أمورهم، كان يتحدث اليهم بتعابير هادئة وعادية ليسهّل عليهم التواصل معه، وشيخنا قد أعد كل شيء بعناية وتثبت، متوخيا ضبط الأعصاب والإسهاب وتحلية اللسان حتى يلاقي كلامه صدىً حسناً في نفوسهم ويتشربوا أفكاره محلاة شيئاً فشيئاً بغية أن يتجاوبوا معه بجدية، شارحاً لهم أن المرحلة تحتاج إلى العزم الأكيد وتضافر جهود الجميع والإلتفاف بصدق وحسن نيّة حول هدف واحد

ورأي واحد، والإتفاق على وجهة واحدة وأن ندعم أقوالنا بأفعال جادة ومجدية حيث قال : —

لايمكنني أن أحمل هذا العبء وحدي، ولكن أحتاج إلى عونكم جميعا، ورائع أن تكونوا جميعاً دون إستثناء جزء مما سننجزه، في حدث نادر جداً وقلما يقع علق الشاب الحليق الرأس : ـ الشيخ يقصد نفسه، فما تقوله عن نفسك دع الناس يقولونه طوعاً عنك، كلُ إنسانٍ سيد نفسه فلا تبعيّة لأحد سواه، لكن الكلمة مرت دون أن يقف عندها أحد من الحضور، وفيما بعد عندما انفجرتِ اللحظةُ بآهات الإعجاب إرتبك الشيخ في البداية وإرتعب وتغضن وجهه، انه يعاني منذ البداية من إرتيابهم وشكهم فيه، فكل كلام لا يكون واضحاً ومفهوماً، حتى وان كان عفوياً يفسره تفسيراً سلبياً وكأنه ضده وهو المقصود به لا غيره، ولكن ما إن أدرك أن الأمرعكس ما توقع، ليس ضده إستنكاراً لما قال بل إنبهاراً واعجاباً بما سمعوا منه حتى مسح على جبينه مستعيداً شيئاً من هدوئه في فرح وإستأنف حديثه متلبكاً، لأن الشيخ كان خائفاً من القلة التي لم تخرج لملاقاته والترحيب به على اساس انهم غير راغبين في قدومه، وتوجس أن ينقضوا عليه جميعاً في أية لحظة يحسون فيها بالتناقض معه ويسحقونه، وقبل أن تخمد الدهشة على محياه تنفس الصعداء وإبتسم بغلبة ولسان حاله يقول :

— يبدو لي أن العمل في صمت قد انتهى لتبدأ المواجهه العلنية، إلا أن وجهه استمر محتقناُ إلى آخر اللقاء، لأن الشاب بعد ذلك زادهم وقال : —

صاحبكم بكلامه هذا كمن يحاول ان يشعل الرماد من جديد أو يعيده حطبا .

الأبيض أسود 15

كثف من لقاءاته بالناس كسباً للوقت وتحمساً للعمل واظهاراً لحسن النوايا، وشدد على الجميع الألتزام بضرورة حضورها والتعلق بها وكأنها طقساً مقدساً مباركاً تجدر متابعته والتمسك به ونشر كل ما يصادق عليه من مقررات بين الناس كي يستمد منهم الدعم والتأييد والمؤازرة عند اتخاذ قراراته القادمة وكي يساهم الجميع في صياغة خطط العمل، وسوف يغضب كل الغضب عن كل من يتغيب عنها، أو حتى يتكاسل ويتأخر مجرد تأخيرعن التواصل معها، وغضبه يُعد من غضب الرب، فأول ما يلتقي به من هم حوله ولصيقين به على الدوام خاصة في الصباح، تروح اعينهم مباشرة لرؤية وجهه يتأملونه بدقة للإستنباء، ويقرأون التعابير التي تحملها ملامحه ما إذا كان غاضبا هذا اليوم ويستقدح عيناه بشررٍ مصطنع أم لا، حيث يطيرعقله ويفقد صوابه ويأخذ يرغى ويزبد بأكثر مما يستحق الموقف وكأن السماء ستتطبق على الأرض بعد لحظات فقط، رغم انهم لا يعرفون سببا وجيهاً يقنعهم بهذا الغضب الطاريء ولا لماذا كل هذا الزعل غير المبرر والمبالغ فيه، بل هو نفسه الآخر لايعرف ولا يحس بسبب واقعي محدد يدفعه لذلك ولكنه اعتاد ان يفتعل هذا الشعور ويتقمصه ليمثله باتقان كأنه حقيقي، حتى أصبح جزءاً من شخصيته وطبيعة سلوكه، وإستحسن القيام به خاصة بعد ان لمس جدوى وفعالية هذا الأسلوب الغريب الذي انعكس في مساعدته على اخضاع الجميع له، إذ يوهم الآخرين بعدم رضاه عما يجري

بسبب تقصيرهم وتراخيهم عن آداء واجباتهم ـ غير المحددة ولا المعروفة لهم ـ على الوجه الأكمل ويظهر لهم انه شديد الحساسية والحرص على الواحة من الضياع وكأنه لا يعجبه العجب ليجدّوا أكثر ويجتهدوا في خدمته ويبذلوا ما بوسعهم ويفوقه، لتحقيق رضاه بشتى الطرق، رضاه الذي أصبح أمنية ثمينة لأعوانه، وهو يرتاح جداً لهذا الإدعاء ليأمن جانب المشكوك فيهم ويتقي شرورهم وليشعرهم دائماً بالذنب تجاهه، وهو وحده دائماً الضحية وأنه يقظ ودون غيره قد استطاع اكتشاف أخطاء جسيمة أغاظته ودفعت به إلى هذا التصرف غير اللائق، لأن هذه الأخطاء التي يراها وحده قد تؤدي إلى انهيار الواحة برمتها وتضيع بذلك التضحيات الجسام التي قدمها بنفسه قبل أن يقبضوا الثمن وينالوا نتائج النجاح، وقد لمسَ في هذه المخادعة تأثيراًعليهم وارتهانهم لغضبة صغيرة مفتعلة فتخضع الجميع له، وحثهم على الإلتزام بمقرراته وتطبيقها بلا تردد، كل ذلك بغية صناعة كوادر أمينة له ووفيّة تمنحه الولاء بلا حدود وفق مشيئته ويمتثلون لأوامره ونواهيه بكل دقة ويتخلقون بأخلاقه ويستنسخهم منه ذاتياً نسخاً مطابقة له حيث يقيّم في صمت وهدؤ مواهب وقدرات من هم حوله كل واحد على حده، ويختار لكل مهمة رجلها المناسب، فهو في شك دائم ولايستقرعلى ثقة في أحد حتى يتعرف عليهم أكثر وبذا يوفق في إسناد المهام اليهم بصواب ونجاح دقيقين، ويجعل منهم كائنات ذليلة يتبارون في تقديم فروض الطاعة والولاء والخدمات له بلا حدود وليتفرغوا للدعاية له والعمل على تثبيت أركان مركزه باشهار فضائله وتمجيد إنجازاته ولا يكتفي بما قدموه له في الماضي بل لا يتوقف عن طلب المزيد. اصبحوا يشاركونه تشاؤمه وتفاؤله يشاركونه حزنه وفرحه وتتوقف حالاتهم من حسن

أو سؤ على حالته، وارتبطت بها ارتباطاً وثيقاً لذلك نجدهم يسعون دائماً إلى استرضائه حتى ينعموا هم ايضاً بالفرح والتفاؤل، ويأتون على ذكر محاسنه ويضيفون اليها المزيد من عندهم وكأنه الوحيد من بين الخلق يستطيع انجازها، والتحدث عن الخوارق التي إجترحها والعجائب التي أتى بها، كما لو أنه يرشدهم إلى روحانية جديدة، لقد صاغ أؤلئك الاتباع الدين يحبذ تسميتهم بـ (الاخوان) باتقان متناهٍ، كيفما أراد وحسبما شاء، وكيّفهم على هواه لدرجة انه وثق في الواحد منهم — بعد أن خبرهم وجاس دواخلهم — ثقة عمياء بلا حدود، لا يتطرق اليه الشك في أي منهم. وبينما هو يستدرج الخارجين عنه بحلاوة لسانه كما تعود أن يفعل معهم دائما، وذلك للمفعول الإيجابي الذي لمسه في السابق من هذه الطريقة، ضاق احد الشباب درعاً بما يسمع فانفجر محتجاً مباشرة ودون مقدمات : —

أنا لا أسمع كل ما يقال لي، ولا أصدق كل ما أسمع لقد فهمت ما عنيت، نحن نريد ان تصبح أفعالنا اليوم أساطيراً في الغد، نريد أساطير الآخرين الذين هم نحن وليس أساطير الأولين الذين هم أسلافنا، فالعلم حق مطلق وليست كل الأساطير باطل، وينتهي الجهل مع أهله، الفكر الطوباوي يسهل فهمه ويستحيل تطبيقه على الواقع، وعلى الإنسان ألا يخون نفسه ! قاطعه احد الحضور ـ وكيف يخون الإنسان نفسه ؟ — :

عندما يقدم على فعل ما ليس مقتنعاً به وهو يعرف انه خطأ ويتمادى في ذلك إلى حدود أبعد لا تطاق !

الأبيض أسود 16

أحد الحضور الدائمين لقعدة الشيخ الهامشية مع بطانته أثناء اوقات فراغه شخص كانوا يلقبونه بالراعي وأحياناً يصغّرونه بغرض التحقير والإستخفاف به (الرويعي)، وقد ألصقوا به صفة جائرة عندما وصفوه بالبلاهة وأحياناً بالعته ليتمكنوا من فرض غلبتهم فرضاً والإستحواذ عليه لتسخيره للقيام بما يتأففون عنه من أعمال دنيا ومهام هامشية كخادم مطيع، وإسمه الحقيقي (الضاوي)، وما وجوده أيضاً إلا من أجل التسلية به والمزاح معه وفي المستقبل عندما يستتب الأمر لهم وترسم الجلسات وتغدو تقليداً راسخاً مستديماً سيتخذونه مهرجاً أثناء مجالس السمر والسهر التي ستعقد ليلياً ولتمضية أوقات الفراغ وليخففوا عن الشيخ وطأة المسؤولية وعبء تزاحم الذاكرة وانشغالها بالواجبات التي تثقلها، ورغم أن (الضاوي) صموت لاينطق بمالا يلزم من الكلام ولا يجيب على الأسئلة فورياً، الا بعد زمن طويل واحياناً قد يجيب عليها في اليوم التالي بعد ان يكون احياناً السائل قد تخلى عن سؤاله أو نسيه، فهو ليس سريع التفاعل مع الأخبار التي تردهم ولا ينطبق عليه ما يصفونه به ولايصلح لما يعدونه له ويمنّون أنفسهم به وأيضاً لا يتمتع بحس الفكاهة والدعابة المطلوبين في مثل هذه الحالات، يمتاز بمتانة أعصابه قليل الغضب وان غضب فهو قريب الرضا ولا يحمل في نفسه كرهاً لأحد، ومع ذلك يسميه بعضهم بالضحّاك، فكان اذا لم يجد ما يضحكه ويسلي عليه يصنع بنفسه من بنات خيالاته – عندما يطلق لها العنان – فرحاً صغيراً له وحده، من نكتة طارئة أوفكاهة يكون قد ألفها ووضعها

على هيئة مونولوج داخلي قد يطول وقد يقصر وكان خلق النكات والإستمتاع بها هو شغفه الأول وهو بارع في ذلك، وونكاته لها نكهة مميزة، إذ يفترض واقعة ويبتكرلها مآلات وتداعيات غريبة من رأسه، ويبنيها عليها باتقان عجيب، ويتتبع أحداثها إلى أن يشكل منها فكاهة أو لطيفة، بعد ان تكتمل خيوطها يحيكها ثم تتماثل في خياله شيئاً فشيئاً بوضوح، ينشرح صدره لها ويبتسم وحده ولنفسه فقط ما طاب له الإبتسام وباتساع الذاكرة، فيتكفل بإسعاد نفسه بنفسه، ويكتفي محتفياً بفرحه لوحده، واذا ما لاحظه بعضهم وسأله عن سبب لهذا الضحك المفاجيء يتمنّع، حيث يتسع المعنى للنكتة ويكتسب ايحاءات جديدة فيزداد ضحكاً لتوقعه المسبق لوقعها على نفوسهم، وللآراء التي ستُقَابَل بها وستقال حولها إذا ما رواها لهم من جديد بكافة تفاصيلها، فيكتفي بالضحك وحده وكأنه يبخل عليهم بمتعة قصيرة أو يريد ان يشحذهم بمزيد من الشوق إلى سماعها، ولكن في أحيان قليلة يسمح بمشاركة البعض ممن يثق فيهم وفي ردات فعلهم تجاه ما يقوم به، وينزل عند رغبات البعض ممن يتسامح معهم ويروي لهم ما سطر خياله المتوثب، واذا ما اعادها ثانية على مسامعهم تحت الحاحهم المتجدد الذي لا يتوقف يضحك جميعهم بأزيد من المرة الأولى، لما يضيفه اليها في هذه البرهة من مشاهد وأحداث جديدة، فلا يواجهون مبادراته هذه بالضحك عليه والإستهزاء به.

هؤلاء تعوّدوا مشاهدة ذلك واصبحت ضرورة لديهم لا يستغنون عنها وينتظرونها منه على الدوام، واذا ما تأخر بها عنهم أو انهم لم يصادفوه وهو متلبس بحالته الخاصة هذه، يذكرونه بها لعله نسي ويطالبونه باهدائهم واحدة من اضحوكاته الممتعة الجديدة، متعللين بأنه قد يكون فاتهم الكثير من النكات خلال تأخيرتهم هذه. البعض

الآخر يجالسونه باستمتاع مفتعل وغير حقيقي وان تكلم لايفهموا ما يعني، فيضحكون منه في تكلف وقصور دون التوصّل إلى إدراك حقيقة ما يرمي اليه، كانوا يعتقدون أنه أبله ولايستطيع فهم شيء مما يدور بينهم أمامه، ويتجاوزون حديثه عند الإدلاء برأيه الذي عادة لايعتدّون به أو يلتفتون له، على إعتبار انه جماد لايفهم ما يسمع ولايعي ما يقول، معمعي لا رأي له، وأحيانا يتهامسون ويضحكون عليه من باب التندر والفكاهة عندما لا يجدون ما يسلّيهم ويروّح عنهم وكأنه إنسان ما قبل التاريخ، لكنه في حقيقة الأمر كان يتصنع الغفلة ويتبنى التجاهل بتريث، لمعرفة المزيد وجمع الأكثر، وليقف بنفسه على حقيقة ما يجري حوله ويتأكد منه، يزدادون انكشافاً ووضوحاً له ويزداد سخطاً ونقمة عليهم لا لشيء أو لأنهم يتخذون منه هُزأة، ولكن لإستخفافه من ضحالة تفكيرهم وربماغبائهم وقصرالنظر الذي يطبق على عقولهم، ويحنق على حظوظ الحياة التي تمنح بيسر فرص رغد العيش لأمثال هؤلاء الجهلة، فقد لمس إنهم أناس نمطيين تمت صياغتهم صياغة جامدة لا تقبل التغيير ولا يرتجى منها أمل، ساءل نفسه مرة :ـ لا احد معي يعينني عليهم لقد زجوا بي في هذا الوضع وسخّروني ليسخروا مني، حتى انني كلما تأخرت عن الحضور عمداً او بدونه وتهربت من جلساتهم المملة، لايطيقون افتقادي فيبعثون لي احدهم يدعوني للحضور فوراً، وينبئني بلهفة الشيخ ووحشته اليّ، وأنا أعرف جيداً ان هذا ليس شوقاً لي كما يبدو للجميع ولكن حتى لا أفلت من قبضته ويبقيني في الربقة بقربه.

لأن شيخنا هو الوحيد الذي يقيس بإستمرار في كل الإتجاهات عمق تفكير(الضاوي) وبعد نظره، وأدرك قدره الحقيقي واحس بتفوقه عليهم وكان يفهم حق الفهم تعليقاته القليلة التي كان يطلقها متباعدة

ويستوعب مراميها، ويعرف فحوى كلامه أثناء ردوده التي تبدو لهم سطحية أوعشوائية ﴿ ظاهرها ويدرك بدقة أبعاده ومغزاه الحقيقي منها، يفضل تجاهله على قلق وقت قولها فقط امام الحضور الآخرين تحاشياً للصدام، ولكي لا يعطي لكلامه أهمية يفيده منها، فيحس بها الحاضرون ويقفون عندها وقفة اعجاب ثمينة، ولايصم أدنيه عنه، بل يتابعه بشغف ويركز حواسه كلها عليه وعلى ما يقوله فلا يفوته تعليق منها، ويكتفي بتوجيه نظرة تأنيب ولوم جامدة وخفيّة يمررها له ولا ينتبه اليها أحد من الحاضرين، وربما فيها شيء من الوعيد، ويتبادلان بينهما النظرات الغامضة التي تحمل معاني يعرفانها وحدهما فقط، فالشيخ احياناً لا ينظر اليك، ولكنه يراك بوضوح وينظر اليك ويرى شخصاً آخراً لا يخطر على البال، ورغم أن الواحد منهم جميعاً لا يقوَ على النظر إلى عيني سيدهم مباشرة بل يتحدثون اليه ورؤوسهم مطأطأة ويتعللون بأن نوراً مبهراً يشع من وجهه، وحتى وان كان الشيخ لا يشك في الضاوي بشكل حاسم ومؤكد، لكنه لم يكن ينظر اليه بعين الرضا مثل الآخرين ولايثق في نظراته المشبوهة وصمته المريب، تذكر أخيراً ان الضاوي هو أول من اكتشف وجوده وعاج عليه وهو في خلوته في الغار في بداية حلوله بالواحة، حتى ان الشيخ ذات خلوة بنفسه داهمته خاطرة مفادها :-

لو انني استملتُ الضاوي منذ البداية وتمسكت به أكثر من غيره لكانت استشارته أهم لي وأفيد من عشرة رجال منهم. كل شخص هنا في هذه الواحة متهم بالخيانة حتى يثبت ولاءه وطاعته بوضوح، ويحدث هذا فوق إدراك البقية الباقية من الحضور ولا وعي لهم بمثلها، وان كان هذا يقع أمامهم وكأنهم غير موجودين، فهما الإثنين على درجة واحدة من الدهاء وكأن بينهما تواصلاً خافياً بالعينين يحقق تفاهما

مبهماً لا يستطيع أيّ منهما الإفصاح به للآخر، كتلك الإيماءات الضمنية الحادقة التي يتبادلها الدهاة فقط فيما بينهم، ولكن بعد أن ينفضّ المجلس، ويجلس الشيخ مع نفسه وحيداً ـ وهي أصدق وقفة ـ يفكر بتمعن ويعيد في ذهنه ما دار وماقيل أثناء اللقاءات النهارية، يهوله ذلك ويتوقف كثيراً عند تعليقات الضاوي ويحللها، ويكتشف فيها المزيد من المضامين التي لم يتوصل اليها في حينها، ويجد أنها الوحيدة العميقة التي تحمل دلالات صادقة وحقيقية نغّصت عليه ليلته، فأدرك بسرعة أن هذا الشخص أكثرهم نباهة وهو الوحيد من بينهم الذي يتتبع ما يجري ويتكهن اللعبة على ما يبدو من أساسها وتكاد تتضح له ويفهمها، أصبح ليس واثقاً بوفائه كبقية خلاصه، حاور الشيخ نفسه :ـ هل هو يحسدني في سره ؟ فالحرمان الذي أهلني إلى ما أنا فيه من بحبوحة ورغد عيش، ربما هو الآن يُعِدُّ غريمين مجهولين ضدي وسينقلبون وينقضّون عليّ عندما تواتيهم الفرصة، من يدري؟. فتزعجه هذه التوجسات الطارئة وتضيّق عليه الخناق وتزيد من ارباكه وأرقه ليلاً حيث يبقى ساهراً ساهداً وحيداً متفرغاً لتأمل الأوضاع، وتفصيص المجريات والتخطيط للآتي الذي يعتبر شغله الشاغل، قبل أن يداهمه الخطر ويعمل على تأكيد شكوك بعضهم، فتتزعزع يقينياتهم به، ولا يمكنه النوم إلا بعد ان يفرغ من تأمل وتحليل ما دار بالنهار فلا يحب التأجيل، إذن لا يمكن تجاهله، وما عليه إلا تدبر أمره مع هذه الغُصّة ومعاجلته بمعالجه مناسبة، حتى يتمكن من تفادي شروره والإطمئنان إلى جانبه في المستقبل، كشراء ذمته مثلاً بعرض المغريات عليه ربما يقبل بها ان كان من ذلك النوع الرخيص من البشر، الذين يقدّرون بثمن بخس أو أبخس، ولكن أي انسان مادام قابلاً بالمساومه ويمكن شراؤه وله ثمن محدد مهما

كان غالياً فهو بخس، لزم الأمر شراؤه قبل أن يتمادى أكثر ويكوّن لفيفاً حوله من أمثاله المجهولين ويؤلبهم عليّ في المستقبل فيستفحل الأمر عندها يصبح من الصعب التعامل مع الحالة وإحتوائها، إذ قد ينظّم خلية سرية تشتغل ضدي، فهذا الذي يسمونه الراعي، ليس كما يزعمون مجرد أبله لا أفق له ولا يفهم إلا طبائع وسلوكيات الحيوانات التي يقوم على تربيتها وما يطرأ عليها من تغيرات كتوليد الإناث أو طريقة سياقتها إلى المراعي ويجب ألا نتناوله من هذا الجانب فقط، بل هو على العكس من ذلك تماماً شديد الذكاء فطن وأنبّه منهم جميعاً هؤلاء الذين يدّعون الدعة والأبهة، وأكثر تفهماً وأصوب تحليلاً لمجريات الأحداث في الواحة، فهمُ جميعاً الرعاة وهو الوحيد الراشد من بينهم الذي يستحق الإستماع الي ما يقوله بانتباه، حتى أنه قد دوّخ الذئاب المتربصة وأفشل مغامراتها – التي كثيراً ما حاولتْ فيها نهبَ حملٍ أو نعجة – بخططه وطريقة سوقه للقطيع إلى أن يوصله سالماً إلى أهله، وأصبح يرغب في التحدث اليه أكثر من غيره واستبطان دواخله بأعمق ما يمكن لمعرفة ما ينطوي عليه هذا الرأس المحيّرمن نوايا حقيقية، ومن جهة أخرى في نفس المسعى يحاول الشيخ ان يقزّم (الضاوي) ويجعل منه مسخرة امام الحاضرين لعلما هذا الأسلوب يطفيء توقد ذهنه ويكسر حدته ويصيبه بالإحباط ثم الفشل، واذا ما ساوره شكٌّ في اي منهم ولو كان ظن خاطيء منه سينال عقاباً دون ان يعلم مصدره ولا عَلامَ نال هذا العقاب تحديداً فانتقامه دائماً ماحق سريّ ومجهول خشية رد الفعل الغاضب، لذلك كلف بعضهم أن يتخذوا منه أهكومة ما إن يأتيهم حتى يباشروا جميعاً في التحرش به ونبشه ومقابلة كلماته التي قلما يتفوه بها بالضحك منه بصوت عالٍ وملفت إذ طلب منهم إطلاق وابل

من القهقهات الجماعية المدويّه دون مراعاة لشعوره، ينفجروا بها جميعاً ـ في لحظة واحدة ـ فهموا منه شيئاً أم لم يفهموا لا يهم هذا، المهم لديه وقعها السلبي على الضاوي ـ في اشارة إلى سخافة قوله والسخرية من الأفكار التي ينوي طرحها وانها ما أتتْ لهم بجديد ولا مفيد، بهذه الطريقة قد يحس بتفاهته ويتم قمعه واسكاته مستقبلاً ويدمر معنوياته التي تظهر قوتها في كل يوم جديد أكثر. وللمزيد من التحوطات تبنى تدابيراً اخرى بعد أن توهم الخطر وأحس بعدم الأمان فشاء ان يتخذ لنفسه مكاناً آمناً يختاره بدقة ويحتمي فيه ممن يسميهم أعداء، وكان يشك في وجودهم مجرد شك اذ انهم قد يكونوا غير موجودين في الحقيقة، ولكن لقتل الشك نهائياً، وذلك بالعمل كثيراً لإحداث شرخ في الوسط الإجتماعي للواحة وشق صفها إلى نصفين متقابلين، أصبحا فيما بعد متنافسين متضادين متخذاً من تنوعهم وإختلافهم الطبيعيين نقطة بداية، معتقداً أنه سيعيش في سلام ويتفرج بمتعة على ما يجري بينهم من شقاق وتطاحن، وكلما شعر بتقارب وتواد بين الطرفين المتنازعين يقف للحيلولة دون بلوغه بكل دهاء وحنكة ويغلّب طرفاً على آخر بواسطة طرفٍ ثالثٍ إنتقاه من مريديه وأعده لهذه المهمة خصيصاً، حتى يعمق الهوة بين الشقين أكثر ما يمكن، ليصبح وصالهما فيما بعد متعذراً أو على الأقل صعباً، وهذا المخطط يمكن لنا ان نسميه بتفخيخ المستقبل (مستقبل الواحة) تفخيخاً مستديماً لا ينتهي عند زمن قريب، إذ حتى بعد مماته وزواله تماما يبقى الشرخ الذي صنعه قائما وعميقا إن لم يزددْ عمقاً ويتحول إلى تقاتل وتناحر، كان حادقاً في القراءة السلبية للغد، عاش وكأنه لم يفكر الا في هذا الشأن ولم ينجح الا في هذا الجانب الآثم .

17 الأبيض أسود

عندما تكون القفزة واسعة جداً بين كيف كان (الشيخ) وكيف أصبح، ويقع له التبدل فجأة بين حالتين متناقضتين من الاسوأ إلى الاحسن وفي طفرة صنعتها الصدف الحسنة وحدها التي إنحازت اليه بوضوح ورجّحت كفته، من عابر سبيل لا يلوي على شيء كل همه ان يعيش حياة رضيّة بين القوم إلى حاكم يسوس واحة برمتها بلا حكمة، إضافة إلى هذا التأييد الواسع الذي إكتسبه والمبايعة المطلقة التي نالها من أغلب الناس وهذا ايضاً ما زاد من اعتداده بنفسه وضخّم من شخصيته بلا حدود وتملكه الغرور بأنه الأفضل على الإطلاق، إذ سرعان ما سما مركزه وقويت هيبته وأصبح شخصية معتبرة ذات قيمة يشار اليها بالبنان ولايستهان بها في المنطقة قاطبة حيث تخلى عن شخصيته الأصلية التي اصبح يتعيّب منها كثيراً وشاء ان يطمسها من وجوده، وأضحى إنساناً آخراً لا يمت إلى ماضيه القريب بصلة، وأمسى شديد العناية بأناقته فتغيرت هيأته القديمة تماماً وتحسّن هندامه مقلداً الأكابر في مظهره، ما عاد يرتدي تلك الأسمال البالية المنفرة التي عرفوه بها، وتخلص من أدران الماضي وغدا يمتلك وجهاً أحمراً وضيئاً وبانت عليه علامات النعم والبحبوحة بفضل نظام غذائي جيد يتّبعه بعناية ويختلف كثيراً عما كان يتناوله في سابق حياته من فتات لاتسمن، فلا يتناول الا الأطعمة المفضلة لديه التي يستسيغها وليس أي طعام يتوفر له كبقية الناس، وايضاً نتيجة لقلة تعرضه لأشعة الشمس وركونه إلى الراحة وإلتزامه

بالبقاء في الظل وإهتمامه الشديد بنظافة بدنه، حفاظاً على حياته كي يعيش أطول عمراً، وكل من يراه من معارفه القدامى في مظهره الجديد هذا لايمكنه التعرف عليه من اللحظات الأولى وبالسهولة الإعتيادية فقد تغيرت ملامحه تماماًعن ذي قبل، الا اذا تحدث معه مباشرة فعن طريق صوته يهتدي الي إكتشاف شخصه، وشاء ان يغيّر لكنته ويبدل بعضاً من المفردات التي كان يستعملها وجاءت معه من الواحة القديمة ليكتمل إختفاؤه كليّة، فهو يحاذر منذ ان نزل بهذه الواحة الإلتقاء بأي من إخوته بالرضاعة أو أحد معارفه السابقين في الواحة الأولى ويتوجس ذلك على الدوام رغم بعدها الكثير عن مكانه، وبالنسبة لهم فهو من غير المعروف إلى أين ذهب ثم إختفى؟ وفي اعتقاده أن السؤال والبحث عنه لا يزالا جاريين بكل تأكيد.. فلا يخرج من بيته فجأة وعلى نحو مباغث الا بعد ان يستطلع الشارع من خفاء آمن ويتأكد من خلوه من أي منهم، لهذا بالغ أهل الواحة في الحرص عليه بعد ان أعاز عليهم بذلك، بأن جنّدوا بشكل تضامني جاد ومسؤول فرقاً عديدة من العيون السرية والعلنية، تتمتع بكفاية عالية وقدرات نادرة ولها خبرة طويلة في مجال التقصي والتحري وإكتشاف المكائد والدسائس قبل وقوعها لإحباطها والقضاء المبرم عليها إذا ما إستهدفه أحدٌ بها، ومتابعة الغرباء في تخفٍ والتبليغ عنهم اولاً باولٍ اينما وجدوهم ليوفروا الحماية اللازمة له وللحفاظ على روحه التي أصبحت ثمينة جداً بالنسبة لهم وذلك بحراسته الحراسة الشخصية المشددة والدقيقة أينما تواجد أو إتجه وحيثما يكون بعد ان اصبح نجمه يلمع في المنطقة، ومراقبته – حد التجسس عليه – مع كل من يزوره ويختلي به أو يجتمع معه على إنفراد خشية أن احدَ هؤلاء الزوار الغرباء المنبهرين به قد يكون مجيئه من أجل أن

يلعب برأسه ويستهويه فيستميله اليه ويقدّم له مقترحات وعروض مغرية ربما يضعف لها ويسيل لعابه ولا يجد لها دفعاً فيغيّر رأيه ويقتنع بالعدول عن البقاء معنا والإنتقال إلى واحة أخرى من الواحات المجاورة التي دفعت له أكثر وحسدتهم عليه وربما تضمر لواحتهم كرهاً قديماً لا يعرفونه اليوم، بعد أن أصبحتْ محط أنظار المنطقة برمتها وسرقتْ الأضـواء من الواحات الأخـرى، حيت أزاحتها من المقدمة، وتبوأت المكانة المرموقة وأخذت تزدهر وتتفوق باضطراد واضح على مثيلاتها، وتتعاظم خيراتها ويرتفع شأنها عالياً، خاصة وأن بعض الواحات الأخرى تتمتع بمواقع هامة أكثر إشراقاً وأراضيها أجود خصوبة وأوفر ماءً وبالتالي إمكاناتها أفضل بكثير من واحتهم حسنة الحظ ومستعدة هذه الواحات الغريمة للنزول عند رغبات الشيخ وإشتراطاته مهما كانت باهضة عليهم، ودفع له ما يطلب مهما كان مكلفاً، وإذا ما توافقت هذه التكهنات والمخاوف مع الواقع وما يجري حقيقة تكون قد خسرت واحتهم صفقة الدهر وفقدت مصدراً مهماً للثروة التي حلموا بتحقيقها طويلاً وهم في حاجة مسيسة لها، فيرحل معه تاركاً بلدتهم التي رمى به القدر اليها أولاً وظفرت قبل غيرها برجل هي في أشد الإحتياج لخدماته وآرائه النيرة وخططه الناجعة، ويفقدوا أيضاً مصدر سمعة طيبة وشهرة رفيعة، وتبركاً بأصله وتيمناً باسمه الذي أضحى رمزاً شائعاً، فقد أطلقه الكثير من الناس على مواليدهم الجدد ومنهم من غيّر إسم إبنه ومنحه الإسم الجديد للشيخ حتى أصبح جل الأطفال يحملون اسمه مما أربك الناس عند المناداة عليهم، كما إتخذوا من ضريح والده معلماً ثميناً ومقدساً يستقطب الزوار والمتبركين الذين يعتمرون له من كل أرجاء المنطقة .. وستبقى صورته ماثلة في الأذهان عبر الأجيال المتعاقبة

إقـراراً بأفضاله التي قدمها بلا حدود ويلمسها كل من القاصي والداني، وإذا ما تعرض لوعكة صحية تعلن الطوارىء تلقائياً في كامل أرجاء الواحة، وينشغل الناس به وبمرضه فيهرع اغلبهم إلى البحث عن الأدوية اللازمة في كل مكان، ويعتصم الرجال حول مكان اقامته ليل نهار ولا يغادرون منتظرين لحظة شفائه ويقيمون حلقات الذكر التي يتضرعون فيها إلى الخالق بأن يعجّل له بالشفاء ويمن عليه بوافر الصحة سريعاً، ولايبرحون المكان الا بعد ان تطمئن نفوسهم ويتماثل للشفاء نهائياً، ويتفاجأ كل من يعرف واحتهم في السابق عندما يزورها الآن وتتملكه الدهشة وهو يقارن ما بين كيف كانت وكيف أصبحت من زحام وزخم حياة بعد هذا الحلول الميمون، لذلك أصبح من أولوياتهم الحفاظ على سلامة هذا المخلّص والسعي إلى إرضائه بشتى الطرق والوسائل وتوفير مطالبه وكل أسباب الراحة له مهما كلفهم ذلك من ثمن .

18 الأبيض أسود

ذلك الفتى اللبيب ذوالرأس الحليق الذي يعاني منذ البداية من فقدان ثقة فيما يجري حوله ويسعى أهل الواحة بلا توقف إلى تحقيقه، ويصارع نفسه الأبية الرافضة والتي تحتم عليه وتأمره على الـدوام، بفعل شيء ما لمواجهة ما يحدث وخاصة كسر هذه الأحادية في ادارة شؤون الواحة التي يتمتع بها الشيخ وحده وحرم الآخرين من حكم واحتهم معتبرهم قاصرين لايقوون على حمل وزر بهذا الحجم، فالفتى منذ البداية له رأيه المختلف وأخذ أمر مجيء الشيخ على محمل الهزل وعدم الجدوى، لشكوكه شبه المؤكدة في عدم كفاية قدرته على البناء. كان له حضوره الباهر ويحمل بين ضلوعه قلباً شاباً يخفق باتجاه الغد، وإنه المختلف عن الجميع والذي يحمل طِباعاً مغايرة للآخرين، فهو صموت وهادىء وفهيم، ويستمع أكثر بكثير مما يتكلم، غير متسرّع في إتخاذ القرارات، يتابع بعينيه وأذنيه فقط، لايميل إلى التلاسن والإشتباكات الكلامية والمماحكات عديمة الفائدة ـ التي كثرت هذه الأيام ـ الا في حدود ضيقة تفرض عليه في الغالب ولا يجد مهرباً منها فيواجه الموقف بصلابة نادرة، ولكنه إذا ما تكلم تتجه أنظار الحضور اليه وتُشَدُ الحواس أيضاً نحوه، لأن كلامه ثمين وذا معنى ولا يسكت على ضيم أو يصمت على خطأ أوعلى أقل تقدير يصعب إسكاته، انه يعيش في محيط أبعد ما يكون عن هذا المحيط السائد، لذلك يحيا صراعاً داخلياً مع نفسه الأبية التي ترفض المزيد من الصمت وتحثه على المبادرة والمحاولة، وتحوّلَ

إلى ناقد لاذع بعد ان وجد نفسه مختلفاً عنهم جميعاًويحمل رؤىً مغايرة وبدأ يشهر عصيانه ورفضه للأوضاع التي اصبحت تسود الواحة، في حقيقة الحال لايريد ان يصنع خصوماً له ولغيره، بل بوده ان يهتدي الجميع سوياً إلى حقيقة واحدة، فالحقيقة واحدة بينما السبل اليها عديدة. فما ان يأخذ الحضور أماكنهم حتى يفتتح الشيخ الجلسة ليُملي بعضاً من أوامره عليهم ويشرع في مناقشتها وتبسيطها ليفهمها الحضور وليملأ بها رؤوسهم بعد ان يزينها لهم، وكان يواجه صعوبة لإقناعهم ويتعب كثيرا في افهامهم ما يريد، لغرابة المسائل التي يطرحها وغرابة الحلول التي يأتي بها، ويختار لكل أمر الأسلوب المناسب له والوقت المحدد لينجح في تنفيده فلا يخلط الاوقات. في البداية يضيق الشاب الحليق درعاً بما يسمع فيظهرُ إستخفافا واضحاً بالكلام الذي يسمع، ولا يهتم بصاحب الكلام كأن يجلس في وضع غير مهذب لا يليق بلقاء مهم ينتظر منه الجميع مقررات مصيرية تعود عليهم بالفائدة، والشيخ بدوره هو الآخر يمتعض من هذا الفتى ومن وجوده بينهم، غير انه يفضل تجاهل حركاته المناوئة ويتطارش عن سماعه إلى ان ينهي الشاب هذيانه كما يعرّفه الشيخ فقد أصبح ممن لا يستسلمون بسرعة، وهذا يدل على أن الفتى يشكك فيه وفي كلامه أمام الحضور لأنه على يقين من ذلك، وان الأمر برمته لايعدو كونه استحواذاً سهلاً على قلوب وعقول هؤلاء الناس الطيبين الذين تغلب عليهم البساطة وسهولة الانقياد حد السداجة دون أن ينالوا فائدة تذكر، خاصة كبار السن منهم الذين بيدهم الحل والربط وهم الأقرب ليكونوا الضحية المثلى فجازتّ عليهم حيلهُ وألاعيبه، فهو كذاب عن عمد، وهم صدقوه بعفوية، واحد ينظرُ إلى الأمس والآخر ينظرُ إلى الغد، كيف يلتقيان ؟ والخوف الحقيقي يأتي

من اؤلئك الذين يدعنون له بطاعة مُبّصِرةٍ، واجهه ذات مرة قائلا : –

لماذا نحن فقط نجل ونقدس الأموات (في اشارة واضحة إلى أبيه)، ونحتقر ونستهزيء بالأحياء الأهم والأكثر فاعلية ؟.

أهم الأشياء وأثمنها هو الزمن ونحن نستخف به ولا نعطيه حق قدره وهذا توجه خاطيء، فهو لا يهتم بما قدم للواحة من انجازات، ولكن همه الكبير يتركز في اطالة مدة حكمه الذي يعتقد أنه سيحسب له ويرفع من شأنه حتى تأتي الأجيال اللاحقة على ذكره بأنه تمتع باطول فترة حكم في تاريخ الواحة على الإطلاق، ولكن في الحقيقة ستحسب عليه سلباً، صاحبنا يستهلك الزمن فقط دون مردود ذو فائدة يذكره به الناس، تمنى لو يدفع بالزمن إلى الأمام كي يمر مسرعاً ويسجل له أكبر عدد من سنوات الحكم ليتباهى ويتفاخر بذلك اشد المفاخرة امام الآخرين، بانه الوحيد قد ضرب الرقم القياسي اذ حكم الواحة اطول فترة ممن سبقوه في تولي امرها، وكان هذا كل همه، فأخذ يعد بحرص وقلق السنوات التي بقاها في سدة الحكم عاما بعد عام، فرأى ان السنوات تمر بطيئة وثقيلة وكأنها ترفض منحه هذا الشرف وتحتاج إلى صبر منه عليها حتى تمضي ويكثر عددها برقم مشرف يمكن التفاخر والتبجّح به وتضاف إلى رصيده التاريخي في الحياة، ولم يعجبه هذا الرقم الضئيل بعد طول انتظار وهو على عجل وقلق، فقرر التحايل عليها وتجاوزها إلى ما هو أفيد وأكثر عدداً واخذ يحسب مدة توليه الحكم بالاشهر، وعندما ازداد نهمه وتمرس في الحساب اكثر واصبح ضليعاً في الفلك ابتكر طريقة افضل رغم انها طريقة مخجلة، فأصبح يعد مد ة حكمه بالأيام، ومن بعدها لم يدم طويلاً اذ سرعان ما تلاشى الزمن وانهار سلطانه حين راودته فكرة العد بالأيام وربما بالساعات، وفي مقابل كل ذلك

نجده لا يصرّح بعمره الحقيقي فدائماً يتهرب من الإجابة عن هذا السؤال ويعطي إجابات متضاربة حسب الجدوى مع الموقف. وكل هذه الأشياء تخالف المعايير المتعارف عليها بأن المدد متساوية بين الحكام ولكن الفرق يظهر بينهم فيما قاموا به من إصلاحات وقدموه من أعمال مبهرة وجليلة ومآتر يذكرهم بها التاريخ، ما جدوى أن تحكم ولا تعمل وبالتالي لا تنجز ولا يستفيد من ذلك أحد، أفضل الأعمال من اختراعات واكتشافات قدمت للإنسانية من اناس لا يحكمون ولا حتى تطلعوا إلى كراسي الحكم مطلقاً ولافكروا في الوصول اليها، فالقائد الحقيقي لا ينسى صغائر الأعمال التي تقدم له لأنه غير جاحد ولا يتذكر كبائرها التي يقدمها لأنه ايثاري، انتم القادة تملكون أكثر من ملك وتحكمون أشمل من رئيس وتقولون نحن لا نملك ولا نحكم، واخيراً لماذا نحلم بالمستحيل ؟

و نحن على يقين من أننا لن نحقق منه شيئا ؟

19 الأبيض أسود

في أغلب الاوقات يقيم الشيخ حلقات نقاش في محاولة منه لإكتشاف المواهب واستمالة الشباب اليه وكسب تأييدهم لأنهم الشريحة الوحيدة الذين يثق في قدراتهم ويعول عليهم كثيراً في تقبل واستيعاب افكاره حد الإيمان بها، وهم من سيحملها إلى الغد ويؤبدونها فيما بعده في ذاكرة التاريخ وهذا حلم يراوده منذ البداية، فعمر الإنسان مهما طال فهو قصير والشيخ لايكتفي بحكم الواحة في حياته فقط ولم تقنعه سنين حياته القليلة، بل يريد لحقبة حكمه ان تمتد وتطول إلى ما بعد موته ولو تمكن من احتساب السنوات التي سبقته لما تردد!، وعندما يستقطبهم سيقفوا إلى جانبه ويدودون عنه ويدعم بهم صفّه، لكنه ادرك أخيراً ان ذلك قد عاد عليه بالوبال وجاءت النتائجُ معكوسةً وما توخاه لن يتحقق منه شيء، إذ يدخل مع العديد منهم في مساجلات عنيفة وهم الذين استفاقوا لما يقوله لهم وأدركوا توجهاته بهم، وأصبحوا يمتلكون روحاً تنافسية قوية بعد ان شعروا بقنوط الترجي وعقم الإنتظار وقد باتت الحياة في الواحة تدور على محور واحد وتأكدوا من عدم جدوى اللعبة من أساسها، فيعترضون على قراراته وآرائه صراحة ويحتجون على جحافة إنفراده بالرأي في العلن محاولين تقويمه، رغم تمكنه من السيطرة على كل شيء في الواحة وتغلغله في نفوس أغلب أهلها من اصحاب النفوذ، ولكنه يدرك ان ما أتى بالحيلة يروح بحيلة أدهى منها وهذا كل ما يخشاه، فنجده قد احتاط كثيراً لذلك. فهو يعرض قراراته ليس للتدارس والتداول وليشركهم في التمحيص الجماعي وصولاً

للإختيار الصائب، بل للتنفيذ والتطبيق الفوري دون مراجعة ولا نقاش، حتى أن أحد الشباب بعد أن أحس وكأنه يختنق بما يسمع انفجرغاضباً في وجهه ووجوه الحضور جميعاً أثناء احد اللقاءات التي من عادته كان يجريها للتمهيد لأي مشروع قرار يخطر بباله ويريد تمريره من وراء عقول الناس مستفسراً بسؤال تعجيزي : —

انت اشترطت في حديث سابق على كل من يأتيك طالباً للشفاء ونيل العافيه من المس والأمراض النفسية، أن يعتقدك ويصدقك ويأتيك بقلب خاشع، وإلا لا جدوى من مجيئه اليك منذ البداية فلا أمل في شفائه وبرئه، ولكني أنا أتحداك وبكل ثقة أن تشفي مريضاً لا يعتقدك ان كنت حقيقي وفاعل وصادق مع نفسك ومع الآخرين ..

نحن جميعاً نعلم أنه طالما يعتقد اي مريض وخاصة البدو البسطاء في أي شيء ولو صخرة صماء ملقاة في بطن وادٍ أو على سفح جبل سيؤثر ذلك ايجاباً على معنوياته مثل فاعلية الدواء الوهمي عندما يكون عن ثقة تامة، ويرفع ذلك من القدرات الدفاعية والحيوية لجسمه، ويشفى عاجلاً أم آجلاً، وهذا الشيء تدركه أنت بيقين ولكن تخفيه عنّا وتستغفلنا به دون ادنى شعور بالمسؤولية أو احساس بالذنب، ما تُقْدِمُ عليه يُعتبر تحديات غير منطقية لعقولنا وتفكر خارج المعقول، ليس أنت من يفعل ذلك فلا تتهرب من المواجهه وقل شيئاً يتقبله العقل ويستسيغه ويقنع به الجميع، فأنا أجري هذه المراجعات وأوجّه لك هذه الأسئلة وأحاصرك بها، ليس لأنني لا أعرف الإجابة عليها أو لا أعي حقيقتها، ولكن لأعرف هل ستجيبني أنت، أم يجيبني الشيطان الذي أراه دون شك يقبع في داخلك يلقنك ويملي عليك خزعبلاته ؟ عندما جئتنا في البداية أوهمتنا بان الذي يدفعك هو حب الناس ولكن بعد ان استقر لك الحال وإستقامتْ معك الأمور استبدلتَ حب الناس بحب نفسك، على الشيخ

ان يحب الناس الذين هو عامل عليهم ويقود خطاهم وليس العكس فعندما يطلب الشيخ حب الناس له فهو يخادعهم محاولاً ان يمسك بمسوغات بقائه في السلطة، ويجب ان يأتي حب الشيخ للناس أولاً على هيئة إنجازات وأعمالٍ جليلة يقدمها لهم ويقنعهم بها ويترتب عليه حب الناس لشيخهم، حتى وان كان هذا الحب ليس مهماً ولا ضرورياً ولا يكون بأهمية حب الشيخ للناس، في الأوطان الحرة يكون الحاكم وحده العبد للجميع ويخضع لمطالبهم ويستجيب لإحتياجاتهم، بينما في الأوطان غير الحرة يحدث عكس ذلك تماما فيكون الحاكم وحده هو السيد دون الجميع، دعنا نفعل ما نريد وقل انت ما شئتَ قوله وليس العكس، واعلم ان الحق واحد لذلك لايعرفه الا القليل، فنحن نختلف معك وبالأصح نحن نتنوّع معك ليس أكثر، فأصغِ لنا وأصبرعلى كلامنا مثلما صبرنا على وجودك بيننا، ومثلما قالوا قديماً يولد الناسُ أحراراً فهم أيضاً يموتون متساوين، فنحن لا نريد أن نظلم نملة ولانحتمل أن يظلمنا أسد، القائد الحقيقي هو الذي يبدأ بنفسه ثم يغيّر العالم إلى الأفضل، والخطأ عادة يراك ولا تراه. زهقَ أحد الأعوان من مكانه بعد أن تضايق مما يسمع وزعق زعقة حادة في وجه الشاب : –

الا تخجل ؟ كيف تجرؤ على التحدث بهذه الطريقة الفظة مع سيدنا وباني مجدنا !

وتتطاول على من هو أكبر وأهم منك ؟ ليبقى كل شخص في مكانته ويلزم حدودها ويعرف قدر نفسه، على ما أذكر بالأمس القريب كنا جميعا نلهث وراءه ونتوسل اليه من أجل ان يوافق على الإتيان الينا ويباشر مهامه عندنا ولم نهنأ ويهدأ لنا بال حتى نلنا موافقته واقنعناه بالمجيء بعد ان تعبنا كثيراً لبلوغ ذلك، فالموقف كان بيعة منا له بالمعنى الحقيقي للبيعة، واليوم وعلى وجه السرعة يأتي أحدكم وبكل استخفاف

بجهودنا وتتفيه لعهدنا ويسمعه هذا الكلام الفج وغير اللائق، ما كان ان يكون هذا الذي يحدث. رد الشاب بثقة :ـ

وقتذاك ما كان لي أن أقول لا، لكنني لم أقل نعم قط، لأنني أعرف أهمية الصمت، عندما يكون الكلام بلا فائدة، وفائدة البعض من الحاكم لا تبرر لهم تأييده لإنزال الضرر بالبعض الآخر. واضاف الشاب :ـ

نحن نقوم بما نعتقد انه صح بكل صدق ونزاهة. ساد صمت من ذلك النوع الذي حتما سيعقبه رد قول من مصدر غير محدد، الشيخ بوكر شيخٌ طرماحٌ وقورٌ من رجالات الواحة كان حاضراً أثناء اللقاء ومُصّغِياً بإنتباه إلى النقاشات الدائرة وينقل بصره بصبر متابعاً الكلام من شخص لآخر وقد رأى أن من واجبه وحق الأهالي عليه أيضاً فعل شيء لهم يفيدهم ويساعد على تصحيح الأوضاع في الواحة، وقد أعجبته مداخلة الشاب فإقتنع بها وقال لهم بلهجة محايدة وهادئة: —

(لقد أصاب شباب وأخطأ شيب) وظل يكررها بنبرة واثقة ويؤكد عليها، وكأنه يلقنها للحضور والجميع صامتون يصغون له بإنتباه وقد لاقت قبولاً وإستساغة منهم ثم أردف موجهاً كلامه إلى الشاب : —

أيها الفتى جرّدْ لسانك من صمته وقل ما شئت قل كلمتك بصراحة وبصوتٍ عالٍ، لقد أصبحتْ الواحةُ تدور على محور واحد فعلاً، وكنت أتابع حديثك منذ البداية وأستمع اليك بشغف ويزداد إنبهاري بك حتى أن اجاباتك كانت تسبق أسئلتي!

رد الشاب على الشيخ بوكر: —

أيها الشيخ الجليل أحسُ بالخجل الشديد حد التضايق عند سماع المديح المفرط لي علانية وفي حضوري خاصة، والذي عادة ما يكيله أولئك المنافقون والمتزلفون — حاشاك — لأن أول الغرور يكون عندما يتقبل الانسان عن رضًا المديح الموجه له ويتمنى المزيد، وأكمل الشاب الحليق : —

أيها الشيخ الجليل بيني وبين نفسي أتساءل هل أنت لم تغادر مرحلة الشباب بعد ولا زلتَ تحتفظُ بنضارته في قلبك وآرائك ؟

ام نحن خلقنا شيوخاً منذ البداية دون أن نمر بمرحلة الشباب وما يلازمها من طيش وقصور؟ والا فكيف حدث هذا التقارب وربما الانطباق في وجهات النظر بيننا بهذه السرعة وتقبلت منا وتقبلنا منك الأفكار حتى التقينا عند نقطة واحدة وانسجم تفكيرك مع تفكيرنا دون غيرك ممن هم في مثل سنك ؟...أعي ان الحكمة شيوخ وبعض الشباب الاذكياء، ولكن في حقيقة الحال الحكمة لا عُمر لها.

لكن تعليق الشيخ بوكر أعجب هؤلاء الشباب جميعاً لأنه داعم لهم ومؤيدٌ لتوجهاتهم خاصة في هذا الوقت، وهذا في الاعراف السائدة يعد انقلاباً على المفاهيم المتعارف عليها ومعاكساً لما هو متوارث من أن الشباب أهوج ويتصرف برعونة، ويلتجيء بضيق أفق إلى إستعمال القوة والعنف قبل التعقل في التعامل ومعالجة الطواريء وحل المشكلات. قال الشاب الحليق الرأس موجهاً كلامه إلى الشيخ بوكر: —

نحن ندرك أننا قلة غير مؤثرة ولكننا لن نقف وقفة المتفرج، ومادمت معجباً بكلماتي وتجد أنها تتوافق معك، إذاً نحن على نهج واحد! هل تود الإنضمام إلى صفوفنا والسير معنا؟ فوافقه الشيخ بوكر: —

نعم .. نحن متفقون. لقد قارب عمري على الإنتهاء، وانا أكبت الحقيقة التي إهتديتُ اليها منذ أن أصبحتُ شاباً، والآن لزاماً عليّ قول هذه الحقيقة بما تحمل وانحاز اليها . فرد الشاب الحليق : —

لنتصافح على هذا، ومَدّ اليه يده (ليتواعد معه).

وأصبح الشيخ بوكر منذ هذه اللحظة متعلقاً بهم ملتزماً معهم يتسقط أخبارهم ويتعقبهم من مكان إلى آخر ليلتحق بهم حيثما ذهبوا وأينما حلوا وأخذ يتحرك كشاب يافع لا يعبأ بالمتاعب، وارتبط بهم لتحفيزهم

وتعبئتهم معنوياً ودعم مواقفهم وليوضّح لهم الكثير من المعاني والمفاهيم التي قد تكون غامضة عليهم وفي غير متناول إستيعابهم كشباب أغرار، في حلقات دروس عديدة كان يعقدها معهم، فشرح للشباب معنى الشباب وحقيقة الشيب :ـ في كل يوم يكتشفُ الإنسانُ الجديدُ، فهناك ايحاءات تمنحها لنا الطبيعة من لوحات تتكرر وتنشرها لتلقننا من خلالها بعض المفاهيم المجردة كي نسقطها على القيم البحثة في حياتنا، منا من يلتفت اليها ويأخذها بمأخذ حقيقي وجاد ومنا من تتكرر أمامه دون أن يقوى على ادراك ما ترمي اليه من مغزى فيتجاهلها عن عجز، ربما لعامل السن والخبرة دور في الإنتباه لها، انها علاقات غريبة تربط بين أشياء متباعدة وليس لها ما يوحد بينها أو يقرب بعضها من بعض من تشابه ووشائج، ولكن الإنسان كلما تمعن فيها لاحظ هذا التقارب. وعندما انتبه إلى الفتور بادياً على وجوه المستمعين وقرأ التسؤلات الحيرى في عيونهم أدرك انهم لم يستوعبوا منه الا القليل، فضرب لهم أمثالاً عديدة كي يبسّط لهم المعنى الذي يرمي اليه بشكل مؤكد مقارناً ذلك بالنهار فقال لهم :ـ

ان أول النهار اي وقت الفجر مثلاً يكون لون الأفق فضيّ كاللجين (الفجره) وهذا يمثل أول العمر أي ريعان الشباب وعهد الغرارة والطيش، بينما عندما يتقادم النهار ويقترب من الإنقضاء نجد أن لون المغيب أحمر كلون الذهب وحزين حيث تتأكد زبدة النهار وهذا يمثل الشيوخ بما يتحلون به من رحابة صدر ورجاحة عقل وصواب فكر، اي أن أول العمر يكون فيه الإنسان قوياً ويعتمد على صحته وقوة (عضلات بدنه) أكثر من قوة عقله وحكمته، بخلاف العجوز الهرم الذي هوعكس ذلك تماماً، فقد الكثير من قوته البدنيه لكن فكره وعقله هو أداته للتعامل مع الطواريء ولمعالجة الأمور، فيكون قد خبرالحياة طويلاً واكتسب الكثير من التجربة

والحنكة التي اكسبته الرجاحة، إلى أن يتأخر به العقل شيئاً فشيئاً مع تقدم العمر في مراحل تالية، فالضعف ينمي الدهاء والقويّ عادة لا يفكر كثيراً ولا عميقاً، والإنسان كلما كبر يتحرر أكثر فيكثر كلامه ويقل حراكه، انه ذلك التناسب العكسي مابين العمر الزمني للشخص وقوته البدنية وايضاً مابين عقل الشخص وقوته البدنية والتناسب الطردي ما بين العمر الزمني والعمر العقلي، والقلة غالباً ما تنجح في تحقيق امانيها لأنها تعتمد على نفسها فقط بينما الكثرة تفشل غالباً لأن بعضها يعتمد على بعضها الآخر. هناك قيم يجب ان نتبع آباءنا ونقلدهم في فعلها .. بينما أشياء أخرى مختلفة يجب ان نحاكي فيها أبناءنا، لاتفتخروا بآبائكم ولا بأنفسكم أيضاً بل إفتخروا بأبنائكم لأنهم من صنائعكم فكل واحد منكم هو مفخرة أبيه، فنحن دائما خطوة إلى الأمام ولا نرتد إلى الوراء .

الأبيض أسود 20

أمر الشيخ ببناء مقام رائع ووسيع لقبر أبيه ليكون مركز استقطاب يأتيه كل زائر للواحة أو عابر سبيل ويصبح منتدى لأهلها، لممارسة التعبد وليكون بؤرة اشعاع ومنارة علم وقبلة لطالبي تعلم القراءة والكتابة ومنتجع كملاذاً للباحثين عن الهدؤ والسكينة وراحة النفس في كل المواسم والأوقات، حتى أنه أطلق عليه اسم الروضة لما يحتوي عليه من اسباب الطمأنينة وهناء البال، والذي يُعَدُ انشاؤه إدخالاً للحداثة المعمارية في وقته ومفخرة يتحدث ببهائها الجميع، على نمط آثار الأسبقين تلك القصور الصحراوية المنتشرة في المنطقة منذ أيام الرومان، وقد كان الاول في بنائه وطراز معماره في المنطقة قاطبة وفق معايير بيئية ملائمة، وتم طلاؤه باللون الأبيض الناصع كي يلمع البناء قبل غيره من البنيان للقادم من البعيد تحت شعاع شمس الصباح الذي يغسلها بضوئه البكر، فأصبح وجهة جذب سياحي في الإقليم كله، وسرعان ما تدفقت أفواج الزوار ما إن سمعوا به من أغلب الأمكنة، البعض منهم قاده الفضول ليقف على عين المكان ويشاهد بأم عينه ما قد سمع، والبعض الآخر قدم للتبرك والإستشفاء والتماساً للراحة والهدؤ التي كانت مفقودة لديهم في الماضي وجاءه المرضى ومن هم يبحثون عن العلاج النفسي حيث يستردون عافيتهم ويستريحون بمجرد زيارة أو زيارتين على الأكثر ثم لاتتوقف الزيارات بعد ذلك فيكررونها باستمرار اعترافاً ومكافأة منهم بما لمسوه من شفاء عاجل وكرامات واضحة، ومنهم من يرتاد

المكان كتكية صوفية لتلاوة ألأوراد والأدعية وإنشاد المدائح الخاصة بهذه الفرق الصوفية حيث ترسم حلقات الوجد مساء يوم خميس من كل اسبوع وتمارس شعائرهم دون توقف أو تأجيل، والتي يتجلى فيها العشق الإلهي وتبرز شفافية إنسانيتنا المشتركة مع الأديان الأخرى منذ فجر الدهر، واصبح الشيخ من أول الحريصين على التواجد والحضور لإبداء مواعظه ونصائحه والإشراف على سلامة الطقوس من الأباطيل والخُزعبلات التي لا تمت إلى طريقتة بصلة، ويتشاطح في حضرات وحلقات جذب تستمر طويلاً ببعض المفاهيم التي يكون نفسه قاصراً عن ادراك معانيها وربما ليس لها من معنى واضح، ويتمتم بتسابيح مبهمة ليست في شيء من جوهر العقيدة وعندما يصمت جميع الحضور في محاولة منهم لإلتقاط بعض المفردات التي يتلفظ بها لحفظها ولتقليده بترديدها من بعده، نجده يمعن أكثر في تغميضها وابهامها حتى لا يتسنى لهم ذلك. وبناءً على هذا تطورت طريقته إلى إستحداث مزارٍ سنوي يلتقون فيه من قبيل السياحة الدينية والذي يعتبر ضربة حظ قد كسبتها هذه الواحة حتى أصبح هذا المهرجان يمثل هوية للواحة ومصدر دخل مالي طائل وسيدخل البهجة إلى نفوسهم التي قد أنهكها الضجر وأتعبها التزمت إلى أن ملت الحياة في هذه الرقعة النائية الأشبه بمحمية أو سجن محاط بالتصحر، حيث يفرح الناس جميعاً دون إستثناء بفئاتهم العمرية المختلفة ومستوياتهم المعيشية ويستبشرون خيراً بهذا الحدث الذي هو عبارة عن مهرجان كبير يجتمع فيه الأهالي لمدة يومين أو ثلاثة أيام وفق الخطة وما تسمح به الإمكانات المادية التي يتحصلون عليها من تبرعات الأهالي، ينقطعون فيه كلية عن مشاغل الحياة وهمومها، وينصرفون إلى التنزه واللعب بما يفيد أذهانهم وصحتهم

النفسية والبدنية، تكون هذه الأيام الثلاثة مليئة ليل نهار ببرامج التشويق والإثارة التي تنعش الكثير من النفوس الذابلة المتعطشة إلى التغيير، فيمارسون فيه اللعب والترفيه بكافة أنواعه التي تناسب أذواق الجميع وتلائم كل الأعمار ولا يملّونها بل يتحسرون عليها عند انقضاء ايام المهرجان الثلاثة، ويعيشون في انتظار المزار القادم على شوق بعد عام آخر، حتى الشيوخ والعجائز يَصّبُون فيتخلون عن وقارهم وتكلفهم ويضعونه جانباً ليتفرغوا لممارسة مايحلو لهم من ألعاب سوية مع الأطفال بكل عفوية وبراءة ويتبادلون معهم الدعابات ويرفعون عقائرهم بالغناء بتلقائية دون قيود ولا وجل معهود، ويتناسون مواعيد أسفارهم وأعمالهم، حتى ان الواحد منهم لاتفرّق بينه وبين صبي غِر في تصابيه وتطفله وكأنهم يعوضون ما ضاع منهم أيام الطفولة والصبا التي تحسّروا كثيراً على فواتها، في أغلب الأحيان يتفاجأ بعض الشباب بوجود الكثير من الشيوخ الوجهاء والأعيان الكبار وهم يلاعبون الأطفال أو يغنون معهم بكل تلقائية، فيدعون شباباً آخرين ليطلعونهم على مشهد اكتشفوه صدفة ولم يكن في الحسبان للوقوف عليه بأم أعينهم والإستمتاع بغناء الشيوخ المميز وقد استغربوه مثلهم. واصبحت الحركات الراقصة تسكن مشية كل من يتحرك في الساحات والشوارع خلال أيام هذا المهرجان، يخرجون خلاله عن المعتاد والمألوف، أشياء كثيرة تتغير حتى أن بعضهم يتمنى ان يصير الزمان كله مهرجاناً متواصلاً، ولكن بعد إنقضاء أيام المزار الثلاثة يعود كل فرد إلى سابق وضعه وصوابه الأول، ويتبارون طيلة الأيام الثلاثة فيما بينهم أيهم ينهض باكراً في الصباح قبل الآخرين ليعمّرون الساحات ويملأونها لغطاً ولعباً ومرحاً وليس له من عمل غير هذا، ومن بيهم من تم التعارف عليه بأنه الأول دائماً في تبكيره

وصحوته ونشاطه وحافظ على أسبقيته وهناك أرقام ارتبطت ببعض الأسماء لم يكسرها أحد بعد. وقد حُدِدَ موعد المزار السنوي في أيام آخر بدر من فصل الربيع من كل عام حيث يعتلي القمر سماه ويتسيدها، ويعتدل الطقس ويدفأ الجو إنه موعد للتداني والتلاقي بين الصبايا والفتيات والنساء عموماً إذ أن بعضهن لا تلتقي بصويحباتها ولا تقابلهن بسبب العزل الإجتماعي إلا خلال أيام هذا المهرجان الوضيئات، ثم تنقطع الصلة بينهن إلى المحفل القادم من العام التالي. وفي اثناء أيام المزار تدبح الدبائح وتولم الولائم وتندر الندور وينفقون ببذخ، الجميع يساهم في صنع الموائد بإلتزام ذاتي لا تكلف فيه ولا تكليف من أحد، ويكون على كل شخص كبير أو صغير تناول وجباته من هذه المآدب في نطاق المخيم الطاريء طيلة الأيام الثلاثة للمزار، والذي تقدم فيه أشهى الطيبات، وألذ ما لديهم من مأكولات حيث تجذبك رائحة الطعام شهية من البعيد، ففي الهواء المفتوح الذي عادة ما يكون نظيفاً غير مزخوم ولم تخالطه رائحة غريبة تكون الروائح نفادة ونقية ومغرية، وتوجه دعوات الحضور والتشريف إلى عديد الوجهاء من مشايخ وأعيان الواحات المجاوره الذين هم أيضاً ينتظرون بفارغ الصبر هذه الدعوات، وسعيد الحظ من يتلقى دعوة حضور أو مشاركة، وسيفاخر بها أمام أهله وذويه، فيقضون لحظات طيبة ويبتهجون في هذا المهرجان الكبير بمشاهدة العديد من العروض والبهلوانات والعاب التشقلب كسباق المشي على اليدين حيت تكون القدمين إلى أعلى مثل ذنب العقرب وأنواع الوثب الطولي والعالي، وتلك المبارزات الودية في الرماية وسباقات ركوب الخيل والمصارعة التي تدور بين شباب الواحة لمعرفة قدرات كل منهم على المواجهة والتحمل وفرز الفرسان، والمنافسات الأدبية كإلقاء القصائد الجديدة

والمطارحات الشعرية التي تنمي وتسقل المواهب وتستمر لساعات كثر دون ملل، وتتعدد نشاطاتها من رياضات الذكاء والفكر والأحاجي والألغاز إلى العاب الأطفال وعروض الصبية ولوحات متنوعة للرقص الشعبي التي لها البسة خاصة فضفاضة موشاة بالرقوم والزخارف متعددة الألوان، والنساء هن الأخريات يمارسن هواياتهن دون رادع يقيدهن من غناء ورقص وتفنن في الضرب على الدفوف والطبول ويجرين منافسات لإبراز مواهبهن الأمهر والأبدع، حتى أن بعض الفتيات تنتهز هذه الفرصة الثمينة وتتفنن لتظهر مهاراتها في الغناء أو مواهبها في الرقص لأول مرة في هذه المناسبة، أحد الفتيات وأثناء تلك إحدى الإستراحات القصيرة التي تتخلل الحفل وبعدما أتمت وصلتها الغنائية تقدمت منها معجبة مسحورة جداً برخامة وحلاوة صوتها والتي لم ترها من قبل ولم تسمع بها وأبدت لها كامل إعجابها وإنبهارها بصوتها، وأثنت على تمكنها وإتقانها الأداء الذي أظهرته خلال هذه الوصلة التي ما تمنت أن تنتهي!

ونبهتها إلى ذلك الكثير من الحاضرات (غير الغيورات طبعاً) إلى مواهبها الصوتية المميزة، مما يدفع بالفتاة المغنية — التي لا تدري بعد بشيء من هذا — إلى التساؤل في سرها باندهاش وشك : —

هل ما تقوله تخصني به أنا شخصياً أم أخطأتني وتتحدث عن فتاة أخرى ليستْ أنا ولا تمتُ اليّ بصلة ؟ ولتتأكد من ذلك تقدمت منها قائلة : —

لازلت في استغراب مما تقولينه وما أسمع أيضاً يا أختاه ! ثم ساءلت نفسها :ـ هل أنا التي لم يسبق لي أن غنيت ولو لمرة واحدة في محفل عام طيلة حياتي أحوز على إعجاب البعض بهذه السرعة من أول مرة والى هذه الدرجة التي تدفع باحداهن إلى

التقدم مني منبهرة ودون سابق معرفة ولا مقدمات، لتشهر إعجابها عليّ وتخجلني باطرائها مرة أخرى وكأنني نجمة طرب شهيرة ؟! فهذا الإعجاب الذي يتكرر من أكثر من فتاة ان كان صادقا ونابعا من نفوس ذواقة ولها خبرة في هذا المجال ليس بالأمر الهين الذي يعبر عبور الكرام بل يعد شهادة مُحكمة منهن ويبعث على الإعتداد بالنفس والثقة في خامة الصوت، وكررت استفسارها بكل خجل لتكون على يقين مما تسمع وأن الأمر ليس إمتداح مجاني عابر لا يحمل رأياً، كالذي يقدم عليه البعض تبرعاً بقصد المجاملة فقط ويكيلونه بلا حدود، ولكن دون قيمة تذكر له، إلى أن تقدمت منها العديد من ألأخريات يحملن نفس الأنطباع والشعور ودرجة الإعجاب ما يؤكد صدق كلام الأولى لها ويعزز ثقتها في صوتها وموهبتها على السواء، منذ هذه اللحظة إكتشفتْ أنها موهوبة غناء، وبدأت تطور من موهبتها وتصقل ملكاتها. وحيث يستمر السهر والسمر حتى الساعات الأولى من الفجر في سرادق وأروقة أعدت لهذا الغرض باتقان، ويكون الإعياء هو الذي سيضع للحفلة نهاية، بعض الشباب والفتية الأشقياء ما إن يسمعوا أصوات الفتيات الرقيقة الرخيمة تعلو، حتى تهفو قلوبهم للحب وتستبد بهم اللهفة فيتسللون على عجل تحت أضواء القمر الفضية التي تكسو الدنيا وكأنها نصف نهار إلى سرادق الفتيات كي يختطفوا بعض نظرات سارة، تكون عادة سريعة ومبثورة من بين شقوق الرواق والستائر كفرصة لإنتقاء شريكة الحياة التي يرضى عنها وتقبل به، يغامرون ويلقون بقلوبهم في مهب الحب ويعتبر هذا المهرجان موسم المصائد لقلوب الشباب والعشاق واذا ما تعلق قلب شاب بفتاة - أو العكس - ينسى الأخريات دونها تماماً ويتنكر لوجودهن. ويخصصون ميزانية كافية لتغطية نفقات هذا المزار من

المبالغ التي يتبرع بها الأهالي ويجمعونها لإنجاحه ولكي يظهر بالمظهر اللائق والمناسب الذي يشرفهم أمام الضيوف من الواحات ألأخرى، ويرفع من شأنهم وشأن واحتهم، ويتم تكريم المتفوقين ﬞ في مجالات الشعر والحكاية، وأصبحت الواحة مزدانة بضحك ألأطفال وزغاريد الصبايا، واكتسبت بريق المدن، وتحولت إلى منطقة جذب سكاني وسياحي.

ويمتد ألق المهرجان وتبقى أجواء المحفل طاغية على أحاديث الناس جميعاً لمدة أسابيع تالية بعد إنتهائه، وهم يقيّمون المواهب التي برزت من خلاله أثناء قعداتهم ولماتهم ويتعهدونها بالتشجيع والإمتداح للدفع بها في الدورات القادمة، ويأتون على ذكر المحاسن المستحدثة في هذه الدورة وما نالته من تطور مقارنة بما سبقها من دورات المهرجان، وكأن واحتهم هي مركز الكون وما عداها زيف. ذات ليلة كادت أن تأخذ الشيخ خفة من الزهو وتُفْقِدَه الكثير من رزانته وتطيّره بعيداً لينهض ويرقص كالأطفال دون تكلف ولا إعتبار لشأن أو هيبة، لولا أن تدارك الأمر وتمالك نفسه وأنقذها في اللحظات الأخيرة من الوقوع وتراجع عن هذه الفكرة الخائنة الخائبة بعد أن تدفقت أنهارالموسيقا التي غمرت المكان وتجلى فيها وحي الماضي التليد، عندما كان (سيدنا) يتابع عازف المزمار بشغفٍ وإنتباهٍ ملفتين وهو يعزف لحناً عرائسياً زفافيّاً ما أن يسمعه أي شخص:

اذا سبق له الزواج حتى يحن لميعة الشباب ولتلك الأيام الخوالي فيخترق الزمن الماضي في سرعة الضؤ ليتذكر بولع ليلة زفافه لحظة بلحظة بجلاء تام، ويعيش متعة اللقاء الأول ولذته ويستحضرها وكأنها الليلة البارحة حتى وإن مر عليها عشرات السنين، وإن كان عزباً ويحلم بقرب هذه الليلة يحفّزه هذا العزف على الجد والكد

من أجل أن يقرّب هذه الليلة التي طالما حلم بها ويتغنى بها الجميع في أزهى لحظات الأنس، ويتمنى ان تأتي هذه الأوقات بسرعة، ولاحظ الشيخ شغف الحضور جميعاً بمعزوفات الزمّار الذي كاد ان يتحول إلى غريم وهو يستعرض مهاراته في العزف ويتفنن في الإنتقال من لحن إلى آخر أعذب منه وأجمل، وخاصة الصبايا والنساء اللواتي يلوحن بمناديلهن المعطرة وأيديهن المخضبة بالحناء ويرمينه من البعيد بنظرات الإمتنان وقبلات الإعجاب الطازجة من اطراف الأصابع وأظهرن تماهيا ملفتاً معه وهن يتماوجن مع الأنغام فتجلجل الأساور في معاصمهن والخلاخل حول كواحلهن، كل ذلك يبعث على التنافس وحتى التحاسد، وهن يتابعن فتحات منخريه وهي تتسع وتضيق عندما يتنفس وبشدقيه تنتفخ وتصغر ويعلوها العرق المتصبب متزايداً بغزارة في سواقٍ صغيرة من صدغيه وتلمع خيوطه تحت الأضواء، وبأصابعه وهي تهبط وتصعد في ارتعاشات ايقاعية فوق فتحات المزمار، مسحورات مأخودات ويتمايلن في الخفاء ويتمايسن لا إرادياً كالأبنوسات وهن يصارعن سحر الموسيقى الأخّاذ، النساء يحببن سماع الموسيقى ويستمتعن بها أكثر من الرجال لكن لا يستطعن خلق الألحان، وكأن صياغة الألحان هبة الهية محصورة على الرجال كي يوقعوا بها النساء. والعازف ادرك قيمة هذا الحضور الهائل وغير المسبوق والذي تجمع من اجل الإستماع اليه فأخذ يعزف بحماس وعاطفة مخلصة ومن كل قلبه ويزداد تشبثاً بمزماره تفنناً غير مكترث لخيوط العرق التي تسيل على وجهه وعنقه وما تسببه له من ضيق، إلى أن غربت عيناه من نشوة الطرب وسحر اللحظة التي لم يعشها في سابق حياته حتى عندما كان شاباً ويعزف بإقتدار ولمدة ساعات متواصلة، ولا يريد من وراء ذلك إنتزاع إعجاب الحضور به

فقط، لكن الذي يهمه ويمتعه بالدرجة الأولى هو شعوره بانه يبعث السرور والبهجة حد الفيض في قلوب الآخرين المتعطشة إلى الفرح، والتي قد انقبضت بفعل الرتابة والملل المستشري في المنطقة المقيدة بتقاليد بالية، مازال الليل في أوله ولم يبلغ النشو مداه بعد، حَدَثتَه نفسُه :ـ

هذا اليوم أنت سعيد وعليك أن تنتهز ذلك وتستمتع به على آخره ففي غدٍ أو الذي يليه قد يتغير الحال ولن تجد أحد، والصبايا لازلن يتهافتن دونما توقف في زرافات كتهافت الفراشات الصغيرة على الضؤ من كل أنحاء الواحة على المحفل بعد سماع صوت المزمار المتواصل يصاحبه التصفيق الإيقاعي والضرب القوي على الطبول والدفوف التي تصدح ويتردد صداها ويساعد هدؤ الليل على إنسيابيته ووضوحه ليتخلل كل زوايا البلدة ومساربها وقطع أطول مسافة حتى يصل إلى أقاصي الواحة، فأحياناً يُلقي به نسيم الليل العليل والمنعش إلى الأبعاد مجلجلاً صافياً وواضحاً وكانه إلى الجوار، ثم تغيّر النسمات من اتجاهها فتقصيه عن السامع هنا حتى يمسى بعيدا إلى آخر هناك، وهكذا تتناقل النسائمُ الغناءَ وتتقاذف أصداءه الجبال، حتى الكلاب التي كان يعلو نباحها وأصوات شجارها في هذا الوقت من الليل تحديداً قد هدأت تماماً وإستكانت لسماع الموسيقى، وما بين لحظة وأخرى تنفجر عفوياً صرخة إعجاب مدويّه من أحدهم كان قد أخذه الحماس والإنسجام ففقد ضوابطه ولم يتمالك نفسه لتشق سكون الليل إلى نصفين، حتى ذلك الشاب المبتور اليدين اقتعد الأرض ولم يجد مفراً من التصفيق بقدميه الإثنتين للتعبير عن سعادته اللامحدودة. كان حفلاً لطيفاً ومبتكراً فالموسيقى تستدعي الفتيات والنساء من الأبعاد، وغناء الفتيات الخلاب يستدعي الشباب

وهكذا مما حدا بالشيخ إلى تذوق الموسيقا منذ هذه الليلة وادرك فوائدها العلاجية على الروح وان الموسيقى هي الحرية تدخل من الأذن وتفك قيود القلوب، إلا انه تضايق من أمر ما وحدّث به نفسه متسائلاً : —

أنا شيخ الواحة وسيدها الأوحد ما بالهم لم يتطرق اليّ أحد ولم يلتفت لمقدمي ويحتفي بحضوري أيّ منهم ؟ يحدث هذا معي لأول مرة، أن يتجاهلني الجميع ويستخفوا بوجودي في حضرة الموسيقى وغمرة إنتشائهم بسماعها وتخلوا عني وكأنني كمٌ مهمل زائد عن حاجتهم لاقيمة له، فهل هم استغنوا عني وعن خدماتي بهذه البساطة ونسوا بسرعة من أكون انا ؟ وتعلقوا بهذا الزمّار التافه وما يصنعه من الحان، إنها بادرة لا تبعث على الإطمئنان ولا تبشّرني بخير .. شعر بالمهانة والدونية وساءل نفسه من جديد حانقاً : —

أيعقل أن تقبل بهذا يا ... ؟

(فهو كلما هفا هفوة وخاصة الهفوات التي تنم عن غباء أو تباطؤ في الفهم يقسو على نفسه ويؤنبها بشدة) أريدهن أن يتهافتن عليّ أنا كتهافتهن على سماع الموسيقى هذه التي أشاهد، وهذا الزنجي الذي قلب الدنيا لا يعزف لإمتاعنا فقط بل يحثنا على تعلم وممارسة العزف، لذا أريد أن أتعلم العزف على المزمار، وأمسى لزاماً عليّ هذا منذ هذه الليلة، مادام بهذه الفتنة وقوة الجذب والإستقطاب التي نراها الآن تحدث أمام عيني، ويجب أن أكون على درجة كبيرة من المهارة والإتقان، وأبتدع الحاناً جديدة لم يأتي بها أحد من قبل، تكون أكثر وقعاً وتاثيراً على القلوب والنفوس وتجعل مني نجمَ غناءٍ يتحدث به النساء في لماتهن والرجال في مجالسهم بالإعجاب والثناء، إذا لم أتقن العزف بفنية محترف مقتدر فكأنني لم أعش الحياة ولم أذق

طعم حلاوة ثمرة جهودي طيلة السنين الماضية على الإطلاق، اعترفُ بانني قد إستهوتني اللعبة إلى آخرها وأنا ألاحظ الزمّارالزنجي وهو ينفخ ويلعب بأصابع يديه الإ ثنتين على فتحات المزمار بكل خفة ورشاقة ويصنع أسجى الألحان وأعذبها ليجذب اليه كل صبايا الواحة دون إستثناء حتى التي تغط الآن في نومها العميق ـ أناعلى ثقة ـ ستستيقظ فور سماعها وتهب مسرعة إلى الحفل كي لا تفوّت على نفسها لحظات من المتعة لا تنسى ولا تُعوض. وعندما استبدت الخاطرة بتفكيره كلية تمنى لو أنه يصبغ جسمه بالصبغة السوداء كي يتحول إلى زنجي فاحم مثل الزمّار تماماً، ما حاجتي بهذه البشرة البيضاء الناعمة الملمس وما نفعها اذا لم تتهافت عليّ الحسان مثلما اشاهد مباشرة في التو، أو على الأقل يُعِيَرَني أصابعه الذهبية هذه كي أصوغ بها الحاني وترانيمي، وربما في ليلة قادمة سأكون أنا نجم الحفل بدلاً منه وسأعزف مقطوعاتي المتنوعة التي ستفعل فعلها في البنات المتعطشات لسماع الموسيقى والترويح عن قلوبهن البكر الذابلة، واذا كان هذا الزنجي قد جعلهن يتميسن ويتمايلن طرباً فقط، أنا سأطيرهن في الهواء عالياً سابحات كالملائكة، وبينما هو على حاله هذا من التأملات والخيالات العنيفة حتى ابتسم على نفسه بعد ان داهمه شيء من الوعي باللحظة والرشاد، ما لبث ان تحول لديه إلى ضحك واضح ادى إلى حيرة والتفات من كان بجواره، فسأله احدهم عن سبب ضحكه الفاضح هذا رغم عدم وجود داع واضح مطلقاً؟ أم أن الحالة جنون محض قد ذهب بعقله، فأجابهم الشيخ بعد ان احمر وجهه وفرك عينيه جيداً متهرباً إلى مبررٍ آخر خطر عليه آنياً: — ليس في الأمر شيء مما تظن، فقط اني تذكرت لطيفة نادرة قد حدثت معي قديما.. وقال مخاطباً من بجواره : —

أصبح من الضروري لي أن أتعرّف على هذه القصبة العجيبة والبسيطة التي لا يزيد طولها عن شبر واحد، وتصنع هذه الألحان الساحرة وتنغّم التيار الذي يمر من خلالها وأتدرب عليها جيداً لأني أرى فيها ملهاة ستخفف من قلق الإنفراد والوحدة التي أعيشها، وسأصبحُ عازفاً إستثنائياً بيتم قلوب الخلائق بمعزوفاته بعد ان يجمع حشودهم حوله. قال أحدهم بعد أن إتخذ وضع التوقير المألوف عند مخاطبة أولياء اللّه وكان لم يعجبه ما جاء على لسان الشيخ: —

ماتقوله يا سيدي عيب عليك يعيبك ويعيبنا على السواء، أنت شيخ معتبر ومبجل وإخترناك طواعية لتكون رجل المهمات الصعبة التي لا يقوى عليها أحد سواك، ولا يعنيك هذا الأمر في شيء، بل يقلل من هيبتك ويحط من قدرك ويضعك مسخرة للناس أجمعين، حتى مجرد الإستماع له ووجودك هنا الآن أيضاً لا يجب ان يكون، فلا تحاول تكرار هذا الكلام ثانيةً، فالتي ترقص حقيقة هي القلوب في دواخلنا وليس الأبدان، وما حركة الجسد الا تعبير ظاهر. صمت الشيخ لكنه لم يكن مقتنعا بما سمع، ولا أعاره أية أهمية تذكر، ربما لم يفهم.

الأبيض أسود 21

بعد ان حشرهم كما تعوّد في السابق داخل قاعة اجتماعاته بادرهم هذه المرة مخالفاً المرات السابقة دون مقدمات في عجل، لإيصال أمر مهم مخاطباً اياهم :ـ إذا أردتم رؤية إنجازاتي على حقيقتها وكنتم فعلاً حريصين على ذلك عليكم بالتالي : أولا وقبل كل شيء يجب عليكم أن تغيروا كلية ما بأنفسكم، وأن تطردوا باصرار هذا القبح المتفشي في كل مكان بعد ان تشبعتْ به نفوسكم منذ سنين كثيرة مضت بشكل لافت حسب ما ظهر لي من خلال مخالطتي بكم وتجربتي معكم، وتستبدلونه بالجمال الخالص ليحل محله ويقضي عليه، وأن ينظر الناس جميعاً إلى الأشياء بعين التفاؤل البحت ويزيلوا من ادمغتهم السوداوية التي تعتم عليهم ويحرروا بالهم منها، هذا الغسيل والتنظيف يسبق عادة أية عملية بناء حقيقية. ثانياً — أغمضوا أعينكم وأنظروا في الظلمة المتأتيه لكم واحشروا انفسكم فيها، فكوا عقال أخيلتكم واطلقوا لها العنان حرة وسترون بعد ذلك كل شيء بوضوح ويتجلى لوحده أمامكم مثلما تبتغون، ما ان يغمض كل واحد عينيه حتى تظهر له الصور وتتجلى أكثر ما ان يمعن في التفكير والتذكر، والذي لا يتمكن من رؤية شيء في البداية عليه الانتظار والتريث وهو مغمض العينين وسوف يرى آجلاً : —

مباني متطورة وحدائق غَنّاء وسيعة يسمقُ فيها النخيلُ باسقاً بجريد وسعف مغسول لامع بفعل الأمطار التي نرغمها على الهطول غصباً عنها، من السحب العابرة عندما نعترض طريقها ونصادرها

لتسقط لنا أحمالها من المياه، ومن بعدها لها الحرية لتذهب اينما تريد، كذلك شوارع الواحة تكون نظيفة بأرصفة منمقة مطلية جدرانها بالأبيض الناصع الذي يزداد توهجاً مع شروق الشمس، إنارة حالمة ومؤنسة تضيء الطرقات طوال الليل للعابرين الذين لن يتوقفوا عن التمشي والتجوال ليلاً، حتى مشية الإنسان في الشارع ستأخذ ايقاعاً جديداً وشكلاً بهيّ، يملؤني الأمل والتصميم على إكمال المشوار معكم قلباً بقلب ويداً بيد، أفرضوا هذه المشاهد على أخيلتكم بداية كلٌّ حسب ما رأى وتَصَوَرَ، إقتلعوا المشاهد القديمة البائدة البائسة من مخيلاتكم إنتزعوها نهائياً من أدمغتكم وتنكروا لها إلى الأبد، وضعوا بدلا منها ما تشتهونه وما تبتكره قرائحكم من مناظر بديعة بديلة تروق لكم وتتمنونها أن تكون، وسيكون لكم ما أردتم، ويصبح لكل شخص مدينته التي حلم بها وتمناها ويراها وحده وبمقدوره ان يعيش فيها بعد ان أمستّ تسكنه، وستطمس المعالم القديمة البائدة الخربة المهترئة وتختفي، حتى وإن لم تقوموا بانشائها على أرض الواقع فلاجدوى من بقائها في الحقيقة بينكم وفي أدمغتكم وخيالكم أيضاً، على الأقل وهذا أخف الضررين اطردوها من أحديهما وهي أدمغتكم وهذا الأسهل الآن ولتبقى الأخرى، والتي من بعد هذا سنأتي عليها ونستبدلها حقيقة، وستظهر بدلا منها معالم أكثر إشراقا وبهاء، وتكون بمتناول طموحكم ورغباتكم، وتكونوا قد قطعتم نصف الطريق باتجاه النماء المنشود، هذه المدينة رغم إنها ذات معالم ثابتة وواحدة إلا أنها ستتحول إلى مدائن متنوعه بعدد أعينكم وعدد رؤاكم، فكل فرد سيتحصل على مدينته التى يحب ويحلم بها وفق سعة وجمال رؤاه وخيالاته وتفاؤلاً يمكن لنا تسميتها بالأطلال الجديدة، وفعلاً أغمضَ كل واحد منهم عينيه

أكثر من مرة في إنتظار صور الحلم ورسومه وزخارفه، وصوت الحلم وألحانه التي ستأتي، ويمكنكم تبادل هذه الصور فيما بينكم والتشاور حولها ومناقشة ما تمنحه من ايحاءات وايماءات، ثق بما ترى وستبنيه ويصبح حقيقة ماثلة. ثم إقترب الشيخ من مدخل القاعة على مهل وأشار إلى الخارج إلى اعالي السماء وقال بأعلى صوته :ـ أرأيتم .. !

أرأيتم تلك السحب التي هناك تجوب السماء جيئة وذهابا وتبذل امكنتها بين لحظة واخرى. وهنا خرج الحضور يتراكضون ويتدافعون عند المدخل في تسابق يلكز بعضهم صدور بعض بمرافقهم المذببة، كي يتمكن كل واحد من رؤية السماء والسحب التي نبههم اليها مشيراً بسبابته، وتطلع الجميع دون إستثناء إلى حيث أشار لهم ودقونهم مدلاة ساهمين في انتظار ما سيقوله لهم الشيخ، بعد أن وضعوا أكفهم على جباههم لحجب أشعة الشمس المبهرة ليتمكنوا من الرؤية بوضوح. وقال يخاطبهم :ـ

سنجعل من تلك السحب نطاقات وأحزمة لبنياننا، التي سيكون نصفها الأعلى فوق طبقة السحاب ونصفها الأسفل تحث السحاب! وسيكون أعلى بنيان في الواحة لا بل هو صومعة العالم أجمع، وعندما نصعد هناك اذا ما وجدنا أرضية صلبة فوق أكداس السحب وبين تلك الروابي والوهاد البيضاء، سنشيد لكم بيوتاً طائرةً هناك لربما تضيق بنا الأرض يوما ما ولا يطيب لنا العيش عليها أكثر عندها سننتقل اليها هناك ونترك الضيق للمتضايقين، أرجعوا أبصارهم وكل واحد منهم يلهج في إنبهار وإعجاب من قدرته على ضنع الوهم بكلمة :ـ تي...تي...تي!

وعادوا إلى أمكنتهم وجلسوا في خشوع وروع مثلما كانوا قبل لحظات، ومن شدة انبهارهم بقيت أنظارهم رغم دخولهم إلى البهو

معلقة إلى سقفه وتمسكاً بهذه الدعوة عاد البعض منهم إلى بيوتهم مغمضي العينين يقودهم أطفال من أياديهم، وإستأنف حديثه من جديد وكأنه لم يقل ما يعيب موضحاً لهم مشاريعه الجديدة وما ستجلبه لهم من خيرات ومداخيل طائلة ما حلموا بها في الفائت، حيت مازال في جعبته الكثير ليسمعهم اياه ويسهم به في عملية البناء والتشييد، وهنا تدخل الشاب الحليق الرأس عندما ضاق درعاً بما سمع وشاهد، دون أخذ الإذن بذلك هذه المرة في تحدي :—

عندما يغيب الإنسان تبرز أعماله، وإذا لم نبنِ فنحن نهدم و(إن العلم يبطل الأسطور !) ويحقق الكثير من النجاحات، نعتقد أن الأسطورة ستخدم الحقيقة وتؤكدها لكنها في الواقع ستضر بها وتتفه اعجازاتها، وأخيراً وليس آخراً أتوجه للجميع بهذا السؤال :—

أين تنتهي الأسطورة وتبدأ الحقيقة في تفكيرنا ؟ .

وهنا هز الشيخ - الذي حافظ على هدوئه - رأسه بالايجاب موافقاً أو هازئا دون أن يتكلم وكأنه مرتاح لما يسمع ولا إعتراض عليه وأضاف الشاب الحليق الرأس:—

(عندما تكون العبودية عقيدة قوم وثنيين يكون على الإنسان عينياً واجب تحرير نفسه بنفسه فلا ينتظر هذا من أحد، فالقيود الحقيقية هي قيود الوهم التي نحس بها تشدنا إلى الوراء ولا نراها)، علينا ان نفرق أولاً بين الايمان الصميم وتعصبكم هذا، رغم التشابه الكبير الظاهر بينهما، فالإيمان هو اهتداء الفطرة السليمة طوعاً إلى الإقتناع التام بالشيء المراد الإيمان به، بينما التعصب هو اكراه على التصديق دون ادراك حقيقي للوعي به فكل ما يأتي عن طريق التخويف حد العنف يصبح تعصباً لا ايمان، لأنه لم يأتي عن طريق العقل والإهتداء الفطري السلس، فالمتعصب متشدد، والإيمان أمر طبيعي بينما التعصب مرض،

وانت لا هذا ولا ذاك، الايمان بالعقل والتعصب بالعاطفة، والعاطفة مهما كانت قوية ليست أقوى من العقل، ما لدينا عبارة عن عواطف متضاربة يحارب بعضها بعض أي وجهات نظر وليست حقائق يعتد بها، العقل يقين لاينخدع بينما العاطفه تُخدع وتُموَّه، والمؤمن متسامح ومتساهل . واصل الشاب الحليق الرأس كلمته بنفس الحماس ـ :

نحن نعلم أنك تكذب علينا، وأنت تعرف أننا لا نصدقك ومع ذلك لازلت متمادياً وباصرار في صياغة أكاذيبك ! وبعضنا لايزال يستمع اليك بشغف! (فهو قد كَذَبَ عن عمد، وهم صدّقوا بعفوية) إلى متى سنعيش جيلاً وراء جيل على آمال زائفة. هكذا هو الإنسان الأناني يرضى بالمديح الذي يكيلونه بلا حساب اليه والأوصاف الحسنة التي تنسب إلى شخصه من باب المجاملة أو الخطأ، وهي غير متوفرة فيه أصلاً وهو يدرك ذلك جيداً، ولا يتقبل منك على الإطلاق ذكر صفاته السلبية غير المرغوب فيها مع إنها موجودة حقاً فيه. توقف الشاب عن الكلام بعد ان قال كل ما يريد قوله في هذه المرة. إذ تجتمع على الإنسان عدة ظروف خارجة عن ارادته تقلبه رأساً على عقب يتحوّل معها إلى كائن لا يمت بشيء إلى تكويناته الأساسية، فيستوي عنده فعل الخير وفعل الشر. ردد الشيخ في نفسه :—

أهـذه نبوءة ؟! إن هذا الشاب دون غيره دائماً يناكف ويعترض على كل ما يقال دون ان يبدي أسباباً وجيهة لرفضه يقنع بها الجميع، ويستمتع جداً بمشاكستي. وأصبح منذ الآن مصدر قلق دائم له. الملفت في الأمر وهذا ما يضايق الشيخ حد الزعل أنه عندما يتكلم الشاب الحليق الرأس لا يوقفه أحد ولا يعترض على حديثه أحد مثلما في البداية، بل كانوا يتمنونه ان يستمر دون توقف ويتكلم أكثر، فهم لن يملوا حديثه مهما طال.

22 الأبيض أسود

لقد بلغ بسيدينا الغرور مبلغا إلى الحد الذي اعتبر معه نفسه مثل ملك مؤلّه لايقع في الزلات وقد تناسي ماضيه البائس وتنكر له، وأصبح مفتوناً بنفسه بشكل ملفت وإنه لا يبارى في شيء ولا يعرف معرفته أحد ونادرة وحيدة من نوادر الزمن التي قد تتكرر مرة واحدة كل قرن أو ربما قرنين وقلما أن يجود بها، إلا لمن إصطفاهم القدر وإختصّهم بمحاسنه من عطايا ومكرمات بلا حدود فقد (أحب نفسه حتى كرهه الآخرون).

وأصبح ينظر إلى الآخرين من أعلى وينزع إلى ممارسات شادة عن السلوك المألوف لبقية الناس، كي يوهمهم بأنه خارق للطبيعة ويمتلك قدرات رهيبة تأتي بالعجائب لايقو على فعلها أحد سواه، وهو ليس كغيره من الناس وأنه فلتة مختلفة من فلتات الدهر وجدت في زمن سابق لزمانها بكثير مما يبرر به عدم ادراك العامة لقيمته ومعرفة قدراته الخارقة، وبلغ تضخّم النفس لديه فأصبح يعتقد أيضاً أنه أكبر من واحة صغيرة مثل واحتهم في حجم كف يده، كان يسرق الإلهام من أصحابه الحقيقيين اذا ما وجد فيه حاجته التي تعزز صيته وتدعم تفوقه الموهوم، وهذه المصادرة تُعَدُ في عرف الصحارى وأخلاق أهلها إنتحالاً وعملا معيبا وشائناً لا يرتضي احدٌ فعله، وكان يفضّل المديح المفرط له وينتشي به حد الزهو ولا يمل سماعه، وان انقطع عنه أو توقف ولو لمدة قصيرة حتى يطلب المزيد منه وكأنه لا يحيا الا به أو هو حق من حقوقه الواجب ايفائها له، رغم انه على

بينة بان هذا رياء ومخادعة من بعض النفوس الضعيفة التي لا تعطي للرأي الصائب وزنا ولا للكلمة الصادقة قيمة، فيصدّق الأكاذيب التي تمجده وترفع من قدره وما ينسب له من أعمال جليلة لم ينجزها ولا فكر في انجازها حتى مجرد التفكير، ومع هذا يدّعي أنها له ويتبناها إفتراءاً وبهتاناً، أحياناً يصنف نفسه من الصعاليك الجدد الذين سيطهرون العالم، ويتفاخر بذلك. واذا ما هفا أو زلَ وعجز عن الإتيان بمبررٍ لذلك كي يقنع به الناس ويلجم الأفواه، تعلل بأن ذلك خارج عن ارادته ولا حكم له عليه وما هو الا مخلوق ضعيف مثلهم، وهذه أوامر فوقية حاسمة ننفذها فقط مثلما هي وكيفما جاءت دون زيادة ولا نقصان، غير قابلة للنقاش ولا نعترض عليها أو نتوانى في تطبيقها، وأحياناً ينسبها لأي من أتباعه ويحمله مسؤولية ذلك ويتقبلها هذا الأخير طائعاً راضياً رغم عدم علمه بشيء مما نسب اليه ولا يحب فعله، فهو شديد التنكر لأخطائه والتبرم منها. وزاد من تماديه فأكثر من الإستخفاف بهؤلاء الناس واستهان بتفكيرهم وعقولهم، معتبرا نفسه قد تورط فيهم دون دراية مسبقة له بذلك بعد أن إنتشلهم من البؤس والفقر الذي كانوا يرزحون فيه ويعانون منه ولو كان يعلم مابهم من جهل وتخلف إلى هذا القدر المؤسف الذي اكتشفه متأخراً وبعد فوات الأوان لما أدعن لهم ووافق على مطالباتهم له بالمجيء إلى الواحة، ولكن الآن عليه بالصبر والثبات ومواصلة المشوار إلى النهاية.. وكان قد وعدهم مؤكداً بأن يعطي للواحة حياة جديدة ويمنحها طعماً آخرمختلف عن سابقه. وإستمر يمنيهم بعالم شبه مثالي يخلو من الظلم والزيف والفساد ويبالغ حتى وصفه بالفردوس أو النعيم الأرضي. لقد سيطر تماماً على إهتمام مستمعيه الذين حضروا تلك الليلة الأولى لمقدمه وسلب بإسلوبه وحلاوة لسانه

ألبابهم، وأصبحوا جميعاً دون إستثناء مأخوذين بما يقول ومفاخرين به غيرَهم ويتابعونه بشغف بالغ منتظرين تحقيق وانجاز ما منّاهم به، فمتى يستيقظون ذات صباحٍ أغر ويجدون الواحة قد وُلِدَتْ من جديد في هيأة مختلفة وثوبٍ قشيبٍ كما تمنوها ورأوها في ظلمة الخيال، حيث رسم لهم وعوداً كبيرة وعريضة، أحلاماً مليئة بخيالات شبحية متداخلة متضاربة غير واضحة المعالم ولا منطقية.

أغلب هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم متفوقين وإستطاعوا أن يكونوا قادة العالم وممن أثروا سلباً في التاريخ يعوزهم أهم مقوم من مقومات الشخصية المتماسكة، فقد فقدوا أماهاتهم منذ الشهورأوالسنين الأولى لحياتهم بالموت أو بإنفصالهن عن آبائهم، وعاشوا طفولة مهزوزة مضطربة وحياة غير مستقرة ولا طبيعيه، أيتاماً أو شبه أيتام يتجرعون مرارة الفقدان وضنك العيش والحرمان العاطفي، ثم وعوا كينونتهم ووجدوا أمهاتهم متزوجات من رجال آخرين غير آبائهم فصُدموا وكان لذلك أثره السلبي العميق والسيء على تكوين شخصياتهم وسلوكهم فشبوا متهورين منفلتين دون رادع ولا ضوابط نفسية، والأم هي الوتد الذي يشد الإبن اليه ويحول دون انحرافه وجنوحه فلا يتركه ينفلت بلا روادع ولاضوابط ويعيث عندما يكبر في الدنيا فساداً ليعوض ما فقده من حنان وعطف أمومي في الصغر، وليؤكدوا كنوع من اثبات الشخصية تفوقهم في تحقيق شيئ قد عجز عن تنفيذه الآخرون أمثالهم ممن لهم أمهات ويعيشون في أحضانهن مطمئنين هانئين .

الأبيض أسود 23

(23) (سنقيم سقفاً للواحة بأسرها) اعلن الشيخ ذلك بملء فمه وبكل تبجح ولاحظ الإستغرابَ بادياً على وجوه المجتمعين من خلال تبادلهم للنظرات الحيرى المملؤة تعجّباً ودهشة دون ان يتكلم احد منهم، واكمل حديثه قائلاً :ـ

ويصبح الجميع يسيرون سواسية مستمتعين في نهارات الصيف القائضة بالظلال الباردة المنعشة بحيث يمكننا أن لا نرى الشمس البته، وينعمون بالدفء المحبب في فصل الشتاء حيث تنخفض درجات الحرارة إلى حدودها الدنيا في الصحراء الكبرى، هذا السقف لعلمكم وحتى لا تأخذكم الدهشة وتذهب بكم بعيداً إلى التشكيك فيما أقول، وربما قد تُخْلوا المكان وتتركوني وحيداً واقفاً به معتبرين ذلك ضرباً من الخيال أوشيئاً مستحيلاً وغير قابل للتطبيق أبداً.. انه عمل بسيط وممكن إذ يتم تَسْقِيف الشوارع والأزقة فقط وبذا تصبح الواحة مسقوفة بكاملها وتكون حركة الرجال تحت الاسقف، بينما حراك النسوة والاناث جميعا سيكون فوق سطوح المنازل والدكاكين والابنية التجارية وخاصة تنقلاتهن البينية وزيارات بعضهن لبعض حتى لا يتطرق رجل لامرأة ولايضايق شاب فتاة. وبدا نكون قد تمكننا من تقييد النسائم المنعشة وحبسها لتتجوّل داخل هذه الانفاق والممرات المغلقة فقط فتكون في فصل الصيف منعشة باردة وفي فصل الشتاء دافئة هادئة، قال الشاب الحليق الرأس الذي كان يستمع في قلق : —

هذا العزل اخفاء وطمس للجمال وليس حجب للفتنة. استمر ـ

الشيخ متجاهلاً الصوت الذي قاطعه ـ يؤجج فيهم الرغبة للنهوض بواحتهم، وينعش الحماس لبنائها ووضعها على سكة التقدم فارتهنوا تماما لما يقوله لهم ويمنيهم به وأخذوا وعوده على محمل الثقة حتى انهم رفضوا التشكيك في شخصه ولم يتقبلوا الطعن في كلامه، وكلامه عادة في مجمل ظاهره لا اختلاف عليه، يقول الحقيقة في العلن ويناقضها ويعمل ضدها بكل ما أوتي من جهد في السر، وكل لقاء يقول فيه كلاماً جديداً ومبهراً يدغدغ به عواطفهم ردحاً من الزمن، وعندما يحس أنه قد خبا وفقد توهجه ومفعوله وقارب ان يتحول إلى أهكومة ساخرة، يعاجلهم مجدداً بلقاء آخر أكثر حبكة ومفعولا ويمنحهم وعوداً جديدة ولكن مختلفة حتى يغالطهم أكثر، وهكذا على هذا الديدن استمرتْ الجرعات التي يتلقونها منه تباعاً جرعة بعد أخرى في تتالٍ، ولا يترك زمناً أو فرصة للتفكير والتشكيك بين الجرعة والأخرى. قال الولد الحليق الرأس :—

(الإنسان عندما يختل عقله، ويفقد توازنه يصبح صانع أوهام محترف) دائما كانت كلمات الشاب يعقبها صمت مبهم للتأمل والمقارنة ولمعرفة المعنى والمغزى على السواء. بعد أن أحس الشيخ بالتقصير أو القصور الذي بدا واضحاً والزمن يمر هدراً دون فائدة تذكر، نال منه الاحباط وقال في أول تصريح له وهو في عجز تام مخاطبا جمع الحضور المقربين منه الذين يختلي بهم عندما يريد ان يتسرر لهم بخبر وهو :—

الذي يحز في نفسي أن (بوذا) رجل بسيط تماماً إذ عاش بلا مأوى لمدة ست سنين وجلس تحت شجرة تين فغيّرالعالم في زمن وجيز، وأنا تسع وتسعون رجلاً وواحد آخر اسمه) عمران (، اذن انا أكافيء مئة رجل بالتمام والكمال وأنا رجل أعيش في قصر منيف

وليس تحت شجرة يابسة، مع هذا لا أستطيع تغيير واحة صغيرة بحجم كف يدي هذه، أيعقل هذا بالله عليكم ؟ على وهم منه بأن صناعة التاريخ متأتية للجميع، فالبطل التاريخي لا يقلد الأبطال الآخرين والا يكون شبه بطل منهم، ثم ردد داخله في شبه تمتمة : —

الفرار سيكون سلاح اللحظة الأخيرة لأن عمر التحايل قصير وان طال.

24 الأبيض أسود

لقد تعرف الناسُ على سلوكيات غريبة منه شـادة عن طبيعة تصرفاتهم السائدة والمألوفة، لمسوها لكثرة تكرارها لديه وقد تركوها له وحده واعتبروها من إختصاصه هو فقط وهم غير معنيين بها وبفعلها، ولا حاجة لغيره اليها فلا يقلده ولايناقشه فيها احد، ولا يمكن ان تحدث للآخرين منهم، ولاحظوا عدم إكتراثه عند الإتيان بها وكأن الأمر بالنسبة له إعتيادي لا حرج منه ولا غرابة فيه، منها ما يتعمد الإتيان بها ومنها ما تفرض عليه وهي فوق إرادتـه، يجد نفسه مسيراً منقاداً لفعلها تحت مؤثر غامض كالمسبوه.. كأن يسير أثناء نومه فيخرج أحيانا من بيته ويتجول ثم يعود وحده دون تدخل من أحد لمساعدته، ولايسقط في الطريق ولكنه يرى كل شيء بوضوح وكأنه يقظ أو يقتاده شخص غير مرئي فعينيه مفتوحة على الدوام، الا اذا أيقظه أحد المارة عندما يهم بملاقاته ومصافحته، فيصحو ليكتشف نفسه شبه ملقى في الشارع وأحياناً في العراء ويتساءل في حيرة كيف وصلتُ إلى هنا وما الذي جاء بي؟

نادراً ما يصطدم بجدار أوجذع نخلة ويعرف هذا من وجود بعض الرضوض أو الخدوش على جبهته في صباح اليوم التالي. ومن شدة إحساسه بالرطوبة التي لا يحبذها، كان يكتشف غريزياً مكامن الماء تحته في طبقات الأرض العليا، ويستشعر متكهناً وجودها وكأنه يحمل عصا الإستنباء رغم ندرة المياه في المنطقة، يجس المنطقة ويحدد مكان الماء ويأمرهم بالحفر حيث يشير عليهم، فيحفرون ليجدوا الماء

كما تنبأ وعندما يحاصرونه باستفساراتهم عن كيفية معرفة ذلك يجيبهم ـ هذا الشيء لا يدركه الا من أبتلي بالبرد (بالروماتيزم)، والشيء الآخر الذي يضايق الشيخ كثيراً أنه كلما استيقظ في الصباح، يجد فراشه كفراش طفل مبللًا بالبول الذي لم يتمكن من السيطره عليه رغم محاولاته العديدة الفاشلة لحبسه، لذا يكون إستيقاظه باكراً وقبل الجميع الذين يرافقونه احياناً حتى يتمكن من غسل فراشه وتعريضه للشمس كيما يجف دون علم أحد بذلك، ويُخفي الأثر عن رفاقه الملازمين له حتى ينقذ نفسه من هذه الورطة ولا ينكشف سره، لكن رائحة البول نفاذة وأصبحتّ معتقه في المكان وسكنت أركانه وزواياه، لهذا من المتعذر القضاء عليها واستبدالها برائحة أخرى مقبولة ترتاح لها الأنفس، ولن تغادر مهما إستعان برش الروائح واستعمل البخور وأعواد النَّد الذي يعول عليه كثيراً للقضاء على هذه الروائح الكريهة فيحرقه في مجمرة كبيرة ليتصاعد دخانه ويملأ زوايا واركان الغرف في عملية إحلال لطرد الرائحه القديمة والتخلص منها، يحدث معه التبوّل الليلي اللاإرادي بطريقة عجيبة وتكتم عليه زمناً طويلاً، وعندما ادرك ان لا فائدة من الكثمان روى لأحد أصحابه المقربين والذي استأمنه على سره بعد ان أوضح له أنه هو الآخر مصاب بذات المشكلة فأصبح شريكاً له ولا بأس من تعاونهما على معرفة اسرار هذه العادة، أوضح الشيخ ما يقع له بالتمام لإشراكه الهم الذي حل به وربما يتوصل معه إلى حل، بعد ان أعيته الحيلة وعجز ان يفعل حيالها اي علاج قائلا :—

عندما تداهمني الحاجة إلى التبول وأنا نائم تماماً.. أحلم بأنني وحيد أتمشى في صحراء خالية آمنة أو وادي معزول أشعر فيه بالحرية التامة وبأنني غير مراقب اطلاقاً من أحد، أجلس بكل

إطمئنان وأناة وأبول بكل أريحية، وفي منتصف العملية أو عند قرب نهايتها أستيقظ على الشعور بسخونة بين فخديّ، فأدرك انني قد بلتُ على نفسي وأجدُ فراشي مبللاً وكذلك ملابسي. فأتضايق كثيراً من هذه الخدعة الدماغية التي لا أعرف كيف جاءت ولا كيف تكونت ولا استطعت التغلب عليها؟ وكما هو معروف لدى الرجال فان التبول اللا إرادي شيء معيب ومشين لرجل مثله مُعْتَبر وسوي ويحسب له حسابه، لذلك نجده يتستر عليه ويخفي آثاره عن أعين وأنوف الآخرين ما أمكنه ذلك حتى لا يصبح عرضة للتعزير والسخرية من قبل الناس وقد يفقد الكثير من هيبته ووجاهته إذا ماعرفوا عنه هذه الحقيقة، لكن بعض الإخوان إكتشف ان الشيخ يعرّض فراشه لأشعة شمس الصباح ليس كل يوم ولكن في مرات تتقارب في فصل الشتاء أكثر منها في فصل الصيف، لذلك يتوقف عن شرب الماء منذ المساء ولو كان عطشاناً حتى لا تمتليء مثانته بالبول ويجد نفسه مضطرا إلى التخلص منه أثناء نومه عند احد الأودية الخالية، كما أدرك أغلبهم عندما أتوا على هذا الموضوع اثناء أوقات غيابه في لَمَزٍ: —

أن الشيخ تحدث له عملية استحلام أثناء نومه .. وهذا الإستمناء يبلل فراشه لذلك يصحو باكراً قبل ان يراه أحد كي يغسله ويجففه خجلاً منهم، وهذا يعني أن شيخنا يعاني من حالة احتقان جنسي حادة تضيّق عليه ومن واجبنا تجاهه وحقه علينا أيضاً معالجة الحالة وتدبر أمره بتزويجه سريعا. يسكن في داخله طفل غير بريء.. طفل عابث من السهل الضحك عليه لايهمه ما يلحق بالآخرين من أذىً بسببه. لكن الإنسان طبيب نفسه فيحيي نفسه وهو سقيم، ويقتل نفسه وهو سليم معافى. يقضي أوقاتا طويلة وهو ينظر شارداً إلى السماء التي يسميها مرآة الفقراء والمعوزين ويتأملها متابعاً ما يطرأ

عليها من تغييرات، وكيف تظهر تشكيلات من السحب وتغيب أخرى بعضها داكن وبعضها ابيض ناصع، يستنطقها ويتفهم ما ترمي اليه من معنى ليعود إلى الجالسين جنبه ـ مع جسده فقط ـ وينتظرون عودة روحه اليهم ليحدثهم بما رأى في رحلة معراجه وغيابه الخيالية هذه، وما تلقاه من أوامر وما استجلاه من امور ونصائح فوقيه فهو يعتبر كل شيء تقع عليه عيناه قابل للقراءة والتأويل، قال أحدهم ـ انه يناجي الله ! ليت اننا مثله أتركوه وحاله مستغرقاً لاتفسدوا عليه نجواه. هذه المناجاة لاتتوفر للجميع ولا تحق عليهم، فهو الآن بمعية رفاقه الأولياء الذين دائماً نراهم يزورونه في احد زياراتهم الفوقية وأتصوره على هيأة طائر ناصع البياض مثل الطيور التي نشاهدها تحوم بهدؤ وفي انتظام وهي تضرب بأجنحتها الهواء في أعالي السماء.. عليكم بالتزام الصمت واتركوه يعيش متعة تنسكه هذه. بعد زمن عاد اليهم وعندما تلفت حوله باحثاً عن نفسه لم يجدها فلم يهتدِ إلى مكانه بعد، بادره أحد الحضورالقلقين المترقبين في وجل : —

ماذا رأيت لنا اثناء هذا الفاصل الذي لانعرف من شدة قلقنا عليك هل طالَ أم قصرَ؟ أعاد التفاته يمنة ويسرة وتفحص المكان بتمعن ليعرف قبل كل شيء أين هو الآن تحديداً ومن هم الذين بجواره ؟ وأمعن في الغياب من جديد ثم سأل : — أنا اين ومن تكونوا ومن أين أتيتم؟ وكيف جئتُ إلى هنا ؟ وأين فلان وعلان و...وذكر أسماء كثيرة لا يعرفها أحد؟ ثم اردف : —

(لي وجهان وثالث لكم)، فعلق احد الحاضرين وقد عقدت هيبة اللحظة لسانه : —

معنى ذلك يا رفاق انه يرى في الداخل والخارج !.

كان يعتمد في تسيير أموره عامة على فكرة قلب الحقائق، فيعزز الناس ويعيّرهم بما فيه هو حقيقة من عيوب وعورات وليس بما فيهم هم ويتهم الآخرين بما يقترف هو من أخطاء ويرتكب من رزايا وجرائر، وينسبها لهم بل يلومهم ويعنفهم على فعل ذلك، حتى يبعد التقوّل ويدرأ الشبهات عن نفسه نهائياً، متخذا منهم ضحايا ويخرج منها نظيفاً كما يتوقع، ويصرف تفكير الناس عما به من خصال سيئة، ويلفق التهم بلا تحفظ ولا رادع أخلاقي لمن يرى فيهم خطراً عليه ويهددون مركزه حتى يُتفّههم ويحط من قدرهم ليتم إقصاءهم فيما بعد، لقد كان شديد التكتم والحذر حتى أنه هو من قائل (خوفاً من عيوني أن تراني). وكلما أقدم على فعل أهوج أو إتخذ قراراً أرعناً وإكتشف بعد فوات الأوان أنه خاطيء ودون تروّي ويلحقه بالضرر ولا راد له، فيلقي باللائمة على أي من الآخرين الأبرياء الأقرب له واصفاً اياهم بالمتسرعين والذين لا يستطيع الواحد منهم الرد عليه أو مجادلته للدفاع عن نفسه لأنه قد عوّدهم على تحمل بلواه والقبول بها في صمت، فيحتمل الواحد منهم مظلمته ويصمت عن مضض، وهكذا حاله في مواقف كثيرة مشابهة يميل فيها إلى تنزيه وتبرئة نفسه بشتى الطرق ويحاول أن يخفي عيوبه وراء عيوبه الأقبح منها، وهذا أسلوب لا يقدر عليه الا الشيخ فقط. لأنه يعتبرناس الواحة جميعهم تلاميذاً قصّراً له ولا يفقهوا شيئاً من الحياة وهو العارفُ والمعلمُ الوحيد الذي بُعِثَ من أجل تعليمهم وإرشادهم وحتى هدايتهم، بعد ما إكتشفه لديهم من إنحراف عن السراط الحق حد الضلالة، او ضعف الثقافة في العديد من توصيفاته الجارحة لبعضهم، وهو الوحيد دون غيره المعصوم من الأخطاء والمنزه من الزلات ومن واجبهم الإمتثال لنصائحه وتوجيهاته وتطبيقها كيفما ينطق بها بدقة ان هم

أرادوا السعادة والسؤدد الذي يبحثون عنه، وحتى إذا ما أساء معاملة شخص أو عشيرة بأكملها فمعنى ذلك أنها هي البادئه، وماعليهم إلا محاسبة أنفسهم بأنفسهم ومراجعة سلوكهم وتصرفاتهم غير السوية قبل مساءلته هو أو تحميله وزر ما يقع عليهم، وكل ما يلاقونه من عذابات ناتج عن شر مافعلوا بأيديهم، فالجريرة جاءت منهم أولاً وهم أبدأ بالخطأ، وما ينزله عليهم أحياناً من عقاب ليس سوى ردة فعل صائبة وقصاصاً عادلاً ورادعاً يستحقونه منه، يخفف من آثامهم وذنوبهم فيما بعد. على مايبدو للرائي المتتبع له انه شديد التعلق بالنظر إلى صفحة السماء ومتابعتها وتفقدها شبراً شبراً في أغلب الأوقات، ويقول انه يعرج في مهمات طارئة إلى عوالم خفية عليا لا تطال، يقابل من يقابل ويتشاور مع من له علاقة ويحمل نفسه ويرجع محملاً بالنبؤات والوصايا، والتي تعني له قراءة الغيب واستلهام المجهول، فهو كما يدّعي انه يجيد فك الرموز والأشكال والرسوم التي تصنعها السحب وتظهر للعيان، يهملها الجميع ولا يلتفت إليها أحد سواه لعجزهم عن ادراك كنهها، تبدو عشوائية مفرّغة من أي مضمون أو دلالة، كضربات فرشاة بلا وعي ولا تركيز لفنان تجريدي مجنون، ولكن في مفهوم الشيخ ليست كذلك مثل ما هي ضربات الفرشاة في مفهوم الفنان، فتظهر فجأة لتلمّح بما لديها من اعازات وانذارات وتبلّغ ما تحمل من رسائل انذارغامضة، ثم تختفي أو ترحل إلى أمكنة أخرى كي تنقل إعازها اليها وتمليها مثلما تحمل الماء من مكان إلى آخر، انه يقرأ دلالاتها ويستوضح فحوى معانيها .. فيقول اذا ما جاءت هذه السحابة إلى هنا وتداخلت مع تلك فيعني هذا أن السماء ضاحكة مستبشرة أوغاضبة مكفهرة فأحذروا غضبها واتقوا شرها بالصدقات وصنائع المعروف. وهو كلما

تضايق من سماع حديث ما، وأراد ان يغيّر مجرى الحديث أو ينهيه من أصله، ويجذب انتباه الحضور اليه يضرب بقوة على جبهته بكف يده ويصرخ معاً بأعلى صوته "ياالله" فيلتفت الحضور نحوه في دعر هلعين وقد نسوا حديثهم الذي كان يدور خشية قول السؤ المرتقب سماعه منه، مستفسرين عن ما رأى ؟ وماذا حل بالكون؟ فأحياناً يرد عليهم ويصف لهم سارداً ما رأى وفق جهوزية الفريّة التي يختلقها، وأحيانا اذا كانت غير جاهزة أو لا تفي بغرضه ينصرف عنهم ولا يعير سؤالهم اهتماماً على أساس أنه في غير محله، أو أن الأمر لا يحتمل الإنتظار والتراخي، والوقت الآن لايسمح بالشرح والإيضاح، أوهو فوق قدراتهم الفهمية، وهنا يزدادون تشبثاً بسؤالهم وتمسكاً بمتابعته ليشرح ويبسّط لهم المغزى، فيلتفت اليهم قائلاً : — اذا لم تفعلوا كذا وكذا قد تصب السماء صواعقها الماحقة وتطلق رجومها النارية عليكم أو ينفجر غاضباً احد البراكين الخامدة منذ آلاف السنين التي بالجوار ليلقي بحممه ومصهوراته فيطمركم أحياء تحت رماده، وهو يشير بيده مهددا متوعدا إلى الحجارة المحروقة التي تغطي جبلين مخروطيين متحاديين ومتماثلين تماما على مشارف الواحة، ان إنظروا إلى المثال هناك وواصل وعيده : —

أو يضرب اعصارٌ الواحة بعد ساعات أو بعض يوم، أو قد تهب عواصف رملية شديدة وتهز الواحة من أساساتها وتفسد كل انتاج التمور وتسقطها ارضاً ليملأها الرمل وتردمها الأثربة وبالتالي تفسدها، وتحل بهم الكارثة، ها هو العجاج قد أعلن عن نفسه وسيبدأ بعد لحظات هجومه الكاسح المذمر الذي حذرتكم منه، انهضوا وتدبروا أمركم قبل ان يداهمكم ريح صرصر، وتقع الكارثة فالمصائب كثيرة والفاعل واحد، فيهبون من فورهم فزعين لتوفير

مطلبه، ويلتجيء إلى هذا التصرف اذا ما اراد لشيء ان يكون وفق مبتغاه فيختلق له بدعة ويحبكها جيداً ليخيفهم بها حتى يصرف تفكيرهم ويلهيهم عن جادة الصواب، فامسى الخوف جزء من عقيدتهم، وأحيانا يلتجيء إلى طريقة أخرى كأن يعد أحدهم بتحقيق حلم من أحلامه، أو تقديم خدمة له يكون انجازها عند شخص آخر ومرتبط به فيتدخل لديه ويوهمه ببسط سطوته السحرية عن بُعْد أو بالتهديد والوعيد المباشر حتى يدعن هذا الشخص الآخر ويوافق على طلبه، ويدّعي أن ذلك قد تم بفضل بركاته وجاهه، يتناقل الناس على وجه السرعة التحذيرات التي تصدر عنه فتقع في نفوس الأطفال موقعاً يرهبهم وهم الأكثر عرضة للتضايق وينتابهم القلق، الأمر الذي يحيّر الكبار ويضغط عليهم فيدعنون أكثر له، في أحايين يستدعي ألأولياء الصالحين كي يجتمعوا عنده في أخريات الليل ليتدارس معهم أمراً ما إقتضته الضرورة عاجلاً. قال لهم بعد حين : —

(اذا بحثم عني ستجدونني بين الشك واليقين)، كثيراً ما يتنقل من سياق إلى آخر دون وجود رابط مقنع ويترك فراغات من المتاهة بين معاني كلماته، ويجعل مستمعيه يتخبطون في وضع وإختيار المعاني الرابطة والممكنة لملء الفراغات بما يناسب .

25 الأبيض أسود

لقد تواجد الناس بناءً على دعوة من الشيخ للاجتماع، كعادته أن يفعل عندما يريد أن يمرر أحد أسطورياته المحبوكة بمهنية والتي يخشى عليها من رفض البعض أو عرقلتها.. طال انتظارهم له هذه المرة وهو لم يأتِ بعد، ومنهم من تثاءبوا في سأمٍ وتمددوا – إلتماساً لإغفاءة – على الكراسي التي صُفت واحدا جنب الآخر ليجلسوا عليها وقد نال منهم التعب وسأم الترقب ما نال، ويتنامى لدى معظمهم شعورٌ بالإحباط دونما توقف، اذ تأخر الشيخ عن الحضور هذا اليوم في الموعد المحدد الذي ضربه لهم بتأكيد قاطع، دون معرفة السبب.. وقد تكرر هذا منه في مرات عديدة سابقة وهو يتعمد فعل ذلك عنوة فليس لديه في حقيقة الحال ما يشغله عنهم، او يحول دون مجيئه مباشرة وفي الموعد المعلوم أو حتى قبله، بل كي يستمتع بذلك، عندما يتركهم فريسة للقلق والضجر ولو لساعات بغية أن يحقق لهفتهم عليه وشوقهم اليه، ويعرف مدى حبهم له، ولا يستطيع اي منهم مغادرة المكان دون اذن لأن هذا يعد تجنياً على شخص الشيخ وإستخفافاً بمكانته المرموقة شبه القدسية.. وأحياناً بعد كل هذا الانتظار يبعث لهم بأحد مريديه ليعلن لهم عن انشغال الشيخ الآن بأمور أخرى أهم من الإجتماع بهم ويقترح تأجيل اللقاء إلى موعد قادم يحدده فيما بعد!.

أخذ النوم يداهم بعضهم فيختلسون اغماضات قصيرة متقطعة على فزع بالتناوب فيما بينهم ريثما يأتي، وهذا يخفف ولو قليلاً من

سأم ووطأة الإنتظار الثقيلة والمملة. وأخيراً وليس آخراً جاء، حيث دخل عليهم، وجلس على كرسيه الوثير والمميز عن بقية الكراسي المعد للأرفع مكانة.. سكت الجميع إستعداداً للاصغاء إلى ما سيقوله لهم وربما يكون قد قاله من قبل في مرات سابقة وهاهو يكرره للمرة العاشرة، توقف للحظات صامتاً، ونظر إلى السقف طويلاً ثم جال ببصره في ارجاء البهو يستطلع المكان متفقداً وكأنه أول مرة يأتيه دون ان يلقي بالاً للحضور الذين يتابعون حركاته في صمت، محتار في أمره فليس لديه ما يقوله لهم..حتى ان بعضهم شك في الأمر، يبحث في كل الاتجاهات عله يعثر على مرأى شيء يمكن الاستعانة به ليخلصه من الموقف، يعتصر ذاكرته علها تجود عليه ولو بالقليل، لكن لا قليل ولا كثير، ويجد نفسه ملزماً باختلاق اجابة لكل سؤال وفتوى لكل معضلة او اشكال، وأخير انتبه إلى وجود بشر يجلسون أمامه في انتظار ان يلتفت اليهم ويعيرهم شيئاً من إهتمامه، إلتفت نحوهم وقال بصوت خفيض : — صباح الخير. وهنا على الفور وقف احد الشباب والذي على ما يبدو أنه قد تضايق من الموقف وإنفجر بلهجة غاضبة : —

نحن الآن في وقت المساء، الصباح قد ولى منذ ساعات!

فهز الشيخ رأسه ببطء من أسفل إلى أعلى موافقاً هزات متتالية وهو لايزال على صمته وكأنه قد أفاق متأخراً، أخذ يتكلم ويحرك رأسه ويلف عنقه حتى تظهر تفاحة آدم واضحة كالكرة تتحرك ثم ينظر إلى أعلى وكأنه يوجه كلامه إلى مكان آخر وناس آخرين غير الذين يجلسون امامه في اصغاء، يغمض عينيه طويلاً وهو مستمر في الحديث ثم يفتحهما على إتساعهما ويعود لإغلاقهما سريعاً كمن يغالب النعاس الداهم ويقلبهما حتى يغيب سواد العين، هكذا هو حاله دائما كلما اراد أن يقول كلاما جديدا أو يطرح أمراً أو رأياً

ويدرك مسبقاً انه غير مقبول وسيقابل بالرفض.. ثم يتجشأ أو يتصنع الجشأ. وهنا إزداد غضب الشاب وانفجر صارخاً متسائلا في حنق مرة أخرى : —

يبدو ان الإجتماع قد أعد من أجلي أنا وليس لغيري فقد وجب الكلام نحن الذين سنخلصك مما انت فيه من تلبك وارتباك، ولكن قل لي إلى أين تريد الذهاب بنا انت ومن معك، كل ما تطرحونه من أفكارهي قديمة وثبت فشلها وبالتالي فهي عقيمة، وما علينا الا التمسك بالوصايا التي جاء بها الشباب جميعهم وهاك بعضها ثم أخرج ورقة معدة وبدأ القراءة منها :-

(1) العلمُ حقٌّ مطلقٌ، وليس كل الأساطير باطل .

(2) الذي يستطيع أن يفرق بين العلم والخرافة يستفيد منهما الإثنين معاً .

(3) الضلالة ايمان خاطيء .

(4) العلماء تلاميذ الخالق .

(5) ليس المهم أن نفكر، ولكن الأهم أن نعرف كيف نفكر ونجيد ذلك.

(6) لا تخيرني بين شرين بل خيرني بين خيرين، فشر أهون من شر وخير أفضل من خير.

(7) العلمُ جدٌّ، والخرافة هزل مهما كانت هادفة. الخرافة آفة .

(8) هل نحن وحدنا محكومون بالتخلف دون بقية البشر ؟ فهم السابقون ونحن اللاحقون في الحياة، ونحن السابقون وهم اللاحقون إلى الموت !.

(9) الذي لايستطيع هزيمة نفسه لا يستطيع هزيمة أحد .

(10) ما جدوى حياة باردة في خمول، فالعيش دون السعي إلى

المحال هو بمنزلة الموت.

واستطرد الشاب مكملاً : —

نحن ماضون على التمسك والعمل بهذه الوثيقة، ومصممون على تحقيق شيء ما من أجل المستقبل، لأننا نرى فيها خلاصنا وتحررنا لنبني واحة سمحاء يتوق لها الجميع، ما إن فرغ الشاب من تلاوة ورقته ونطق بآخر كلمة منها حتى علا الهرج والمرج وتصل إلى اذنه بعض الشتائم من مكان ليس بقريب ولم يتمكن في وقتها من معرفة ما اذا كانت معه أم ضده، ووقعت مشادات ونشب تلاسن بين الحضور الذين إنقسموا، بعضهم يؤيد ما جاء به الشباب في وثيقتهم هذه ويبارك الخطوات التي أنجزوها والتي سيقدمون على انجازها، ولكن الأكثرية لازالت متمسكه بأفكار الشيخ ومبادئه واستمجوا ما حدث وأعلنوا رفضهم لهذه الآراء لعدم تمكنهم من إستيعابها ورأوا فيها اعلاناً للعصيان والتمرد ونكراناً للجميل، انفض اللقاء على سابقة غير متوقع أن ينادي بها أحد لكنها فتحت أفقاً جديدا أمامهم ما كان معروفاً .

الأبيض أسود 26

لقد سمع الشيخ عن (منصور) الذي إنبهر به كثيراً وبما قد سمعه عنه قبل أن يلتقيه ولاحتى وقعت عليه عيناه، واعجبه ما قد تناقلته الألسن عنه وما تواتر من حكايا لا آخر لها فلا يمر أسبوع إلا ويكون قد سمع بخارقة من خوارقه النادرة، ووجد فيه ضالته التي بحث عنها كثيراً، واخيراً ها قد عثر على من يشفي غليله بالإجابة عن تساؤلات حارقة وملحة ظلت تلازمه بأرقها وتقلقه ردحاً من الزمن ولايمكن البوح بها لأحد في هذه المجتمعات الخلوية والمنغلقة إلا لشخص متفتح له باع طويل وخبرة واسعة في الحياة ومتخصص مثل منصور، ومنصور هذا حالة إستثناء فهو رجل غَلِم ويُعَدُ الفحلُ الأولُ ومن أقوى فحول المنطقة بأسرها دون منازع، زد على ذلك انه جذّاب ولا هم له سوى الإعتناء كثيراً بمظهره ونظافة هندامه، ويحركه احساس غير متوفر لدى الباقين من أمثاله، وهو يتمتع بقوة جنسيه غير معتادة ومشهود له بذلك وكأنه لم يتعلم شيئاً في حياته الا هذا الشيء المستنكر، ولا هم له إلا تنمية هذه القدرات الهائلة، قلة من الرجال ينظرون اليه كفاسق ليس أقل وزير نساء يخشون على زوجاتهم من غوايته فلا يقتربون منه ويتضايقون من مجرد الحديث عنه، لكن هناك من يميل اليه ويحبذ الاستماع إلى أقواله بشغف وهم الاغلبية التي تتصنع التعفف لكن في حقيقتهم يجتمعون به في الخفاء وخاصة بعد منتصف الليل عندما تهدأ الأرجل ويركن الناس إلى مضاجعهم فيتبادلون معه الاحاديث بشمول واستضافة.

وقد كشفتّ أمره للعلن زوجته الأولى التي لم تستطع مواصلة العيش معه ومجاراته في جنوحه ومعاشرته في الفراش، فلا مواعيد ثابتة ولا وقت محدد لديه للتزاوج وممارسة هذا الشيء، ففرتّ بجلدها هاربة دون أن يعلم بها الشيخ، الا بعد ان عاد إلى البيت من احدى خرجاته فوجده خالياً منها، الرؤية لم ير أحد من قبل ما يكسب لكن تسريبات شحيحة من بعض مطلقاته السابقات تقول ذلك عنه بحسد وحسرة وتصفه بأوصاف فائقة مستحيلة وانه لا يعرف كلمة كفاية، فكانت الواحدة من العزباوات ما ان تسمع به حتى تسعى للزواج منه وتشتهيه بشتى الطرق وتكون خيبتها كبيرة إذا ما فشلت خطتها في الوصول إلى قلبه او اهتمامه على الأقل، فهو دائما عدد زوجاته مقفلاً (أربع زوجات) ما إن يطلّق واحدة منهن او تطلب الإنفصال حتى يرتفع نفير الرغبة عاليا لدى الكثيرات من نساء الواحة والواحات القريبة وتكون الرابعة جاهزة لتكمل العدد الشرعي في أقل من اسبوع، ويحتدم التنافس على اشده بينهن، الجميع لديهن إحساس بأنه يختلف بكثير عن بقية رجال الواحة وبه ما يميزه عنهم ويجعل كل إمرأة يتزوجها تتمسك به إلى آخر أمل، أكيد بسبب ما تشعر به معه من متعة وحلاوة مضاجعة وتلاقيه من دفء وطيب عيش، منهن من ارتضت أن تشاركها فيه ثلاث زوجات أخريات، وفضلت ذلك على الزواج من رجل واحد غيره يكون لها وحدها وذو قدرات عادية كبقية الرجال حتى أن بعض العزباوات والمطلقات تبعث له بطريقة غير مباشرة طالبة يده وتستأجر بعض العجائز المتصفات بالدهاء كي تمتدح جمالها ومفاتنها له بغية الترويج لها لأستمالته والإيقاع به، معربة عن رضاها وإستعدادها للزواج منه والعيش معه رفقة ثلاث زوجات أخريات كما تعود، وتحت أي وضع معيشي مهما يكون متدنياً وتتكفل

بتوفير المتعة التامة له بشكل لم يعهده لدى غيرها من قبل، ومنهن من تتعمد ملاقاته أو المرور بالقرب منه لعله يراها ويعجب بها، أحداهن تمنت لو تتزوجه ولو لليلة واحدة فقط لتتعرف على أسرار فحولته عن قرب وتكشف هذا اللغز المحير الذي أشقى الجميع. وقد تجاوزت شهرته إلى بقية الواحات الأخرى، ويبدو أنه يمتاز بلسان ساحرغاوٍ يختلب به محدثه بيسر حتى يقلبه رأساً على عقب ويلعب برأسه كالخمرة من الكلمات الأولى، تناهت أخباره إلى الشيخ الذي رأى من اللازم تدبر طريقة للتقرب منه بغية الوصول اليه واستدعائه للجلوس والتحدث معه على انفراد هنا في البيت، وقد تم له ذلك عدة مرات وعرف منه مباشرة أشياء خافية عنه كان قد سمع بها، وأجابه على تساؤلات كثيرة تدور برأسه تخص السر وعلاقات الفراش وتلح عليه بسرعة التوصّل إلى اجابات عاجلة، اثناء اللقاءات الأولى عقدت الدهشة لسان منصور وامتنع عن اعطاء أية اجابات ولكن بعد محاولات تمهيدية تمكن من فك عقدة لسانه بعد جهد بذله الشيخ المتعطش لسماع شيء ما ولو القليل، ولكن عندما استدعاه اليه ذات مساء، إستقبله بحفاوة بالغة وأجلسه بالقرب منه وازداد إقتراباً منه بمودة كي يمنحه الطمأنينة ويمده بالثقة وتصبح كلماته مباشرة لا لبس فيها، ويتحنن عليه وكأن بيدي منصور مفاتيح السعادة الأبدية، ويشجعه على الغاء هذا الفاصل الوهمي بين الراعي والرعية والذي لاقيمة حقيقية له بالأخص الآن وبادأه قائلا : — لازالتْ تفوح منك رائحة فحيح الفراش منذ الليلة البارحة يا لئيم، في البداية احمر وجه منصور ودعك جبينه بكف يده المتعرقة ثم طأطأ رأسه خجلاً من هذه المبادأة التي فيها من الجرأة الغريبة والفجور ما فيها وجاءت مِنْ مَنْ ؟ من الشيخ بذاته ! وتحت الحاحه المتواصل سرعان ما تلاشى

حرج اللحظات الأولى وإنبسطت أساريره وعلا وجهه الحبور بعدما اعطاه الشيخ الاذن بالتحدث بحرية ودون تلكؤ وحرّضه على ذلك، ثم إستطرد الشيخ :—

ولكن حدثني.. حدثني بالله عليك يا شهريار هذا العصر بكل ما لديك ولا تبخل عليّ بشيء مما تعرف، عن ممارسات الخفاء التي تجريها مع زوجاتك أثناء الخلوة المطلقة — طبعاً لا أعني الفواحش والعياذ بالله وانت منها براء — أحك لي بأوسع ما يمكن من التفاصيل الشيقة فأنا تلميذك المطيع في هذه الامور، إني أستمع في صمت حيائك هذا لأنين المضاجع وتأوهاتها، إسمعني ما لَذّ من الكلام من لسانك الذي يقطر شهداً دفعة واحدة كي ابعد قلقي، وصفّ لي شعائر التودد وطرق وأساليب الملاطفة والملامسة، ثم المداعبة والتروي في قطف المتعة التي تزيدني عنفواناً على عنفوانٍ ولذة فوق لذة وصولاً إلى ذروة هزة الجماع، كم كان يذهب بي بعيداً هذا الحديث، ويأخذني نحو حدائق السماء إلى تخوم الجنة حيث الحورالعين ويعود بي إلى دنيانا الفانية ونسائها اللواتي يغرن كثيراً من حور العين.. أنتَ قلتَ لي منذ قليل أنك في كل ليلة من لياليك تصنع عرساً جديداً وبطعم مختلف ولذة مميزة مع نفس الزوجة، كيف يحدث ذلك معك ؟

تتعدد النساء في إمرأة واحدة؟، حياة لم تبرد وعلاقة لم تفتر البته إلا وازدادت حمى وشغفاً، فقصَ عليه منصور هذه الذكرى العزيزة لديه والتي عادة ما تختزل ماضيه وتخترقه وتطل عليه مجدداً من وقت لآخر وكأنها تذكّره بوعده بالوفاء للحياة الأسرية:—

كنا أطفالاً أولاداً وبنات فقط نلعب سوياً، نؤسس أسراً وعائلات وهمية عمرها قصير تنتهي بإنتهاء ساعة اللعب أو نتقمص عوالماً بهية وأجواء فاضلة لنحياها دون ان ننتهك حرمة وبراءة الطفولة،

نحرق المراحل وكأننا بالغين راشدين بما يشكله الخيال الطفولي من رؤىً حالمة للمستقبل، طفل يمثل دور الأب ويتخذ دمية تمثل دور الأم، ويكون لهم أبناء من نفس الأطفال أو الدمي، ونتمسك في العابنا عند تقليدنا لهم بالقيم التي تستمر بها حياة الأسرة لترسيخها وتعميقها في علاقات بريئة لا تشوبها شائبة ولا يرتقي اليها شك. فقَرَصَهُ الشيخ بسبابته وإبهامه من أدنه وهزّ له رأسه لينبهه وهو يقول : —

هم على صواب عندما أسموك صائد التفاح، فعلاً انت صائد التفاح وحتى بقية الفواكه، أخذت كل شيء وتركت لنا الفتات.. لا تخجل مني بالله عليك.. ولا تبخل عليّ بشيء مما تفهم فأنا احتاج إلى خبرتك.. ناولني من لسانك الرطب الجنيّ بدون استثناء ولا حدود .. لاتستغرب أو تستريب من طلبي فهو صائب، فنحن الشيوخ محرومون من لذائذ الدنيا ومن الحب الذي هو رياضة القلوب بل أفضلها، وهناك من أسَرَّ لي بأن الحب يطيل العمر، ولا نعرف شيئاً عما أنتم فيه من نعيم، وجدنا انفسنا مرغمين على التأفف الإصطناعي ونحتسبها عفة وما هي بعفة هذا ما تأكد لي أخيراً، الذي هو في حقيقته حرمان ومنع من متعة أحلها الخالق لنا، لقد عيّبوا علينا الإستمتاع حتى حرمونا منه وسلبونا هذا الحق الطبيعي فلا نأتي على ذكر النساء في أحاديثنا ونجد صعوبة في النظر اليهن وجهاً لوجه، واذا ما مرت بالقرب مني أنثى حتى أسقط عيني في الأرض وأتمناها أن تبتلعني واحنى قلبي حتى تمر الفتنة الماكرة وتبتعد !

ما هذا الهراء ؟

عاش الواحد منا سنيناً وكأنه مخصياً.. يمارس الزوجان الحبَ في الظلام حتى لايرى أي منهما الآخر وكأنهم لصوصُ حبٍ ويبقى الضؤ مطفأ حتى الصباح، إلى ان ادركوا الخطأ الآن ولكن بعد فوات

الأوان وانقضاء الاعمار، من يعوضهم ما ضاع منهم ؟ ويكفينا شر الحرمان ؟ لا تتقطع عني زرني يا شهرياري العزيز في أي وقت تشاء، ودون مواعيد مسبقة فمواعيدك ـ أنت بالخصوص ـ بخلاف الآخرين مفتوحة دائماً المهم أن تأتيني في كل زيارة بحكاية جديدة أكثر متعة وتشويقاً من سابقتها فمجرد الثرثرة معك تحررني من وساوسي وتبعد الضجر عني فلا تتأخر، الحُّ عليك ثانية ألا تتأخر عني فنعم الجليس أنت يا منصور. احس بالتعاطف معه وهو يستجديه فكرة أو حكاية من حكاياته التي لا تحصى ولا تعد، والمواقف الغريبة التي وقعت له عبر رحلة طويلة مع هذا العدد الهائل من الزوجات، وبشيء من الحذر والتوجس اخذ يروي له الحكايا واحدة بعد أخرى، ولكي يكملها ربما تمتد اللقاءات إلى اشهر أخر. التفت منصور ناحية الشيخ واستأذنه في الكلام ثم قال: —

ولكن لدي تعقيب يا شيخنا من المهم ان تسمعه كي تستفيد منه قبل انتهاء هذه المقابلة، وصفتني في بداية حديثك بصائد التفاح هم يسمونني هكذا، إسم ربما اطلقوه جزافاً دون وعي منهم بذلك أنا لا أقبل بهذا التشبيه، لأن التفاح لا يصطاد أي لايقطف، التفاح الناضج يسقط طيّعاً من غصنه إلى بين يديك المهم ألا تتصرف بما يدفع التفاحة إلى أن تبتعد إلى أعلى، أنا مدينة الحب لا يدخلها الا من يعرف سر مفتاحها، الداخل فيها لا يريد الخروج منها والذي خارجها يتمنى الولوج إليها، أعلم أن الإنسان ليس له موسم إخصاب سنوي محددٌ بمدة زمنية معينة كبقية الحيوانات، ولكن له عمر يكون فيه عالى القدرات على الإخصاب والتزاوج يبدأ من البلوغ إلى سن اليأس، وتذكر دائما أن جمال الشكل جماد والأنوثة روح وهي هبة وما فوق الجمال، الأنوثة رحيق المرأة، أنا غير مقتنع بأن هذه إمرأة جميلة

وتلك قبيحة، فأي قبح لا يخلو من لمسة جمال، وأي جمال مهما كان طاغٍ لابد أن تشوبه شائبة قد تلغيه كلية، الجمال نوعان ظاهري وباطني، والظاهري أحياناً يعكس الباطني لكن الباطني ابقى تأثيراً في النفس، والنساء لا تتشابه أبداً وهذا الخطأ الذي يقع فيه جُلنا، المرأة كائن مزعج بينما الرجل كائن يستحق الإزعاج، والحب ليس مصيدة، الحب إعادة خلق وميلاد جديد للإنسان، الحب هو أجمل وأمتع ألعابي يبدو أني فطرت عليه، وكلما قررت بيني وبين نفسي الإبتعاد عن هذه اللعبة أجد نفسي دونما وعي غارقاً فيها من جديد ولو بشكل آخر.. حقيقة انا لا أتسلى بالقلوب ولكن القلوب تتسلى بي في معظم المغامرات، حب المرأة للرجل لا يتأكد الا بحبه لها والحبيبة من تسبق غيرها إلى قلبك، متعة الجنس عابرة لكن السعادة في الحب .. وان تكونَ محباً فالسعادة والمتعة لك بينما ان تكون محبوباً فالسعادة والمتعة لغيرك وهو الطرف الآخر، ايه يا سيدي الشيخ لقد تعلمت منك ما أعلمك به. لكن الشيخ سها عن نفسه وهو ينظر بحدة إلى وجه محدثه اذ تتداخل المعاني في خياله حتى تأخذ شكل التضارب أو العجز، الذي هو الآخر لم يجد تفسيراً لنظرات الشيخ البلهاء، وعندما توقف عن الكلام انتبه الشيخ لذلك وكأنه قد هوى من علياء أو قطع عنه الأكسجين وشهق بشدة آمراً :ـ

إستمرّ إستمرّ لا تتوقف أنا معك أنا ما بعدك، وهنا جحظت عينا الشيخ من جديد وبقيت للحظات وهو يقلّب خلالها هذه الجملة في رأسه ليتفهمها وليصرخ بعدها بأعلى صوته :ـ صح .. ما تقوله حق !.

لاتتوقف ناولني المزيد، فاستأنف منصور : ـ الحب يبدأ بنشوة تعيشها عن بعد وقد ينتهي بلذة عن قرب، النشوة معنى واللذة مادة .

سيدي :ـ

ألا تلاحظ أن صدر الرجل ونصفه العلوي عموماً كبير وعريض كي يحتوي المرأة بقلبه وهذا عكس المرأة التي نصفها السفلي اعرض من العلوي لذلك إفتح لها ذراعيك تفتح لك سا... وإحمرَّ وجهه لكن أعطاه الشيخ الإذن المؤكد بالاستمرار من جديد والتحدث بطلاقة دون تلعثم أو حبس أنفاس أو بتر كلمات. الشيخ يصغى لمنصور بإنتباه شديد محاولا تلقف الكلمات بلهفة بمجرد خروجها من فمه ولا يريد منه التوقف لكنه يفهم بعض الجمل وجمل كثيرة تضيع ولا يفهم منها شيئا فيستوقفه ليفسرها له، سيدي اليك بهذا التساؤل :ـ هل تستطيع تصور عالم بلا أنثى ؟

وضع الشيخ كفه على جبينه وقد أدهشه السؤال إنها أول مرة يسمع فيها بهذا السؤال ثم تحركت عيناه في محجريهما يميناً ويساراً وأجاب :ـ إي والله، لاشيء ! لاشيء! طمأن الشيخ نفسه بهذه الخاطرة الطارئة :ـ

ربما بمرور الوقت وتكرار المحاولة أتمكن من إستيعاب ما يتناوله هذا الزير في حديثه. وفي ختام اللقاء قال الشيخ لمنصورمنبهاً :—

نحن تحدثنا كثيراً لكن أعلم أنه لا يكون من المناسب اعادة ما دار بيننا من حديث لأحدٍ كائناً من كان احتفظ بكل شيء لنفسك، فأنت الوحيد صديق من نوع مختلف وأنا في انتظار عودتك لزيارتي قريبا .. لا تنسى .

الأبيض أسود 27

أحدى الفرق التي كانت تتناوب ليلا على حراسة سيدنا والسهر على راحته وربما التجسس عليه، لاحظوا عليه أنه يتكلم مع نفسه أكثر من كلامه مع الآخرين، في البداية بعدت بهم الظنون وتوقعوا أن أناساً آخرين سريين يأتون اليه خفية ومن ورائهم، بعد أن ينفض عنه السمّار والساهرون .. البعض الآخر أدركوا أن رجال الله يأتون اليه كي يؤنسونه ويتحدثوا اليه في امور ليست عادية ويسرّون عنه .. لكن من يكونوا هؤلاء الذين يزورونه وقت السحر ويسميهم العسس تجاوزاً (زوار الليل)، لم يتوصل أحد إلى معرفتهم حتى هذه اللحظة، ولم يجرؤ أي منهم على طرق الباب والدخول عليه ولو بذريعة ما مختلقة كتقديم خدمة ان كان يحتاجها لرؤية ومعرفة من يكونوا هؤلاء الزوار الذين يتحدث معهم في هذه الوقت المتأخر من الليل؟، رغم أنهم لم يشاهدوا بأعينهم أحدا يدخل عليه ولم يتمكنوا من ضبط أي مخلوق، ومع ذلك يسمعون أحاديثاً مطولةً، حاول بعضهم أن يستطلع المكان ويتلصص من شقوق النوافذ بحذر عله يتمكن من رؤية كائنات متوقعة او يلتقط كلمتين يفهم منهما بقية الحوار وعما يدور أو بعضاً منه على الأقل لكنهم تراجعوا في اللحظات الأخيرة خشية أن ينتبه اليهم الشيخ وينكشف أمرهم أمامه فيظن بهم سؤاً، قال أحد العسس : — هذا الشخص يفكر بلسانه، نحن ناس لازلنا إلى اليوم وفي هذا العصر المتأخر نفكر بألسنتنا فقط . شيء ما مجهول وغير محدد يخيفه ويبث في أوصاله الرعب في بعض الليالي

ويبعد عنه النوم فيبقى صاحياً قلقا تضاعف منها سكينة الليل وفي اغلب الحالات يجاهد رغبته في النوم بالبقاء مستيقظا حتى الصباح يتقلب في فراشه أو يتنقل ماشيا من نافذة إلى أخرى من نوافذ البيت مستطلعا الخارج، حيث يتمكن بعدها من النوم الذي يداهمه ما ان يبزغ الفجر ويعم ضؤ النهار، وقد سمعه عناصر الفرقة جميعاً عن طريق الصدفة ذات ليلة يعوي عواءً محموما خشنا كعواء القطط في موسم اخصابها عندما تصدر نداء تزاوجها المخيف، ذكّرهم بتلك اللحظة الفاضحة التي ينهمر فيها العطش بلا توقف ويستبد فيها الشبق بالقط أثناء تلك الصولات وهو يطارد أنثاه من زاوية إلى أخرى كي يرغمها على الاستكانة لشهوته. فيمؤ الشيخ ويمؤ مثل قط حبيس وكأنه يطلق نداء استغاثة ولكن لا مجيب، ثم يضعف صوته شيئاً فشيئاً ويستكين إلى أن يتلاشى وينال منه التعب فتهدأ قليلاً حرائق الرغبة في عروقه وينام، وعندما قارنوا بين الحالتين أدركوا التشابه الكبير بين الشيخ والقط، وحيث تكرر هذا الحدث أكثر من مرة عرف عناصر هذه الفرقة التي تراقبه انه يعيش حالة كبث شديدة وإنه مشحون جنسياً إلى حد لا يطاق، مما دفع به إلى إطلاق هذا النواح الحزين المليء بالوعيد. ومن فورهم بعد أن تأكدوا من ذلك بادروا بابلاغ رجالات الواحة ووجهائها عنه لتدبر أمره بعجل، واصفين حالته بأنها مزرية ومعاناته قاسية، فهو لا يهدأ إلا بعد أن يجهد نفسه وينهكها ثم يأخذه التعب عنوة إلى النوم، وهم الذين كلفوهم بمتابعته وهذا واجبهم، وقد عرضواعليه بدورهم الزواج من أية إمرأة يختارها، وما عليه إلا الإشارة اليها فقط بطرف سبابته ويتكفلوا هم بباقي إجراءات إتمام الزواج. وبعد تشاور اتفق جميعهم على تزويجه من أكثر من امرأة، حتى يتم الحصول على عدد كبير

من الأبناء (الخلفاء) من هذا النسل المبارك والشريف ونتمكن من حل مشكل الحكم الذي كان موضع فتنة تؤرق ناس الواحة، ويختلط بنسلهم ويتحصلوا على جيل جديد من جنس أكثر تفوقاً ونبوغاً. عندما عرضوا عليه رأيهم، في البداية تمنع كالنساء مثله مثل الراهب النصراني، الا انه وافق أخيراً متظاهراً بأنه أدعن لإلحاحهم على كره، وأن لا رغبة له في ذلك، ولولا إصرارهم على الأمر ما كان ليوافق بهذه البساطة ليموههم كعادته. وقع إختيارهم على إمرأة ثيب أرملة تكبره بسنين كثيرة لأنها المرأة الوحيدة التي تتوفر فيها جميع الصفات التي إشترطها وفضّل ان تجتمع في رفيقته، إلى أن يتم إختيار بقية النساء اللواتي سيتزوجهن وفق المقترح .

الأبيض أسود 28

لقد فوجئوا جميعاً ذات مساء – حيث أحس بتباطئهم – عندما فاتحهم وأبدى لهم رغبته علانية في الزواج، وأوضح لهم بأنه قد أصبح مرهقاً ويحس بالتعب للواجبات الكثيرة التي تثقل كاهله، وأصر على حاجته للاقتران بإمرأة رشيدة تعينه على تسيير شؤون الواحة وتخفف عنه عبء المسؤولية (يحكم الواحة بحاكمين) وتتمتع بالرأي الحصيف وتقدم له المشورة السديدة لا يقبل بما دون ذلك ومن بعدها تأتي في الأولوية الصفات الأخرى والوظائف الثانوية اللازم توافرها في الزوجة، كأن تسرّي عنه الهموم وتطرد وحشة الليل الطويل الذي يقضيه منفرداً بلا أنيس، فقد سئم النوم على فراش بلا حياة، وهذا أمر كانوا مستبعدين أن يبادرهم به، وطلب من المقربين له مشاركته في اختيار من تصلح لتكون زوجة حسنة له وتليق بمقامه لعدم معرفته التامة بأمور النساء ولعدم المامه ببنات الواحة واشترط عليهم :–

أريد إمرأة تفوقني ذكاءاً بغية الإستعانة بها على مواجهة الحياة وتكون لي سنداً أستشيره عند تدبر أموركم، لايهم من تكون ولا كيف تكون، وترك أمر الإختيار والتفكيرلأهل الرأي والتدبير وما هي الأسماء التي يمكن إقتراحها وعرضها عليه ؟

المهم أن يبقى البحث جارياً ويستمر التشاور والترائي فيما بينهم من جهة، ومعه من جهة أخرى حتى يفلحوا في العثور على المرأة المناسبة التي تُغني وتلقى موافقة الجميع، فعقدت جلسات تداول

مطولة كل ليلة لهذا الشأن . إنتشر الخبر بين الناس جميعا في الواحة حيث هناك الكثير من ينتظر هكذا خبر سواء من النساء أم من الرجال ليتنافسوا فيما بينهم على من تظفر بقلب سيد الواحة . فالمرأة خاصة في الصحراء نهر ماء ونهر عسل وفي أغلب الأحايين نهر خمر، فلا ينام المرء النوم الحلو الا بجوارها، ولا يحلو له النوم الا جنب الفاكهة، فاكهة الروح، والرجل في الصحراء بدون إمرأة سرعان ما يتحول إلى ذئب يزداد توحشاً وإستذئاباً في كل يومٍ يمر من دون أنثى ترافقه، وهي نصف دينه وكل دنياه، وهذا الأمر أنفسهم يفكرون فيه ويتدارسونه منذ مدة طويلة أي قبل أن يوجه اليهم طلبه، وما عرضه عليهم الآن إلا تحصيل حاصل سواء بادر به أو لم يبادر، ومصممين على إستكماله بكل اهتمام، لأنهم بدلاً من أن يبقوا مرتابين على قلق وخوف من أن يغادرهم في أية لحظة ويهجر واحتهم، إهتدوا إلى فكرة تبقيه لديهم كوثاق متين إلى آخر عمره، وتشده رهين واحتهم، وذلك بان يزوجوه إمرأة أو أكثر من خيرة نسائهم وحتى ينجب لهم أكبر عدد من الأبناء والذين سيكونون بالطبع على شاكلته إن لم يكونوا أفضل منه .

الأبيض أسود 29

أصبح الجميع مهتماً ومنشغلاً بمن ستكون حرم الشيخ ان كانت واحدة، أو من هن زوجاته المحتملات في المستقبل اللواتي سيوافق عليهن ان كن عديدات بعد أن يقع عليهن اختياره، ويرى الجميع أن من يشملها الأختيار تعتبر محظوظة وقد نالت مجد الدنيا وثواب الآخرة . بل يتنافس الكثير من الرجال في اختيار أفضل الفتيات، وبعضهم آثر ان تكون إبنته أو على الأقل إحدى قريباته من ضمنهن، حتى تتشرف عائلته بهذا النسب الطيب . بعضهم طلب مقابلة خاصة للإختلاء بالشيخ كي يسرد عليه محاسن ومزايا من جاء يرشحها ليقنعه بها، مبرزاً شيمها وشمائلها ومتنياً على حسنها الفتان، وانها من بين القليلات تصلح لتكون رفيقة عمر وسند درب لرجل في مقامه. احتدم التنافس بين العشائر والبطون المكونة للواحة على اشده حول من هي السعيدة الحظ التي ستكون زوجة الشيخ، وفي نهاية هذا الشد والرد الحاميين، اتفقوا على أن تهديه كل قبيلة من قبائل الواحة فتاة من فتياتها حتى تُرضي هذه القسمة جميع الأطراف المتنافسة وتقلل من صراعهم المحموم، ويزول الإختلاف الذي لو لم يعجّلوا بحله الآن سيتفاقم في المستقبل ويتشعب حتى ليكاد لا ينتهي ويصبح فتنة نائمة تنتظر من يوقظها في أي وقت.. وإقترح المريدون وبعض المغالين في حبه أن يدخل كل ليلة على عروسة واحدة من أجمل بنات الواحة، لكن الإقتراح قوبل بالرفض القاطع واستبعد لأن ذلك قد يفسد متعة الزواج من ناحية ويضعف العلاقة بين الزوجين، وقد

يدمر القوة الجنسية لدى الشيخ من ناحية أخرى ويكونوا بهذا قد خسروا كل شيء، فتخلوا عن هذا الإقتراح، وبادر رأي آخر بأن يبدأ بزواج المرأة الغريبة الأرملة التي مات زوجها وتركها وحيدة، وصبرت على قدرها كل هذه السنين عفيفة نظيفة لم تلوكها السنة المتقولين حتى هذه اللحظة، ولم توافق على الإقتران بكل الذين تهافتوا عليها من كل صوب وتقدموا اليها بلهفة طالبين يدها والقرب منها وكأنها في حداد لاينتهي مما اكسبها مهابة وعفة وجعل من شخصيتها موضع اعجاب الجميع، خاصة وأن من بينهم الكثير من وجهاء وسادة الواحة الميسوري الحال الذين هاموا تعلقاً بها لما تحوز عليه من حسن وجمال وتتمتع به من صفات لا يطالها سؤ .. وزاد من افتتانهم بها ما سمعوه من الناس وتناقلته الأخبار عنها في أرجاء الواحة من حسن خلق وأدب وطيبة نفس، وانها من أفضل النساء الموجودات الآن وتتمثل فيها المواصفات التي اشترطها العريس . قوبل هذا الإقتراح المفاجيء بالرضا من جميع الأطراف والذي ينم عن رأي خبير لأنها لا تمت لأحد بصلة لذلك لن تغلّب طرف على طرف ولايتضرر منه أحد، ورغم الفكرة التي يحملونها عنها من أنها رفضت كل من تقدم اليها وطلب يدها للزواج حتى أصبح الصد والرد صفة من صفاتها الملازمة لها وامتنع الكثيرون عن محاولة التقدم لها ثانية لمعرفتهم المسبقة بالجواب الذي سيلاقونه منها والنتيجة المترتبة عليه، وكأنها عافت الرجال بعد المرحوم زوجها أو ما شابه ذلك، الا أنهم على يقين بأنها لن ترفض طلب الشيخ وترده مصدودا، وهوالذي يتنافس عليه المتنافسات والمتنافسون حتى كادوا أن يتناحروا ويكيد بعضهم لبعض من أجل هذا الأمر .. واذا حدث عكس ما توقعوا وتمنعت فإنهم سيلحون ويشددون عليها حتى تستجيب لطلبهم وترضخ لرغبتهم

من أجل صلاح الواحة وخيرها، وكان الشيخ في السابق قد أوعز اليهم بها في حديث عابر لكنه لم يكررالطلب ثانية فأهملوه ونسوه الا انه هاقد ظهر على السطح من جديد، بعثوا اليها ببعض النسوة (الرزينات) اللواتي يُجِدْنَ عرض الموضوع بطريقةٍ لبقة تقرّب ولا تبعّد لطرحه عليها وأخذ رأيها فيه كبداية، واذا لم يأنسن منها استجابة أو يلمسن ليونة تطمئنهن سيضطررن إلى ممارسة بعض الضغوطات الممكنة ويضيقن عليها بإخافتها مما وقع للكثيرات مثلها، حيث أن كل امرأة أرملة أو منفصلة عن زوجها وتمتنع أو لم تسارع بالزواج لسد الطرق أمام ملوك الجان الذين يملأون الأمكنة ويميلون إلى الإقتران بالانسيات وقد يقع أي من ملوك الجان في غرامها ويفرض نفسه بالقوة عليها ويقدم على الزواج منها غصباً عنها، وتبقى أسيرة حبهم وتمسكهم بها إلى آخر عمرها، بعض النساء قد أحبها أحد ملوك الجان فعلاً وتعلق بها ثم إفتكها عنوة من زوجها وتزوجها غصباً عنه وعنها وأحياناً يضاجعها أمام زوجها دون أن يستطيع فعل شيء له حتى مجرد الإعتراض، فيرى زوجته أمام عينيه عارية على السرير وكأنها تضاجع رجلاً وهمياً وتأتي بحركات إغراء وتتشقلب بطريقة تثير غيرته، ويحذره من ملامستها أو مجرد الإقتراب منها، هذا ماحدث لإمرأة متزوجة فما بالك بأرملة أو مطلقة اكثر عرضة للإغتصاب، والا يختطفونه مثلما حدث ل(خرافة) ليبقى رهينة لديهم ويساومون به أحياناً ليحققوا أطماعهم، وهذا نفسه ينسحب على الرجال ايضاً المطلّق منهم والمترمّل، ويأخذ أسلوب حياتهم نمطاً أخر وتتغير معاملاتهم مع اخوتهم البشر وتنجب أطفالا مناصفة جينياً بين الجن والإنس. ستجد المرأة الأرملة نفسها أمام خيارات صعبة لا تُجدِ معها الممانعة والتهرب من ما ليس منه بُد، ولن يكون أمامها الا

القبول راضخة بالطلب والموافقة عليه، رغم أنها تكبره بسنين كثيرة.. والتي ما إن جاءها الوفد النسوي الحكيم حتى تمنعت ورفضت كما توقعوا منذ البداية، ولكنه من ذلك النوع من التمنع غير الصريح الذي يفيد العكس أحياناً ويحمل الضد إذ يعني الموافقة العصيّة، وتحت الإلحاح وافقت وقدمت بعض الشروط غير التعجيزية والتي ليس بها ما يدل على الرفض القاطع، ومن بين شروطها تلك ضرورة الإلتقاء به والإجتماع معه للتحدث اليه في أمور تخصها وحدها ولاتهم أحداً سواها كمعرفة ماضيه بالتفصيل وأين نشأ ومع من عاش وكيف وصل إلى هذه الواحة وأردفتْ قائلة للوفد النسوي الذي زارها: —

لدي شكوكي في أمر ما يهمني ويخصني وحدي، عليّ أن أستجليه، وأقف على كنهه بنفسي، من بعدها أجيبكم بموافقتي أو رفضي. وأهل الواحة ينتظرون على قلق ويستعجلون هذا اليوم اذ سيقيمون له عرساً لا بل قلّ أعراساً لا تنتهى ولم تشهد الواحة لها مثيلاً من قبل ربما يصير بقية عمره كله عرساً متواصلاً، وسوف تدبح الدبائح وتنحر الأنعام وتقام المآدب وتولم الولائم، وتُحْيَ الليالي طرباً وغناء، وتبتهج الواحة بأسرها بهذا الحدث السعيد، ومن الأهالي من يغتنم الفرصة، ويقدم على ختن ابنائهم أثناء هذه المناسبة السعيدة غير المسبوقة تبركاً بها، ويقرن الختان بأفراح الشيخ حتى لا يذكرعرس الشيخ الا ويكون متبوعاً به حفل ختان إبنه، ويعد هذا مفخرة يتباهى بها الطفل مدى حياته ويمنحه ذلك بعضاً من المجد وشيئا من الشهرة، ويدخل الموسوعة التاريخية الخاصة بالواحة التي يتوارثون أحداثها جيلاً بعد جيل. وحتى لا نضيّع الفرصة الثمينة التي تسنح الآن بيسر، ولا نتباطأ ونهدر الوقت الذي لا يعوض دون جدوى علينا أن نسارع بتزويجه كي نهجّن منه ونتحصّل من ذريته على أكبر عدد

ممكن من المواليد النبلاء والأشراف الخيرين أمثاله وننقذ سلالته من الإنقراض أولاً وثانياً يصبح لدينا جيل من جنس متفوق سيكون نواة أسرة مالكة تحكم الواحة في قادم الزمان وتصنع توازنا دائما يساهم في استمرار الحياة والإستقرار الأمني في ربوعها. أصبح لزاماً علينا أن نفكر بشكل جدي وحاسم ونسرّع بتزويجه بأكبر عدد من نسائنا وبناتنا، ونكسب الزمن بمزيد من المواليد القادة، فالعام الذي يولي قد ضاع ولا يمكن تعويضه الا بمضاعفة عدد الزوجات، وحتى عندما تشاءم أحدهم قائلاً :—

هب أن الرجلَ عقيم ! فلطمه فوراً أحد الحضور على خده قبل ان يكمل جملته عقاباً على قولته هذه المتشائمة المحبطة التي نغصت عليهم صفاء لحظة التمني الحالمة والسعيدة هذه، صارخاً في وجهه: —

ما الذي دعاك إلى الإتيان على هذا القول ؟

لماذا لا تقل كلمة أخرى أكثر تفاؤلاً وإيجابية أيها النحس ؟

الأبيض أسود 30

أحس بالأيام القليلة الماضية التي فصلته عن لقاء منصور في المرة السابقة، تمر ثقيلة وكأنها دهرٌ بحاله، لذلك فقد اشتاق اليه كثيراً من أجل سماع حديثه المنعش من جديد والاستمتاع بما يعمله فيه من اثارة وتهييج وليتطرق معه إلى مناحي أخرى ويتحصل منه على أجوبة لتساؤلاته الجديدة الطارئة أو القديمة التي لازالت عالقة تؤرقه، ويتعرف كذلك على جديده من مغامرات وصولات خلال المدة الفاصلة، ونـدم على تلك المدد الطويلة الضائعة التي قضاها برفقة ذلك الأجـرب (الضاوي) في توجس وخـوف وأخيراً عرف الجلسات الممتعة مع من يجب ان تكون؟، انها بصحبة أهل المتعة وإخوة الحياة أمثال منصور، وقد عصف به الشوق إلى منصور، فطلب في استدعائه بحجة هذا باطنها ليس أكثر، وظاهرها — حتى يتقبل الناس هذه العلاقة المشبوهة بينهما — تقديم الموعظة واسداء النصح لمنصور، بالتوقف عن ممارساته التي أضرت به ولفتت أنظار النسوة له أكثر، وهن اللواتي اصبحن يتحدثن عنه بلا توقف في كل لمة وقعدة وكأنه نجم سينما كبير، ولأنه اصبح فتنة ستأتي بالأهوال على الواحة ووجوده يشكل خطراً على الأخلاق والآداب العامة، وتتحول اعماله إلى فجور من عمل الشيطان قد تستدعي الأحوال المتنامية إلى ضرورة التخلص منه بنفيه إلى خارج الواحة، ولكن إلى أين ؟؟ فاذا كان إلى واحة اخرى مأهولة بالناس سيفعل بها ما فعله بواحتنا، وبهذا نكون وكأننا لم نفعل شيئاً ايجابياً، ولكن يجب عزله في أحد

الأوديـة المهجورة القصية التي لا يرتادها أحد ليقيم فيها صحبة نسائه، وحَجْره هناك بعيداً عن مسمع ومرأى الناس، هذا ما عرضه على رسوله الذي بعثه اليه، كي ينقله هذا الرسول إلى الناس وينشره بينهم ليعرفوا حيثيات هذه العلاقة الغامضة بين سيدنا ومنصور وقال للرسول إتوني بمنصور مقيداً وضعوه أمامي وسأتدبر أمره بنفسي، وعندما جِيءَ بمنصور اليه وجده في انتظاره على ابواب بيته قلقاً إلى ان رآه فاستكان وهدأ، وجذب اليه منصور من ذراعه قبل ان يصافحه وطلب منهم جميعاً مغادرة المكان، ثم إصطحبه إلى غرفة الجلوس، وهناك قرصه من أذنه قائلاً له: —

ما هذه الغيبة ؟ أين كنت يا عاصي ؟ وأضاف بعد توقف قصير:— أعرفتَ لماذا طلبتُ منهم ان يأتوا بك اليّ مقيداً؟

لأنك قيدتني اليك أولاً! ولكي نبعد عن نفسي الشبهات وتقوّل المتقولين، حتى لو حكيت للناس ما يدور بيني وبينك من حديث لن يصدقك أحدٌ، وفك قيده وابتسم له وأجلسه إلى جواره بأقرب ما يمكن ثم أدنى سيدنا وجهه من أذن منصور وأسَرَّ له متسائلاً : —

قل لي بصدق هل لكم كعائلة علاقة من قريب أو بعيد بفصيلة الحمير؟

سأنتهز فرصة هذه اللحظات النادرة وأسأل ما طاب لي السؤال وتأكد يا منصور انه لا يوجد سؤال سخيف عند التعلّم.. فأجابه منصورعلى الفور بهزة من رأسه بعد ان ادرك مغزى السؤال وقال بهدوء: —

يا سيدي الشيخ قبل أكثر من مئتي سنة، يحكى أن جدتي الأولى لجدي، وهي حامل بجدي قد مرت ذات يوم صدفة على حمار وهو يتزاوج مع حمارة في أوج الممارسة، وما ان رأت المنظر حتى وضعت

يديها الاثنتين على رأسها والتفتت لتخفي وجهها ولعنت الشيطان الرجيم الذي اقتادها في هذا الوقت ووضعها أمام هذا المشهد المشين وقد شاهدت المنظر كاملاً، وعندما انجبت جدي بعد عدة شهور جاء يحمل عضواً تناسلياً شبيها بقضيب ذاك الحمار الذي رأته أمه، وهنا قاطعه سيدنا بقلق قائلاً بعد ان ابتلع ريقه: —

تقصد لقد توحمتْ على الحمار!. رد عليه منصور: —

نعم بالضبط، هذا ما وصلنا بعد مضي هذا الزمن الطويل وتناقلته الألسن، والعهدة على الراوي يا سيدنا الشيخ. ثم سأل الشيخ : —

ماذا تأكل وماذا تشرب، وهل تفعل في أشياء أخرى لا نعلمها ولا يفعلها الآخرون؟ وعندما عرف منصور المغزى من السؤال قال له : —

لكن يا سيدنا مضاجعة النساء لا تعتمد على كبر حجم العضو التناسلي للرجل.. لكنها مهارة بحتة للجماع (شطارة)، هناك من يملك (يكسب) هكذا (ومد رأس سبابته) كعقلة هذا الأصبع بالضبط، ويعمل العمايل، يجعل صاحبته تهذي بفعل اللذة وتتأوه طيلة الليل، وهو يمدها بجرعة تلو الأخرى، وتأكد يا شيخنا أن هناك نساء عندما تجامعها تشعرك وكأنك تجامع أكثر من أنثى واحدة، ومنهن من تشعرك بأنها بعض انثى أو ليست أنثى. وكلما تحدث الشيخ كان يمرر كف يده على كف يد ضيفه والذي يحس به ناعماً كالحرير، واستغرب كيف احتمل خشونة كفه ولم يتهرب منه لكنه استمر يمررها ويحدثه بكل ليونة وطيبة متساهلاً معه حد الخنوع يريد ان يأخذ كل شيء منه بلا ثمن ويتعرف على أسرار مهنة السرير لا يمكن له الحصول عليها من انسان آخر في الواحة.

الأبيض أسود 31

شيء ما يقض مضجع الشيخ وينكل به طيلة ما هو نائم، ويذيقه مرارة ألم غريب وقلق مريع لم يعهده في سابق حياته عندما كان ينام نوماً هادئاً أجوفاً خالياً من الكوابيس، حتى عاف النوم وتشاءم من اللحظة التي يحين فيها موعد الإلتقاء به فمنذ المساء يبدأ التفكير بقلق في كابوسه الداهم، هذا الزائر الغريب الذي ينتظر لحظة نومه ويهاجمه عنوة دون أن يستطيع له دفعاً، وكأنه يلتقي بعدو لا يعرفه أو يلقى قصاصا رادعاً أوعقاباً مؤجلاً على جرم قد إقترفه ونسيه ولا يستطيع تحديده، بدا له أن الأمور لا تحدث بمحض الصدف أو خبط عشواء، وإنما كل ما يحدث له محسوب بدقة وتعمّد وكأن يداً خفيّه تحركه وتوجهه، فهو ليس حلماً متغيراً الأحداث والخطوات وفي كل مرة يأتي بصورة جديدة حتى يكون مدعاة لعدم الإهتمام إنما هو حلم ثابت لا يتغير وكأنه نسخة واحدة تتكرر باستمرار طيلة الليالي مما يدل على انه موجّه من جهة ما خفية. وأصبح يحتاج لإعانة ومساندة ألآخرين ممن لهم خبرة ودراية كافية في هذا المجال لايجاد تفسير لما لازمه وتسلط عليه ويراه في المنام مرأى الحقيقة، بعد أن تأكد من تفاصيله وجزئياته، ولكن لماذا هذه الملازمة الدقيقة له والتكرار المستمر بشكل تلقيني ومُلح، فلا يتركه ليلة واحدة يرتاح فيها، فحاول تجاهله واستبعاده عن مخيلته والتبرؤ منه، لكنه يعاوده ليطارده من جديد ويجثم عليه إلى أن يئس من محاولات التخلص منه فصمم على الإستعانة بآخرين لعلهم يعينونه على التخلص منه،

فما أن يضع رأسه على الوسادة ويأخذه النوم حتى تبدأ أحداث الحلم المتكرر في الظهور والعرض بكل تفاصيلها المزعجة مثل سابقاتها دون تغير يذكر، واذا ما كان أحد بجانبه من أولئك الذين يستبقيهم عن عمد بالقرب منه حتى وإن نام، أمسى يفضل ذلك كي يستمد منهم الأنسة ربما يهدأ ويرتاح فينام جيداً في هدؤ، فهم يلاحظون عليه ذلك بوضوح من اضطرابات أثناء النوم وما يصدر عنه من خطيط، حيث يبدأ حالته هذه بشخير حاد منفرّ كصوت المنشار عندما يقص صفائح الخشب، ويصحبه صدى مزعج، وحركات رجليه ويديه وهو يهز رأسه هزات سريعة يمنة ويسرة، يتململ قلقاً وينتفض ويهمهم بكلام غير واضح، تأخذ عضلات وجهه في التقلص والإهتزاز، يختلج وتصطك أسنانه بسرعة متناهية محدثة صريراً مزعجاً وننتظر متى تسقط جميعها في فمه وكأنه يتعرض لصدمات كهربائية في جلسة تعذيب ماكرة، ويركل الهواء بأقدامه، وتنبث على وجهه حبيبات عرق تلمع كحبات الندى على الورق الطري وتغزر بمرور الوقت آخذة في الإزدياد لتبلل شعره وقميصه حد التشبع بعضهم عندما لاحظ هذا العرق أخذ يتروّح عليه بالمروحة كي يلطف من درجة حرارته، فيستاءون خوفاً لما آل إليه حاله ويأسفون له متسائلين ماذا سيستفيد من هذه المعاناة المؤلمة دون فائدة تجعله يقبل بها، لكنما يعللون ذلك بأنه يعيش الآن في عوالم عليا نعجز عن بلوغها أو حتى معرفتها، غير عالمنا هذا الذي نحياه، وهذه العوالم لا يرتادها إلا القلة القليلة من أولياء الله الصالحين الذين إختصهم بها دون غيرهم وأمدهم بقوة روحية جامدة تمكنهم من احتمال ذلك والصبر عليه، وهي ليست سهلة كدخول فسحة أونزهة بل يدخل في نفق مظلم وعسير ويتعرض لمخاض مؤلم كي يخرج الجن من الأنس لا يطيقه كل من هب ودب إلا

أولئك الذين عايشوا الأهوال والخطوب ومنحهم الله القوة الكافية لمواجهة ذلك واكثر من ذلك. وينال الخوف من الحضور الذين شاهدوه لحظة بلحظة، فيشرعون في قراءة الأوراد والأدعية محاولين تهدئة أنفسهم أولاً من الرعب الذي الم بها، ثم لإعانة الشيخ كي ينتشل نفسه مما هو فيه من عوالم قصية وغامضة على العوام أمثالنا، قد تكون صراعاً حامياً مع مردة الجان والأرواح الشريرة، الذين أخرجهم في النهار من مرضاه المصابين بمس، ها هم يعودون اليه هو ليهاجموه في الليل كي يسكنوه ويحتلوا بدنه بدلاً من بقائهم في العراء مشردين، وينتقموا منه بعدما أستعادوا شيئاً من قوة مكنتهم من الإنقضاض عليه ومعاودته للإقتصاص منه، لنرى كم يتحمل الشيخ من أجلنا ومن أجل حقنا في أن نعيش معافين سالمين ؟ !.

لم يتمكنوا من ايقاظه إذ لايزال يتعرق من شدة التوتر وقد بلل العرق كامل جسمه وملابسه، ينهض وهو يرتعد في شبه غيبوبة متشنجاً، فاقد السيطرة على أطرافه وأصابع يديه ولا يستطيع التوقف عن الإرتجاف لقد إجتمع الإنس والجن معاً في هذا الرجل، فاقد التركيز يصدر بربرة غير مفهومة ويهذي بكلام مبهم غير مرتب وكلما حاول أي من الحضور تبيّن أو إستيضاح الكلمات لايتمكن من ذلك، وإن إستطاع أن يستوضح كلمة أو كلمتين لا يجد بينهما رابط يفيد معنى مباشراً ولا أية علاقة تعطي تأويلاً مكتملاً كأن يقول : —

سماء، حصان أو بخار، ثراب . ولا يصحو ويستعيد وعيه وهدوءه كاملين إلا بعد تلقي إسعافات أولية من الحضور مثل التنفس الصناعي، ويبذلون جهداً كبيراً لإيقاظه ويحاولون إيقافه على قدميه واسناده ربما يخطو لكن دون جدوى، أخذ واحدٌ منهم منديلاً وطواه طيتين وبدأ يجفف العرق عن وجهه حتى لا يقع في عينيه وهو لايزال نائماً

لعلما يسترد وعيه أو بعضاً منه ويصحو من سباته العميق، لايزال في حالة الوعي الجزئي لا هو بالنائم ولا المستيقظ يقارب الإغماء، إلى ان إستتبه من غيبوبته وفتح عينيه المسبلتين، وهم يبذلون قصارى جهدهم ويقدمون محاولاتهم لتهدئة روعه برويّة . بعد تفاقم هذه النوبات أصبح قلقاً على مصيره، وما ستؤول اليه حاله، حيث بنى شهرته على وهم، وهو أول من يعرف ذلك، وإنه محق في توجساته. قرر أن يكشف لهم عن السبب بعد ان يئس من خلاصه، ويعيد على مسامعهم ما يشاهده في الحلم، طالباً منهم على وجه السرعة ايجاد تفسير حقيقي وموضوعي لهذا الكابوس الذي يجثم عليه وحده كل ليلة دون ان يعرف له تفسيراً أو معنى، يذيقه الأمرين ويبهدل بحاله مثلما شاهدوا بأم أعينهم قبل قليل، ويطارده أينما نام ومهما بدّل أمكنة نومه أو غيّر أوضاع فراشه واتجاهاته فلا علاقة للأمر بذلك ولا يتحصل على نتائج إيجابية، لازال الكابوس يلاحقه ويلازمه ولا يتركه يهنأ في نومه، في البداية كان حدوثه متباعداً بمعدل مرة في الاسبوع الواحد، وأعتبر أن ذلك مجرد كابوس طاريء عما قريب سوف يزول دون تدخل من أحد وينتهي إلى الأبد، ولكن في الآونة الأخيرة كثف من زياراته الثقيلة المضجرة، وأصبح يتكرر ويأتيه كل ليلة وتصاعد بمزيد من الضراوة، وأصبح الشعور به أشد قسوة ورعباً وخوفاً إذ أخذ يضيّق عليه ويداهمه حتى أثناء النهار ويكون عندها يقظاً إلا أنه أقل وطأة منه أن يكون نائماً في الليل، وبعد أن بلغ هذا المبلغ لا مفر من البوح به لخلاّنه المقربين، وأصحاب المشورة والترائي لديه، فروى لهم قصة شجرة الزيتون المهيبة الوارفة العميمة الداكنة الاخضرار التي يمتلكها في الحلم ولا يشبهها شجر، وهي وفيرة الإنتاج بكميات خيالية وذات جودة عالية، تمنح من الزيت أكثر

من كمية الحبوب التي تثمرها عندما يُعصر، وهي الشجرة الخالدة أو شجرة الحياة التي انزلت من الجنة، فبعد أن يشقى ويجمع المحصول حبة حبة بنفسه ودون إعانة من أحد، يقوم بتنقيته من القش والأوراق التي اختلطت بالثمار أثناء الجني، ثم هرسه جيداً وعصره بجهده وحده وتصفية الزيت وفصله نقياً عن بقية الهريس ثم وضعه في جرار وخوابي إستعداداً لتخزينه وحفظه، وعندما يفرغ من كل ذلك ويفرح أشد الفرح بمحصوله نجده لايهنأ به، يلقى نفسه مدفوعاً رغم إرادته وغصباً عنه على تناول الجرار والخوابي واحدة بعد أخرى بيديه وسكب ما بها من زيت على جذع شجرة الزيتون ذاتها وكأنه يسقيها زيتاً من زيتها حتى آخر قطرة زيت لديه في الخوابي، ويحس بعد ذلك بخيبة أمل وإحباط شديدين يداهمانه كمن فقد جميع مدخرات عمره في القمار دفعة واحدة، يعقبه ندم قاهر يهد حيله ويؤرقه، ويصحو على حال مفزع، وهو يرتعد وجلده خشن ومحبب ويرتعش كالمقرور، وقد انتصب شعر بدنه وزغبه كاشواك جلد القنفد، ويتحول جسمه إلى ساحة حرب لاتهدأ، معركة داخلية عنيفة تدور رحاها بلا هوادة بين قوتين غاشمتين لم تستكن أحدهما للأخرى ولم تتمكن اي منهما من فرض الغلبة على الثانية، وإلتماساً للأنسة طلب منهم البقاء إلى جواره إلى أن يأخذه النوم ومن بعد يمكنهم العودة إلى بيوتهم وتركه وحده نائماً، ذات ليلة قبل مغادرتهم قام احدهم بفرد بطانية عليه وهو نائم فأيقظه ذلك مما دفعهم إلى الإنتظار والبقاء معه ومؤانسته حتى يستعيد وعيه وينام من جديد.. ومنذ هذه المرة لم يقترب منه أحد عندما يكون نائماً حتى لا يكون سبباً في ازعاجه وايقاظه، وإذا ما جافاه النوم يبقون إلى جواره ينتظرون لحظة يداهمه النعاس ويستسلم للنوم، وفي هذه الأثناء كل واحد منهم يكون

على عجل للخروج ويسرق النظر إلى عينيه هل أغفى أم لايزال يقظاً وما إن يغمض جفونه حتى يقرقع أحدهم بأصبعيه الوسطى والإبهام في الهواء عالياً فينسحبون واحداً بعد الآخر على رؤوس اصابعهم امعانا في الهدؤ والحذر.. الحكاية كلها تكمن في اللحظة التي يسكب فيها الزيت على جذع شجرة الزيتون، حيت بعدها مباشرة يتكثف الألم ويشتد الشعور بالندم ويأخذ القلق في التصاعد حتى يكاد أن يطيح به.

الأبيض أسود 32

حاول ان يتكيّف مع كوابيسه الطارئة ويتصالح معها ليتقبلها ولوعلى مرارة لكنه لم يوفق في خلق توافق ولا تعايش معها وسرعان ما وصل إلى طريق مسدود لأنها تغولت عليه وتحولت في تصاعد محموم إلى مخاوف وخيالات مرعبة مقلقة لاتطاق على الإطلاق أكثر من ذي قبل، ووجد نفسه مضطراً إلى الإستعانة بأصدقائه الخلّص واشراكهم همه واللجؤ اليهم للوقوف إلى جانبه ومساعدته في البحث عن حل منقذ من هذه الأزمة التي المت به بشكل طاريء ودون مقدمات تحذيرية، بعد ان ضيّقت عليه وضاقت به الدنيا وتملكه الإكتئاب، فطلب من أعوانه وأصدقائه المقربين أن يبحثوا في كل الأصقاع عن معنى لهذه الرسالة المنامية الغامضة، لمعرفة بالضبط ماذا يريد أن يقول له هذا الحلم الملحاح الذي يلازمه وينغص عليه بلا هوادة ولم يترك له فرصة للراحة، ولم يعد بوسعه احتماله والصبرعليه المزيد من الوقت، ويحمّلهم مشدداً مهمة البحث والتقصي عنه على وجه السرعة، وعن ماهية دلالاته الحقيقية، تعهدوا بتدبر الأمر وبذل ما بوسعهم من مجهود ومنحه الإهتمام اللازم الذي يستحق، لأنه صادر عن رجل له مكانته وحظوته لديهم فلا يُرفضُ له طلب مهما كان شاقاً ومستعصياً، والمبادرة بالقيام بعمل عاجل لمواجهة هذا الحدث الذي يجري عكس توجهاتهم وما يشتهونه ويعد في حكم الواجب الوطني، لذلك أرسلوا العديد من المبعوثين والرسل المحاطين بالصمت والسرية والذين يتحلون بتركيز كبير ويقظة فائقة لايعلم

بمهمتهم أحد إلى كل الواحات والقرى القريبة والنائية وحتى الممالك البعيدة في مهمة البحث السرية هذه عمن يجيد ترجمة لغة المنام ويفك رموزها ويفهم طلاسمها من كهنة وعرافين كي يجد تفسيراً كافياً شافياً لهذا الحلم المزعج الذي يؤرق الشيخ ويستفزه وسينفره منّا اذا ما أهملناه وتفاقم واستمر معه بهذه الحالة، ولاشفاء نهائي منه إلا بالتوصّل إلى فهم وتفسير حقيقي وموضوعي للحلم، فان لم يكن التفسير صائباً بالكمال والتمام – المقاربة منه لا تكفي – سيبقى الكابوس قائماً مثلما كان، لا يزول ويبقى يداهمه ويرهقه وينغص عليه ليله ونهاره، واذا تمكنوا من اكتشاف مغزى لهذا اللغز المحير يعتبر هذا حلاً سيتوقف عندها الجثام تلقائياً وينتهي القلق الذي يرافقه فالكابوس الذي لا ينكشف ولا يعرف سره لايتوقف ولا ينتهي بل يلازم صاحبه إلى ان يفك طلسمه، وسمّوه التفسير الشافي العافي لأنه يشفي من الكابوس، وقد اشترطوا على هؤلاء الرسل التكتم والسرية وعدم إعطاء إجابات رخيصة اومجانية للآخرين ستضر بنا أكثر مما تنفعنا. تذكر ما أوصاه به أبوه عندما نصحه محذراً ومشدداً من عدم الزواج من أرملة أو ثيب غير معروفة سيرة حياتها للجميع، كان ذلك عندما كشف له عن سر ابوته له، لكنه في غمرة يأسه آنذاك نسي النصيحة وربما استهان بها واستخفها ومرَّرَها كخاطرة عرضية لاقيمة لها، وأقدم على ما أوحت به له نفسه الآن وصمم عليه رغم انه لم يستطع الإنعتاق من الماضي . بعد انقضاء مدة كافية من التجوال والتقصي، عاد كل الرسل والمبعوثين من كافة الواحات والقرى بالمنطقة التي امكنهم الوصول اليها وهم يحملون التفاسير التي تحصلوا عليها. والذين أدوا عملهم بمهنية الخبير المجرب بعد ان استفسروا وإستعلموا من كل العرافين ومن لهم باع

يذكر في هذا الشأن، كالمنجمين والسحرة الذين تعج بهم المنطقة، وبعد تمحيص وسجالات دار أغلبها في سرية تامة حسب التوصية بين هؤلاء المبعوثين والمنجمين وبقية العرافين حتى لا يتسرب منهم الخبر ويتفشى لعوام الناس. عاد كل واحد من المبعوثين يحمل نتائج جهوده من تفاسير وتحليلات وتكهنات تلقاها من أصحاب الخبرة والتجربة في هذا الشأن، الغريب في الأمر أن جميع الردود التي يحملونها جاءت واحدة أو متشابهة إلى حد كبير ومدهش، فلا إختلاف جوهري بين تفاسيرها وكأنها صدرت عن مصدر واحد أو عرّاف واحد، وتهدف كلها إلى معنى واحد لا ثانٍ له، وأجمعت على رأي لا إختلاف حول مغزاه. لكن كل من هؤلاء الرسل لم يقوَ على الإفصاح عما يحمل، فقد كان المضمون مشين وغير مرضٍ، ولا يقبل به كل من يسمعه من أهل الواحة، وسيكون خبراً صادماً ومدمراً لهم بل سيجن جنونهم عند سماعه، وتحدث اضطرابات وقلاقل لا تحمد عقباها، وتعود بالوبال على الجميع، إذ قد ينهار كل ما بنوه ويختّلُ توازن الكيان الذي حلموا به لذلك وجب الحذر من البوح به واعلانه، فإمتنع جميع الرسل عن الإدلاء بالتفسيرات التي تحصلوا عليها وإكتفوا بتلميحات شحيحة غير واضحة وايماءات غير صريحة بغية الوصول إلى الحقيقة الثمينة تدريجياً وعلى مراحل وليس دفعة واحدة، والتي قد يكونوا إفتكوها إفتكاكا من ألسنة العرافين، وان كان بعضهم قد أسر لمن كلفوهم بهذه المهمة، والذين بدورهم قد تكتموا على السر ونصحوا مشددين بعدم إفشائه على الأقل الآن، إتقاءاً لما قد يقع فجأة من فتنة وإحباط، وحذروهم أشد التحذير من التطرق إلى الموضوع بشكل واضح ومباشر مع احد غير أصحاب الشأن. أحس بالأيام القليلة الماضية التي فصلته عن لقاء منصور في

المرة السابقة قد مرت ثقيلة موحشة وكأنها دهر بحاله، لذلك فقد اشتاق اليه كثيراً من أجل سماع حديثه من جديد ليتطرق معه إلى مناحي أخرى ويتحصل منه على أجوبة لتساؤلاته الجديدة الطارئة أو القديمة التي لازالت تؤرقه، وندم على تلك المدد الطويلة التي قضاها برفقة ذلك الأجرب (الضاوي) في توجس وخوف، وأخيراً عرف الجلسات الممتعة مع من يجب ان تكون، انها بصحبة أهل المتعة وإخوة الحياة مثل عزيزي منصور، وقد عصف به الشوق إلى منصور، فطلب في استدعائه بحجةٍ هذا باطنها ليس أكثر، وظاهرها — حتى يتقبل الناس هذه العلاقة المشبوهة بينهما — تقديم الموعظة واسداء النصح لمنصور، بالتوقف عن ممارساته التي أضرت به ولفتت له أنظار النسوة اللواتي اصبحن يتحدثن عنه بلا توقف في كل لمة وقعدة، ولأنه اصبح فتنة ستأتي بالأهوال على الواحة ووجوده يشكل خطراً على الأخلاق حيث يزداد التعلق به من قبل اعداد غفيرة من النساء مع مرور الزمن، وتتحول اعماله إلى فجور من عمل الشيطان قد تستدعي الأحوال المتنامية إلى ضرورة التخلص منه بنفيه إلى خارج الواحة، ولكن إلى أين ؟؟

فاذا كان إلى واحة اخرى مأهولة بالناس سيفعل بها ما فعله بواحتنا، وبهذا نكون وكأننا لم نفعل شيئاً ايجابياً، ولكن يجب عزله في أحد الأودية المهجورة القصية ليقيم فيها صحبة نسائه، وحَجْره هناك بعيداً عن مسمع ومرأى الناس، وهذا ما عرضه على رسوله الذي بعثه اليه، كي ينقله إلى الناس وينشره بينهم ليعرفوا حيثيات هذه العلاقة الغامضة بين سيدنا ومنصور، وعندما اقبل منصور اليه ألفاه في انتظاره على ابواب بيته قلقاً إلى ان رآه فانبسطت سرائره واستكان وهدأ، وجذب اليه منصور من ذراعه قبل ان يصافحه وأخذ

يسحبه ويدخل به مسرعاً وهو يقول له معاتباً: —

لقد تمكنت من سرقة جزء كبير من كياني واختفيت، انا على يقين من ذلك لكنني لا اعرف ما هو هذا الجزء الكبير؟! ألم أطلب منك عدم اطالة الغيبة عني ومواصلتي على تقارب، اصطحبه إلى غرفة الجلوس، وهناك أجلسه إلى جواره بأقرب ما يمكن ثم أدنى سيدنا وجهه من أذن منصور وأسر له متسائلاً : —

انا لا أطيق تكرار الطلب لأكثر من مرة واحدة فلا تنشّف ريقي مثلما فعلتَ معي في المرة السابقة، قل لي هل لكم كعائلة علاقة من قريب أو بعيد بفصيلة الحمير؟ ..أطرق منصور لحظة ثم أجابه على الفور بعد ان ادرك بنباهته المعهودة مغزى سؤاله : —

قبل أكثر من مئتي سنة، يحكى أن جدتي الأولى لجدي، وهي حامل بجدي قد مرت ذات يوم صدفة على حمار وهو يتزاوج مع حمارة في أوج الممارسة، فوضعت يديها الاثنتين على رأسها ولعنت الشيطان الرجيم الذي وضعها أمام هذا المشهد وقد شاهدت المنظر كاملاً، وعندما انجبت جدي بعد عدة شهور جاء يحمل عضواً تناسلياً شبيها بقضيب ذاك الحمار، وهنا قاطعه سيدنا بقلق : —

تقصد لقد توحمت على الحمار!. رد عليه منصور: —

هذا ما وصلنا بعد مضي هذا الزمن الطويل وتناقلته الألسنِ، والعهدة على الراوي يا سيدنا الشيخ. ثم سأل الشيخ : —

ماذا تأكل وماذا تشرب، وهل تفعل في أشياء أخرى لا يفعلها الآخرون؟ وعندما عرف المغزى أيضاً من السؤال قال له منصور: —

لكن يا سيدنا مضاجعة النساء لا تعتمد على كبر حجم العضو التناسلي للرجل.. لكنها مهارة بحتة للجماع (شطارة) يكتسبها الذكر والأنثى على السواء، هناك من يمتلك عضواً هكذا (ومد رأس

سبابته) كعقلة هذا الأصبع، ويعمل به العمايل، يجعل صاحبته تهذي بفعل اللذة وتتأوه طيلة الليل كالمجنونة، وهو يمدها بجرعات جديد كلما قاربت من الصحو..عقّب الشيخ دون تثبت ليتني كنتُ أخوك ولنا جد واحد.

الأبيض أسود 33

(33) حان موعد اللقاء بين الشيخ والمرأة الأرملة التي سيتزوجها وهي التي اشترطتْ هذا اللقاء قبل البدء في أي ترتيبات، وتم الجمع بينهما في مكان محايد وبحضور عدد من النسوة اللواتي ارسلن اليها في وقت سابق لخطبتها، وبعد التعريف بينهما ابتدرته بالكلام دون مقدمات اذ كانت على عجل من سؤالها فقالت : —

أنا أحتار كيف أجد نفسي مدفوعة إلى سرد قصة قديمة عليك؟ كانت من أهم خصوصياتي التي أحرص على كتمانها وأصبحت تلح عليّ في هذه الآونة بشكل ملفت منذ أن زارتني هؤلاء النسوة يطلبن يدي لك، مما شكل لدي هاجس الارتباط بين الحدثين، كانت هذه القصة قد وقعت لي في بداية حياتي، وأنت لا تعلم لماذا أنا لم أتزوج ثانية بعد وفاة زوجي، وبقيت طيلة كل هذه السنين الطويلة التي عشتها مترمله علي حرمان، أرفض كل من تقدم مني طالباً يدي لأنني أحمل بين جوانحي قصة لم يسمع بها أحد من قبل ألا وهي : —

أننا أثناء تغريبتنا عندما إجتاح الجفاف واحتنا كنتُ وقتها إمرأة شابة في ريعان العمر وعندي ابني البكر وقد (وأدته) حياً لعجزي عن ارضاعه وحتى عن حمله بسبب التعب الشديد والجوع الذي حل بنا ولم استطع دفعا للشر الداهم، عجزتُ عن حمله المزيد من الوقت ووقعت تحت مساومة مجحفة، إما ان نموت انا ورضيعي معاً أو نحاول انقاذ ما يمكن انقاذه بتركه والتنازل عنه على أشد مضض وأنجو بنفسي بأقل خسارة، بقيت مترددة طيلة لحظات عصيبة..

وعندما لم أجدّ بد استسلمت لإملاءات القدر وتخليت عنه مكرهة، وأودعته تحت جرف وادي على مقربة من طريق القوافل الفارّة من الهلاك المحتوم ولا زلتُ حتى هذه اللحظة أحس بثقل جسمه بين ذراعيّ وكأنه لم يغادرهما بعد، وثقل الذنب الذي أحمله بين جوانحي ولن أنساه، فهل تستطيع يا سيدنا توظيف قدراتك التنبؤية التي سمعنا عنها كثيراً وصدقناها لمعرفة مصير ابني وماذا حدث له من بعدي، هل مات حقاً ؟، كان في صوتها نبرة ود وهي تتلهف لمعرفة مصير بكرها.

بقي الشيخ صامتاً دون حراك ويصغى إلى كلماتها بانتباه لكن وجه المرأة بدأ يتبذل شكل ملامحه وتعابيره ويتغير لون بشرته في عين الشيخ فقط، الذي جال ببصره إلى بقية الحضور من النساء فلاحظ ان وجوههن قد تغيرت هي الأخرى وأخذت ملامح جديدة، وهنا تمعَّر وجه الشيخ ونظر إلى ذراعيها بتمعن وسألها :

— ما إسم إبنك ؟

أجابت : — إسمه زيت . كرر سؤاله ماذا قلتِ ؟ زيت ؟!

— نعم اسمه زيت زيتون .

قال : — اذن انا مائة اسم واسم، ولكنه رقم كبقية الأرقام التي كنت أحسبها، مجرد أرقام بلا حقائق دامغة، وأقعُ بين كلب وحمار، ثم ضرب جبهته بكف يده ضربة قوية وصرخ صرخة كادت ان تنشق لها السماء واختفى من بعدها ولم يُرِ وجهه لأحد. اتى هذا الموقف على ما تبقى منه وكان قد شعر من قبل بالفشل والعجز عن تحقيق ما كان يمنّي به الناس وينتظرونه منه ويسعد به نفسه، واستنفذ الوعود التي كان يطلقها بلا حدود ولم ينجز منها وعداً واحداً، إذ أتاحت له فسحة حياته الطويلة ان يقدم لهؤلاء الناس الكثير لكنه لم يفعل أو

لم يستطع ان يفعل والندم أسوأ ردة فعل على النفس الآثمة، وبقيت الواحة على حالها بل على أسوأ مما كانت عليه بكثير، فالرضيع لا يستطيع حمل أمه ولو جزء ضئيل من الثانية، نال منه الإحباط وإرتد عن نفسه متخلياً عن قناعاته وأضحت الحياة في الواحة مأتم مستمر لا عزاء فيه لشيء فداهمته العدمية واللاجدوى وأحس باللانهائية، لقد ولّى عمره ولم يعد أمامه مايكفي لإنجاز شيء على الإطلاق، فأصبح يفكر في نهايته أكثر من تفكيره في بداية الأجيال الطالعة أو أي شيء آخر، اصبح يفكر في الموت الداهم الذي يضّيق عليه، وسعى لأن تكون ميتته ميتة شريفة ميتة شهيد، ولن يتأتى له ذلك الا بإفتعال حرب ويكون أول القتلى فيها، لكن الجميع أدركوا ما يفكر فيه فلم يمنحوه هذا الشرف. بينما تلك النظرة العابسة التي كان يصطنعها لازالتْ تعتلي محياه بكل سهولة وقت الحاجة دون ان توقع الرعب في نفس أحد ولا يكترث لها أحد، وأخذ يلاحقه شبح السقوط فاعتزل في مخبأه منهكاً محطماً بعد أن غابت عنه الحكمة والدهاء القديمين نهائياً واللتان اوصلتاه إلى ما أوصلتْ من جاه وسلطان، وإستيقظتْ فيه أحط الغرائز لدى الأنسان والتي عاش محروما منها، ورأى أن السعادة وراء المتعة فقط وانصرف تماما إلى ملاحقة اللذة اينما قابلته والتي رأى بعد ذلك انها هدفُ أعلى في الحياة، إلى ان ضمر وجهه وبرزت عظام خده بوضوح وترهل شدقاه وبدأت تسيح كتمثال من الشمع معرض للشمس في نهار قائظ تكاد تقطر، منهياً بذلك دوامة الفوضى والوهم التي كان يتخبط فيهما .

34 الأبيض أسود

(34) نفر من الأهـالـي، كانوا واقفين يتحدثون وسـط سـاحة السوق قبل أن ينطفـيء النهار تماماً ويفرقهم الليل الداهم بظلمته كل إلى مأواه، قد إعتادوا هذه الوقفة لتوديع النهار والأستمتاع بحديث المساء وفي هذا الوقت تحديداً تعتدل حرارة النهار وتنشط حركة الحياة بشكل ملفت في مركز الـواحـة، وجـد الشيـخ نفسه محبطاً محطماً بعد اللقاء الأخير مباشرة فقرر القيام بجولة المساءالمعتادة، جميعهم رأوه يتقدم نحو البئر بمشية غريبة وخطاه متخبطة غير موزونة، ولم يخطر ببالهم أنه يتجه نحو فوهة البئر مباشـرة، فهذا أمر مستبعد ولن يتطرق اليه تفكير أحد منهم، معتقدين انه سيمر مع الطريق المحاذية لجناحي البئر ويواصل السير إلى حيث مبتغاه، لم يحفلوا به وتظاهـروا بأنهم لم يركّزوا أنظارهم ناحيته أو حتى يلتفتوا اليه البته الا من نظرات خاطفة وجِدُّ سريعة لم يجد لها فضولهم مقاومة، كي لايتضايق الشيخ كما عرفوا عنه ذلك في السابق ويشتكي منهم ويظن بهم سوأً، أو يتبادر إلى ذهنه أنهم يراقبونه ويحصون عليه خطواته في خرجاته ودخلاته ليقيدوا حريته فهو يتأثر اشد التأثر من متابعة الناس له عندما يخرج إلى الشارع أو يمر بمكان ما، إذ يخشى أن يتعرض له أحدهم بأديّة، رغم أن الناس مبهورين به وبمظهره وبملابسه الفاخرة وكأنه أيقونة الواحة الوحيدة التي تستحق الإلتفات اليها والتمعن في هندامه رغبة من البعض في تقليده، فلا يكفون عن الإستمتاع بالنظر اليه وخاصة الأطفال الذين

يشبهون أمهاتهم في الطباع فيتضرع اليه بعضهم طالبين التوفيق في دراستهم وبقية مساعيهم ويتوسلون الشفاعة منه، لكن الذي يدور بخلده عكس ذلك تماماً إنه يتوجس أن يداهمه أي كاره له ويطعنه بسكين أو يهوي عليه بعصى غليظة قد لا تبقي وتصيب منه مقتلاً، فالإحتراس والشك مبالغاً فيهما من طرفه ولا أحد يعرف سبباً لذلك ولا أدركه بعد ! . بإمكانه أن يضع حرساً شخصياً له، لكن لا يريد أن يعرفوا أنه خائف منهم ويظن حدوث عملية إغتيال له من قبل أحد الكارهين، وهو يبتغي أن يعرف الناس عنه إنه آمن ولا شكوك تساوره في أحد، لكن لا أحد منهم كان يتوقع ولا خطر بباله إنه سقط في الجب، بل توقعوه قد مر بجانب ناصية البئر وذهب إلى حال سبيله حتى إختفى في الطريق وتوارى عن الأنظار خلف البنيان المقابلة إلى مكان ما يقصده ليس أكثر.. بالأخص وإنهم لم يسمعوا صوت إرتطام ولا صدر عنه صراخ أو آهات تألم ولا حتى أنين يلفت إنتباههم اليه ليهبوا لنجدته وانقاذه من الموت إن أمكنهم ذلك، كل شيء تم بهدؤ وصمت ثقيل وكأنه تعمد الإنتحار ووضع نهاية لحياته. بعد ان إفتقدوه في صباح اليوم التالي إقتفوا أثره إلى أن إنتهى عند فوهة البئر، لم يكن له آثار أقدام تخطو منفصلة وواضحة، لكن أقدامه تخط الأرض خطاً وكأن شيئاً ما يجرجره، الا أنه في حقيقة الحال يجرجر نفسه بنفسه. ولكن ما إن فكر في الزواج من المرأة الثيب الوحيدة والمعروفة في الواحة وعقد قرانه عليها وانعكس ذلك في شجرة الزيتون أم الشجر التي كان يرويها بزيتها، حتى إبتدأ فصل آخر جديد من حياته لم يكن يعرف عنه شيئاً إنه فصل في الجنون وفصل آخر في الجحيم لم يدم طويلاً، خُولِطَ عقله بسرعة، لقد خرج من داموسه راكباً فرساً معطرة ليدخل الواحة معززاً، وهاهو

الليلة يخرج من قصره ويتجه على غير هدى، مثلما خرج من الواحة القديمة على غير هدى .. خرج في تلك الليلة بوعيه ودخل الواحة على فرس معطرة ولكن هذه الليلة يخرج وقد سرى به (حمار الليل)*** الأجرب تائهاً في نومه إلى أن ألقى به في الجب، عاش وفي ظنه أنه لن يموت، ومات كما لو أنه لم يعش أبدا أو كما قال عنه أحد الشباب في ذات نبؤة : — ولد ميتاً وعاش ميتاً وهاهو يموت ميتاً، انا لم أطمئن لهذا الرجل منذ ان أركبناه على الفرس، وكانت دالة غير محمودة عندما بدأت عيناه تتسع أكثر من اللازم وتدلتّ ساقاه وأخذتّ تتمدد في استرخاء وتطول شيئا فشيئا دونما توقف بشكل غير طبيعي وملفت حتى تلامس الأرض، كنت ارقبها في ذهول وأندب حظ الواحة في وقت سابق لأوانه، وتصطدم قدماه بحجارة الأرض التي تعترضها وتؤلمه من حين لآخر وفي كل مرة كانت تصدر عنه أنّة جامدة أو صرخة وكأنه يطلب النجدة والتدخل باقتراح حل مناسب يقيه مما يتعرض له من آلام مبرحة وفي لحظة أن تصطدم أصابع قدمه بالحجارة كنت أحس بالضربة وكأنها في أصابعي أنا، فأرفع قدمي من فوري عن الأرض متوجعاً مثله وتأوي عليها يدي لتمسح عليها بقوة وكأن الذي يحدث له يحدث لي وما يحس به هو أحسُ به أنا! وطلب منا أن نزيد من سماكة السرج، بوضع المزيد من البسط أوالفرش، حتى تسهم في ارتفاعه ولو قليلا على مستوى ظهر الفرس، وبذلك سترتفع قدميه ولن تصطدم أو تلامس الحجارة، ولكن تمضي لحظات قليلة ثم تطول ساقاه من جديد، وتعمل خطوطا في الرمل عندما تمر بوعسة، وتصطدم بالحجارة في الأرض الجرجة. لا أحد منكم لاحظ ذلك أنا الوحيد الذي اكتشفتُ هذا ولكني احتفظت به لنفسي وتأكد لي أنه خلبوت، اذ لو كنتُ قد صرحتُ به علانية لكم في

ذلك الأوان لما تقبله مني احد ولاصدقتموني، معتبرين كلامي مجرد تجريح حاسد مُغرض يعود عليّ بالكيد، لأن الجميع متعلقين به ولا يقبلون فيه أي مذمة، فوقتئذ (ما كان لي أن أقول لا، ولكني ما قلت نعم قط)، رغم أن الناس كثر الذين أقبلوا معه، والجموع غفيرة التي استقبلته وهللت لمقدمه، ولكن لا أحد منهم لاحظ الطول المفرط والمُلفت لساقيه المتدلية..

35 الأبيض أسود

أحد الرعاة الخارجين إلى المرعى كعادته في الصباح الباكر على عجل، وبينما هو يهش على غنمه التي خف ضجيج دبيبها حتى تلاشى تماماً عكس سائر الأيام فالشياه الجائعة تسرع الخطى نحو المرعى، مما حدا به إلى الإحساس بالهدأة الطارئة والسكون الملفت الذي حدث، وإنتبه للقطيع فلاحظ أنه قد فقد الحركة تماما وتوقف بأكمله في جمود تام متسمراً في مكانه وكأنه في صورة ثابتة وقد إنتصبت آذانها جميعاً واتجهت إلى الأمام في ذهول وخوف، لعلما تصيخ أسماعها وهي تنظر ناحية البئر وتشعر بالصدمة، والراعي يعرف من هذه الحركة أن أغنامه قد أدركتّ شيئاً ما يحدث لكنه لم يتبينه مثلها بعد، فإستراب في الأمر وظن الراعي في البداية أن القطيع عطشان وقد تذكر الماء عند رؤية البئر واقترابه منه والذي اعتاد الشراب منه والآن يريد الورود للسقاية رافضاً التقدم الا بعد أن يشرب ويملأ بطونه بالماء، فنظر إلى ذات النقطة التي تبث القطيع عندها أنظاره فلاحظ على غير توقع تصاعد الأدخنة البيضاء من فوهة البئر التي سرعان ما تحولت إلى عمود هائل من الدخان الأسود الفاحم ولم يظهر أحد من أبناء اللون الأبيض السبعة في هذا العرض، وهو أول بئر حُفِرَ في الواحة، وبذا يكون أول بئر ماء قد شربوا منه جميعهم، أخذ الراعي يصرخ بأعلى صوته ويفزّع الناس، كي ينهضوا من سباتهم ويشاهدوا ما فعلته النار بالبئر حيث الماء يحترق وهي سابقة غير متوقعة ولا يصدقها عقل، ووجدوا ايضاً جدران مباني

الواحة تفرز سخاماً أسوداً ممزوجاً بالرماد ويسيل متساقطاً منها كالغرين، أو كتلك الأخاديد التي على الوجه الشمعي السائل المترهل، لتدروه بعد أن يجف نسائمُ الصيف الحارة ..

هامش :ـ

* سود المناسم :ـ كناية عن الإبل .

** السَّحرة السود :ـ اصحاب السحر الأسود .

*** (حمار الليل) :ـ هو السرنمة .

عند السفر في الصحراء، والتي كما تبدو أنها اشتقت اسمها من الصبر او على الاقل مرادف له وهي دالة شقاء أبدي، حيث يحتويك الصمتُ ويلفك الهدؤ، وتبقى وحدها رفيقك الأخرس الذي لا تعرف بالضبط أيريد رفقتك ام يرفضها؟، اي يحسنها أم يسيئها، وقد تتنكر لك نهائياً في أية لحظة طارئة، الصمت وسأم السفر يُشْعِرَانِكَ بطول الطريق ولا يخففها الا شوق الوصول المصاحب، فالأمل زاد آخر نحتاجه في ترحالنا، لا تثق في الصحراء

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE